إكساب وتنمية اللغة

د . خالد محمد الزواوي

مؤسسة حورس الدولية

الناشـــــــر

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع

١٤٤ ش طيبة ــ سبورتنج ــ الإسكندرية.

ت/ فاكس : ٠٣/٥٩٢٢١٧١ ــ ٠٣/٥٩٣٠٥٩٨

الطبعة الأولى – ٢٠٠٥

اسم المؤلف : د / خالد محمد الزواوي.

اسم الكتاب : " إكساب وتنمية اللغة ".

كمبيوتر جرافيك : أحمد أمين .

مدير النشر : مصطفي غنيم .

رقم الإيداع : ٤٤٠٩/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولى : 977-368-080-1

بسم الله الرحمن الرحيم

" إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون "

صدق الله العظيم (٢ يوسف)

إهداء

إلى ابنتي رشأ ...

التي علمني اسمها معنى اللغة

فالعامة يخطئون فيه نطقاً وكتابة، حيث يرسمون الكلمة بدون همزة، فتكتب وتنطق: رشا ومنها الرشوة. أما "رشأ" تكتب بالهمزة، وهي ولد الظبي إذا نما وقوى. وتنطق بالتفخيم. والهمزة على السطر، تنطق رِشاء، ومعناه: حبل الدلو...

مقدمة:

الجسر الأساسي للحفاظ على هويتنا العربية هو التمسك بلغتها في عصر العولمة، والتقدم السريع في جميع المجالات، فهي اللغة التي كرمها الله، فاختارها لساناً لوحيه، ففيها القرآن الكريم، وهي لغة العرب الأقدمين، ولغة المسلمين وغير المسلمين بحكم مكانتها المقدسة بينهم، وأهميتها البالغة، بها نقرأ القرآن ونفهم معانيه فقال تعالى: "إنا أنزلناه قرآناً عربياً" ليفهمه أهل العرب ومن بعدهم من الأمم العربية والإسلامية، وبها تم تأليف كل كتب التفسير والسنة والفقه والأصول والتوحيد، وغير ذلك مما يقع بين أيدينا من علوم وفنون وثقافات دينية، وغير دينية، وبها أيضاً يتم أداء العبادات والنسك والترتيلات، وهي اللغة التي يجتمع حولها الناطقون بالضاد في كل مكان، يتكلمون ويتفاهمون بها نطقاً وكتابة، ويصوغون بها فنونهم وآدابهم ومكاتباتهم، ونقلت تراثهم الثقافي والحضاري عبر الأجيال، إذا تحدثت بها فهمك من هم في جميع أقطارهم، يذكر لنا الدكتور طه حسين، عميد الأدب العربي، حين غادر المغرب من رحلته إلى القاهرة، قال له سفير المغرب وهو يودعه: بلغ تحيات المغرب إلى الشعب، ديالكم، ولم يفهم الدكتور معنى ديالكم إلا بعد أن فسرها له سفير مصر في المغرب آنذاك.. بأن معناها طرفكم، فلو أنه تحدث بالعربية لفهمه كل إنسان ينطق بالعربية التي منها ينطلق الأدب العربي برونقه وجلاله، فقد وصف الله اللسان العربي بأبلغ ما يوصف به الكلام، وهو البيان، فقال عز من قائل: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان"، ومن هنا فاق اللسان العربي كل الألسنة.. وكان الإسلام هو صاحب الفضل في تفجير الطاقات العربية التي كانت كامنة في شبه الجزيرة العربية، وحقق العرب به أعلى درجات الرقي الإنساني، فاللغة باقية ما بقي القرآن الكريم، والعربية بهذا هي اللغة الخالدة.

ومن خلال ممارستي للعملية التعليمية والتربوية قرابة أربعين عامـــاً، وخاصة في ميدان اللغة العربية، والتقائي بدفعات مـــن الطلبـــة والدارســـين والمدرسين والموجهين، ومشاركتي في عديد من الندوات والمؤتمرات الأدبية والفنية والثقافية والإعلامية، التي تناولت القضايا اللغوية والأدبية، ومشكلاتها التي ظهرت على الساحة في عالمنا العربي، وما يصادفه أبناؤنا في المدارس والمعاهد على اختلاف أنواعها ومراحلها من قصور في النهوض بلغتنا نطقـاً وكتابة، فاللغة العربية تشعر بأنها غريبة وسط أهلها، لا تستخدم بطلاقة فـــي التعبير بالفصحى، الفصحى الميسرة المعاصرة، أو الكتابة بها علـــى جميـــع مستويات المراحل التعليمية، ومن ثم يكون استخدامها في الحياة العامة بنفـس المستوى في جميع الميادين والمجالات، ويرجع السبب في ذلـــك إلـــى فقـــر المحصول من ألفاظ الفصحى، لتدني المستوى الذي يقدم لهم ولأن الحوافـــز والوسائل لتنمية هذا المحصول مفقودة، إلى جانب قصـــور الوعـــي حـــول خطورة الأمر، والجهل بموارد وطرق تنمية محصولهم اللغوي، إلى جـــانب عزلها عن سياق التواصل اللغوي وأطراحها بعيداً عن التفاعل معها.

إن اللغة العربية ذات تاريخ مجيد، لا تزال تنطقها شعوب من العـــراق إلى المحيط الأطلنطي من قارتي آسيا وأفريقيا، وقد تعهد الله- جل جلالـــه- ببقائها وخلودها على مر الأزمان، فقال تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا لـــه لحافظون"، فالذكر، هو القرآن وهو الوحي، وهو الكتاب، لغته ثابتة راســـخة ملأت الأرض قروناً متصلة شرقاً وغرباً، أدباً وعلماً وفلسفة، وإذا كان قـــد اعتراها صدأ، فواجبنا أن نمحوه عن وجهها العربي الأصيـــل، فـــهي أقـــدم اللغات الحية زمناً، وأطولها عمراً، وأكثرها قدرة على تمثـــل الحضـــارات السابقة عليها، تمثلت حضارات الأمم القديمة التي ســـبقتها فـــي الحضـــارة وأضافت إليها ما جعلها ذات حضارة كبرى أذاعتها في القارات القديمة: آسيا

وأفريقيا وأوروبا، وامتازت بحيوية متأججة نفاذة بحيث لم تنازل لغة أيـــام الفتوح الإسلامية إلا ظفرت بها، لمرونتها الشديدة واشتقاقاتها الكثيرة، وقادت اللغة العربية العالم حضارياً طوال ستة قرون منذ القرن الثـــامن الميـــلادي، وظلت علوم العرب وفلسفتهم تصب في أوروبا وجامعاتها منذ بـــدءوا فـــي ترجمتها بالقرن الحادي عشر الميلادي ومضوا يتعلمونها حتى القرن الســـابع عشر، وأخذت تضيء لهم مسالكهم إلى علومهم الحديثة.

نعم أصاب اللغة العربية ركود قروناً، وعادت إلى الازدهار في عصر محمد علي، وخلفائه، وفي هذا القرن الحادي والعشرين ينفتح العرب علـــى علوم الغرب، وينشطون في ترجمة الطب والعلوم المختلفـــة إلـــى العربيـــة، ويضعون معاجم العلوم فرادى وجماعات.

فاللغة العربية وعاء الثقافة، وركن من أركان الوطنية، علاوة على أنها أداة اتصال وتفاهم بين أبناء كل الأوطان العربية، ولا تقدم لأي مجـــال مـــن مجالات العلوم والثقافة إلا بازدهار اللغة العربية، وبغيرها لا علم ولا ثقافـــة، وهي بوجه عام العنصر الأساسي في كل قومية، والمرآة التي ترى فيها كـــل أمة أهم مقومات شخصيتها، وتجمع فيها مجمل حكمتها وخبرتـــها، ورصيـــد قيمها ومبادئها التي تعيش بها، وتكافح من أجلها.

يقول الدكتور السعيد محمد بدوي، عالم الدراسات اللغوية، نحن نصلي بالعربية، ونتعلم بالعربية، ونؤلف بالعربية، ونقرأ بالعربية، ونكتب بالعربيـــة، ونحاضر بالعربية، ونناقش بالعربية، ونغني بالعربيـــة، ونمـــزح بالعربيـــة، ونتشاجر بالعربية، ونبكي بالعربية، ونبيع بالعربية، ونشتري بالعربية، ونغش بالعربية، وننصح بالعربية ونكذب بالعربية ونصدق بالعربية ونكره بالعربيـــة ونحب بالعربية، ونقوم بكل نشاط لنا في المجتمع باللغة العربية، و"نحن" هـــذه ذات ألوان مختلفة: فمنا المتعلمون بأنواعهم المختلفة من خريجـــي الأزهـــر،

وحريجي المدارس الحاصة من إنجليزية وفرنسية. وألمانيه وإيطالية ويونانية، من دينية وعلمانية، وخريجي المدارس الحكومية، ومنا حريجو الجامعات المصرية، والجامعات الأوربية والأمريكية وغيرها، ومنا المهندسون والمحامون، والمدرسون والأطباء والقضاة، والزراعيون والعلماء والموظفون والتجار، ومنا الحرفيون من حلاقين ونجارين وحدادين وسمكرية وميكانيكية وسباكين وبنائين وترزية وكوائين ومبيضين إلى آخره، ومنا الأميون وأنصاف الأميين، مما لا يحصيه عد مهما طال وفي داخل كل قطاع من هذه القطاعات يتدرج أفراده في اتجاهات عدة من حيث درجة التعليم ودرجة الذكاء والسن والنوع- ذكر أو أنثى. والمنطقة الجغرافية التي نشأ فيها والتي نزح إليها، والمنطقة التي يضطر للسكنى فيها، والتي يضطر للعمل فيها، والطبقة التي نشأ فيها والتي انتقل إليها بمجهوده الخاص، والناس الذين يخالطهم بالزواج أو العمل أو اللهجة التي يضطر لاستخدامها في العمل، والأخرى التي يضطر لاستخدامها في المنزل وهكذا..

ويرى الدكتور بدوي، أن الواقع اللغوي في مصر يضم خمسة مستويات هي: فصحى التراث- وفصحى العصر- وعامية المثقفين- وعامية المتنورين- أما المستوى الخامس فهو عامية الأميين، وقد فسر كل مستوى من هذه المستويات في دراسة لغوية رائدة: "مستويات العربية المعاصرة في مصر"، بحث في علاقة اللغة بالحضارة، اللغة التي تتجمع حولها آمال المصريين والعرب، وترتكز عليها دعائم قوميتهم.

إن قضية اللغة العربية، والنهوض بها نطقاً وكتابة، قضية شعب بأكمله، فإذا أصابها سوء أو مسها ضعف فقد مس الشعب كله في سلوكياته وقيمه، فهي أكسير الحياة بالنسبة له، ولكل الشعوب، وهي التي تربط المجتمع كله بعضه ببعض، فإذا كانت في خطر فإن المجتمع كله أضحى في

حصر ممتاز. ونحن حريصين أن الشعب السبب المتعلم هو القادر على الحفاظ على لغته ونشرها وتنميتها وتطويرها لتواكب مصطلحات ومستجدات العصر.

لقد كانت الرواية الشفوية أول محاولة لنقل الثقافة العربية، ثم اتسعت الدولة الإسلامية في العصر الأموي، مما أدى إلى اختلاط العرب بالأعاجم، وهو ما يؤدي بدوره إلى خشية إفساد اللسان العربي، وهنا في هذا الوضع بدأ التفكير في ضبط وتصحيح هذا اللسان، حيث كان تأليف كتب النحو والصرف. وتنهض الدولة العباسية ومعها تنهض الكلمة العربية المكتوبة، وتظهر الكتب.

والأمر مختلف عندنا، تدهور وتدنى رغم الحضارة والثقافة العصرية فنرى الصراع بين اللغة اليومية التي تساندها وسائل الإعلام، وبين الفصحى التي تتراجع أمام سلطة هذه الأجهزة الإعلامية، وانهيار مستوى التعليم، وتخفيض ساعات تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات، مع انتشار المدارس الأجنبية التي تعلي من شأن اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية، ليتخرج منها الطالب وهو غير قادر على كتابة سطر واحد صحيح باللغة العربية، في وقت يتقن الكتابة بغيرها من اللغات الأجنبية أدباً كان أو علماً ولعلنا نذكر هنا حقيقة تسجلها كتب التاريخ، مؤداها أن اللغة العربية كانت إحدى لغتين في العالم القديم، تكتب بهما الفلسفة والعلوم فيما بين القرن الثامن، والقرن السادس عشر، حينما كانت العربية في الشرق، واللاتينية في الغرب، حتى اعتبرت اللغة العربية لغة عالمية وقتئذ.

د. خالد الزواوي

الباب الأول

اللغة والتعليم

الفصل الأول
ماهية اللغة

اللغة من أشد وظائف الإنسان إنسانية، وهي تعد من الخصائص التي اختص بها الله بني البشر، فالإنسان وحده هو القادر على استخدامها نطقاً وكتابة، حتى يتحقق التواصل بين الأفراد والمجتمعات على اختلاف بيئاتهم، فهي إذن أساس الحضارة البشرية، وتنتقل الخبرات والمعارف والمنجزات الحضارية بمختلف صورها عن طريقها، وعن طريقها أيضاً لا ينقطع الإنسان عن الحياة، فهي تعينه على الامتداد تاريخياً ليسهم في تشكيل فكر وثقافة وحياة الأجيال القادمة، وينقل لنا التاريخ أن ما نعرفه عن السابقين إنما وصلنا عن طريق اللغة، وما كتب في أزمانهم، وهي المفتاح لفهم الكثير عن السلوك الخاص بالأفراد أو التفاعل بينهم. وقد اهتم بعض الفلاسفة، وعلماء الخطابة واللغويون من أمثال أفلاطون وأرسطو باللغة، والعلاقة بينها وبين المجاز وبين المحاكاة، ودلالة الكلمات والعادات اللفظية، حتى أن بعض الباحثين أقبل على إدخال الحاسبات الآلية إلى مجال الدراسة اللغوية، كما أن اللغة تدخل في معظم العلوم الإنسانية، وهي مظهر من مظاهر السلوك الإنساني.

إن اللغة تتيح لنا دراسة الفكر والنتاج الفكري، ولابد أن ندرس عملها في المجتمع فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (والأغراض هي المعاني والدلالات التي يراد نقلها من متكلم إلى مستمع باستخدام الأصوات المنطوقة أو المكتوبة)، كما قال ابن جني، ولابد من توفير قدر من المعرفة عن طبيعة العقل البشري لكي نتكلم اللغة ونفهمها ونكتبها لأنها قائمة على أساس نسق من القواعد البنائية والتي تمكن متكلم أي لغة من أن يميز بين الجمل النحوية، وسلاسل الكلمات غير المقيدة بقواعد نحوية- تشومسكي-

فاللغوي لكي يحدث التخاطب ينبغي أن يفهم المستقبل ما يقولـــه المتكلـم أو يكتبه، لأن اللغة هي الطريق إلى التواصل، ولكـــي نفـــهم يســـتلزم تميـيز الأصوات، ويعني المعرفة بشيء أو موقف أو حدث أو تقرير لفظـــي، ثـــم يكون الإدراك وهو وظيفة معرفية نشطة تعي وتفهم وتنظم وتستخرج المعاني والدلالات، ومن هنا كانت اللغة محكومة بقواعد محددة. واللغة المنطوقة أهـم من لغة الكتابة، وأوسع انتشاراً على أساس أن الكلام عرف قبـــل الكتابـــة، ويرجع الاهتمام باللغة المكتوبة إلى:

- انتقالها من مكان إلى آخر عبر مسافات بعيدة.
- أنها تكاد تكون ثابتة ولا تتعرض للتغير المستمر الذي يصيب لغة الحديث.
- لا تتأثر اللغة المكتوبة بالمواقف العارضة، والانفعالات الزائدة، والتغـــير الشديد من موقف لآخر.

أما اللغة المنطوقـــة فـــهي تتـــأثر بالبيئـــة، والظـــروف الاجتماعيـــة والاقتصادية والثقافية، ويتم التخاطب اللفظي عن طريق الكلام والاستماع، أو القراءة والكتابة ونحن حين نتكلم نتبادل الحديث بكل أجزاء جسمنا، فيكـــون للإشارة المصاحبة أهميتها ودلالاتها، وهنا نفطن إلى أهمية إيقاع النطـــق أو سرعته، وإلى طول الموجة أو التردد، وإلى الشدة أو السعة.

وللدكتور زكي نجيب محمود فلسفة حول اللغة، إذ يقـــول: "إن اللغـــة ليست مجرد أداة تعبير واتصال، وإنما هي مشحونات فكرية وثقافية".

ويعبر جميل صليبا، أحد الدارسين عن اللغة: "مرآة الشعب ومســـتودع تراثه\، وديوان أدبه، وسجل مطامحه وأحلامه، ومفتاح أفكـــاره وعواطفـــه، وهي فوق هذا وذاك رمز كيانه الروحي وعنوان وحدته وتقدمـــه، وخزانـــة عاداته وتقاليده"، وعلى ذلك فاللغة هي الوسيلة المهمة والرئيســـية للتطـــور والتقدم الحضاري البشري. يقول د. أشلي مونتاكو: "إن الواسطة المهمة التي

يتحضر بها الإنسان إن هي إلا نظام من الرموز يتوسط بين المؤثر والمتأثر، وهذا النظام هو اللغة، فاللغة تضيف بعداً جديداً إلى عالم الإنسان".

وهكذا فاللغة تتضمن جميع صور التخاطب والاتصال سواء كان لفظياً أو غيـــر لفظي، بينما لا تطلق لغة الكلام في الغالب الأصح إلا على صورة التخاطب اللفظي الإنساني، سواء كان هذا التخاطب منطوقاً أو مكتوبا.

إن لغة الكلام تعتبر أقوى مظاهر النمو العقلي والحسي والحركي، كما تعـــد وسيلة من وسائل التفكير والتخيل والتذكر اختص بها الإنسان، وعدت مظهـــراً من مظاهر التفوق على سائر المخلوقات، ومادتها هي الأصوات، لا تـــؤدي وظيفتها إلا إذا ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، وألفت وفق نظام معين في مجموعات أو وحدات صوتية متجانسة متلائمة، وهذه المجموعات أو الـــوحدات الصوتية هي الكلمات، فقيمة الأصوات إذن تكمن في وجودها كمجمـــوعات، أي فـــي الكلمات التي تتكون منها. فالكلمة هي الوحدة اللغوية الأساســـية التـــي تشارك مشاركة فعالة في تكوين معارف الإنسان وتجاربه وأفكـــاره وصـــوره الذهنية، كما أنها "نقطة انطلاق الإبداع الكلامي"، إن في الكلمـــات طاقة كامنة، وقدرة خاصة، تأثر بها الجنس البشري لأنها الأدوات للسيطرة على الأشياء، وقد فرق بعض الباحثين بين "الكلمة" و"اللفظ"، ويمكن الأخذ بالرأي القائل بأن "اللفظ" هو الصيغة الخارجية "للكلمة"، فهو يقرب بين مختلف التصورات.

وقـــد لمســـت أهمـــية اللغة وأنا في زيارتي لبيت الله الحرام، حرص وشـــغف وتلهـــف الشعوب الأسيوية لمعرفة اللغة العربية لأنها الطريق إلى قـــراءة القرآن الكريم. فكانوا يتهافتون حولنا ليستمعوا إليها ونحن نقرأ آيات الله، ويتمـــنون لو يصبحون قادرين على معرفتها، وهنا أسجل ما قاله وزير خارجية شيلي الأسبق أنسورا "إنكم أمة عظيمة.. أعظم كثيراً مما تتصورون

أو تعرفون" وآه.. إذا كنا نعرف.. ونتعلم.. ونتعاون.. لكنا قد صرنا في حال غير الحال.. ولكانت الدول تسعى إلينا وتتمسح فينا، وتطلب الإذن بأن تحمل جنسيتنا بحكم لغاتها المستمدة من لغتنا.. وارتكازها على مخزوننا الحضاري.

إن اللغة قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما- روي- ويدخل في تكوين هذا النسق وحدات هي: النسق الدلالي- والنسق الإعرابي أو النحوي- والنسق الصرفي- والنسق المعجمي. وتأتي أهمية اللغة من أنها ضرورة من أهم ضرورات الحياة الاجتماعية، وهي وسيلة الإنسان إلى تنمية أفكاره وتجاربه، وإلى تهيئته للعطاء والإبداع والمشاركة في تحقيق حياة متحضرة، فالفرد نواة في مجتمعه، ومجتمعه حلقة في كيان المجتمع البشري، وقد ربط بعض الباحثين اللغة بالفكر الإنساني، وقرر بأن "إمكانية التفكير أولاً وأخيراً تستند إلى اللغة التي تستخدم في إبراز عناصر الفكر"، ففرض إنسان دون لغة معناه فرض إنسان دون فكر،- د. فايز ترحيني- بل إن بعضاً آخر مثل "وطسن" و"أرثر كيسلر" تجاوز ذلك فرأى أن اللغة هي التفكير نفسه.

يقول "كيسلر": "إن التفكير ليس سوى الحركات اللاشعورية للأحبال الصوتية وإنه نوع من الهمس غير المسموع الذي يدور بين المرء ونفسه"، أو بتعبير آخر أن التفكير ما هو إ لا مجرد كلام باطن.

ويرى علماء التربية وعلم النفس أن النمو العقلي للإنسان منوط بنموه اللغوي، وأنه كلما تطورت واتسعت لغة هذا الإنسان ارتقت قدراته العقلية فنما ذكاؤه وقوى تفكيره، وأكد على ذلك الفيلسوف الفرنسي "إتين كونديلاك" أما بياجيه فقد رأى أن الأفكار والمفاهيم تكتسب من المجتمع، ولكنه مع ذلك أكد على اللغة، وبناء على ذلك اعتبرت المهارات اللغوية مقياساً مهماً لمعرفة

نســبة الذكاء، وأن الاختبار اللغوي له قيمة أعظم من أي اختبار آخر للذكاء، وللغة علاقة بعلم النفس، ذلك أنه قبل أربعة عقود لم يكن علم اللغة يأخذ في الاعتــبار دراســة العــوامل النفسية التي تفسر اكتساب اللغة، والاستعدادات الفطــرية لدى المتعلمين، والمراحل العمرية التي ترتبط بالدرجات المتفاوتة لــتعلم اللغــة، والفــروق اللغوية الفردية، والدافعية لتعلم لغة أجنبية قد أدت الدراســات التجــريبية التــي أجريت خلال الثلاثين سنة الماضية في مجال اكتساب اللغة الأم، واللغات الأجنبية، وخاصة في أمريكا إلى نشوء ما يعرف باســم "علــم اللغــة النفسي" الذي حاول أن يجد إجابات لبعض الأسئلة التي طرحت مثل: هل ثمة فروق بين اكتساب اللغة الأم واللغة الأجنبية؟

ما اللغة:

اللغة ظاهرة مجتمعية، وهي لغة وطنية قومية، يمكن استخدامها في كل الــبلاد العــربية، وتستطيع أن تلبي جميع الاحتياجات سواء أكانت أدبية أو علمية أو غيرها، فهي لكثرة معانيها، وتنوع مصطلحاتها، وقدرتها الصرفية والنحوية، وانفرادها بوجود ثنائية فيها، تعطيها هذه الصفات قيمة جمالية، إلى جانب تنمية الثروة اللغوية عند المتكلم، مع كل هذه الأهمية، إلا أنها تتعرض لمجموعة من التحديات والمخاطر، منها تحديات خارجية تتمثل في محاولات تفــريغها من محتواها، والادعاء بأنها لا تساير العصر والتطور، ومن ثم لا تصــلح.. ومنها تحديات داخلية تتجسد في عدم الاهتمام والتعامل بها، وعدم تطويــرها وتنميتها، وتجمد مناهج تعليمها. وتعاني مظهرية اجتماعية جوفاء تتهافت على التحدث بلغة أجنبية، وتصف بالعار من يتحدث بالعربية، وتمتدح اللســان الأجنبي، في حين أننا نرى في الدول المتقدمة، لا يتعلم التلميذ سوى لغة بلده باعتبارها اللغة الأم، وعندما يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة، يتعلم لغة أخرى كلغة أجنبية، بينما كل المناهج تدرس باللغة الوطنية، وإذا تقدم أحد في

جامعاتها للحصول على درجة علمية، فإن الشرط الأساسي هو تقديم البحث ومناقشته باللغة الوطنية للبلد، وقد حذت جامعاتنا في مصر حذو الجامعات الأجنبية، فقد قررت بعض الكليات عدم قبول رسالة علمية إلا بعد اجتياز صاحب الرسالة لامتحان في اللغة العربية.

هناك من يؤكد أن اللغة وعاء للفكر، وأن وظيفتها هي التعبير عن الفكر البشري، وكثير من المحدثين يفضلون أن يقصروا وظيفة اللغة على الاتصال، وقد قرأنا بعض الآراء عن اللغة وطبيعتها ووظيفتها.

ويمكن لنا أن نجمل هذه الآراء، حول الوظائف اللغوية، أو مظاهر السلوك اللغوي في: استعمال اللغة للتحية، واستعمالها في الطقوس الدينية والأوردة والأدعية، واستعمالها في المناسبات الرسمية، وفي إصدار الأوامر والتحكم في تصرفات الآخرين.

وللغة المكتوبة وظيفة في غاية الأهمية، فما نقوله أو نسمعه ونردده شفوياً، قد يضيع ، وقد يزيد أو ينقص ، والوسيلة لحفظ ذلك كله هو تسجيله كتابة، والأمة التي تستعمل الكتابة لا يضيع تاريخها وتراثها، ولا شك أن اللغة تستعمل أيضاً للتعبير عن المشاعر المختلفة، كما أنها تعبير عن الفكر.

وأفضل شيء أن ننظر في اللغة على أساس أنها مظهر من مظاهر السلوك الإنساني إن لم تكن أهم تلك المظاهر جميعاً، ننظر إلى أننا نضطر في معظم الأحايين لاستعمالها لترافق مظاهر السلوك الأخرى غير اللغوية، وتتفاعل معها.

وهذا هو ما فعله "إدوارد هول" في كتابه "لغة بغير كلام" الذي قسم فيه مظاهر الحياة المختلفة إلى عشرة أنواع، يتفاعل كل مظهر منها مع التسعة

الأخرى لتكون معاً تلك الشبكة المتداخلة من العلاقات الإنسانية، وقد وضع اللغة على رأس المظاهر جميعاً.

Edward Hall: The Silent Language, (N. Y. Doubledny) Several Impressions.

واللغة ليست في جانبها الوظيفي مقصورة على الجانب العقلي في التعبير، فهناك الجانب الآخر من وظيفة اللغة الذي يرتبط بتقديم الخبرة الإنسانية في صورة نقية مهذبة، ولا شك أن أخذ الطفل منذ البداية بالارتباط مع اللغة الوجدانية، لغة المشاعر والإحساس من أبرز ما يجب أن يركز عليه تعليم اللغة، فالتلميذ منذ البداية يجب أن يشعر بقدرة الكلمة على التصوير والإبداع، وبقوتها في إبراز مكنون النفس الإنسانية، وما يعتمل فيها من انفعالات وعواطف، ومعنى هذا أن يحاول المعلم مع تلاميذه الإحساس بالإيقاع، والنغم الموسيقي الذي يبدو فيما يقرأونه أو يسمعونه.

إن الشعر يعلم الطفل كلمات جديدة، وأساليب للتعبير، كما يمده بأفكار جديدة، وبهذا ينمو تعبيره الخاص، وتقوى لغته الخاصة، ولكي يربي المعلم تلاميذه على الاستمتاع بالشعر، عليه أن يفكر فيما سلكه أحد المدرسين مع تلاميذه، ذلك أن بعض المدرسين كان يطلب من تلاميذه وهو يقرأ عليهم مضامين النصوص الأدبية، أن يغلقوا أعينهم، وأن يستمعوا بدقة لما يقوله، وأن يفكروا فيما يعرضه الشعر من صور ونماذج، وكان الأطفال ينصتون في لهفة وإحساس، وكانوا يتحدثون عن الصور الجميلة التي سمعوا عنها في الشعر.

عناصر اللغة:

ولابد للتعامل مع اللغة العربية أن نعرف العناصر التي تتألف منـــها، فالصانع الذي يقدم عملاً للمجتمع، لابد أن يكون عالماً بـــأدوات صناعتـه، ولمن صنعها ولم يصنعها ولأي شيء تستخدم، وكيف تســتخدم، ثـم يضـع كتالوجاً لصيانتها إذا ما تعرضت لخلل ما، إلا أن استخدامنا للغتنـا شـيء، ومحاولة النهوض بها شيء آخر، النهوض بها نطقاً وكتابـة، وإذن لابـد أن نفهم مكوناتها، فاللغة مجموعة من الأصوات، وهي اللبنـات الأولـى التـي تتكون منها الوحدات كالكلمات والجمل، وهذا هو المظهر الذي يسمى بالنظام الصوتي للغة، ولابد من دراسته، وهذا يجعلنا نسلم بأن عملية الاتصال تتـم عند الإنسان والحيوان، وربما النبات والجماد عن طريق الأصوات، فهي وإن كانت جذور كلمات عند البشر، إلا أنها تختلف لطريقة التواصل بين سـائر الأجناس الأخرى، فالنمل يتواصل: "قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مسـاكنكم"، فله لغته.. وللطير كذلك، ولنا في قصة "هدهد سليمان" ما يدل على ذلك، إلـى جانب علم سليمان بمنطقه وبلغة النمل، وكثيراً ما نسمع من يتكلم عـن لغـة النبات، والجماد أيضاً له تواصله، فقول الله تعالى: "يا جبال أوبـي معـه.." دليل على التواصل، وليس من شك في أن الأصوات تنتج عن عاطفة، تلـك العاطفة التي تسبغ التواصل بانفعالات معينة، وذات معنى ودلالة، فإذا نظرنـا مثلاً إلى قول الله تعالى: "فما بكت عليهم السماء.."

عرفنا أن البكاء لا يأتي إلا من عاطفة، كالعاطفة التي ميزت الإنسـان في تعاملاته، والكلمة في لغات البشر هي أصغر وحدة لها دلالتها ومعناهـا، ومن ثم كانت المعاجم غير أننا لا نتكلم بمفردات اللغة، وبالكلمات المنفصلـة كما يفعل الطفل في أول عهده باللغة، وتنتظم المفردات بعضها مـع بعـض بموجب قواعد معينة لكي تكون الجملة هي وحدة التواصل الرئيسية، وعلـى

ذلك فاللغة هي الوسيلة الأساسية للتواصل والتفاهم بين البشر، وهي التي تميز الإنسان عن سائر الأجناس التي خلقها الله، والجماد والنبات والحيوان- وإن كانت لها لغتها- إلا أنها تظل في خدمة الإنسان- ذلك العقل المميز- الذي يعتبر أرقى هذه الأجناس وأسماها.

وهناك علاقة بين اللغة والمجتمع والحضارة، فلغة مجتمع معين هي التي تحدد الإطار الذي لا يمكن لذلك المجتمع أن يرى العالم إ لا من خلاله، كما قال عدد من كبار المفكرين في العصر الحاضر أمثال: الفرد كورزبسكي (١٨٧٩- ١٩٥٠) الذي كان يقول: "إن الخريطة لا تمثل الرقعة الأرضية كلها"، أي أن اللغة لا تمثل كل ما يشمله هذا العالم من أشياء، وما يحدث فيه من أحداث.

إن اللغة هي أداة التعامل والتواصل بين الناس على اختلافهم، وبذلك تختلف وظائفها بين موقف وآخر، إلى جانب أن هناك لغة واحدة في هذا العالم، هي لغة الإنسان، تختلف هي الأخرى عن جميع الوسائل الأخرى التي تتواصل بها سائر المخلوقات، مع وجوب التركيز على اللغة نطقاً، والاهتمام بالنواحي الصوتية المؤثرة في المعاني: النبر والتنغيم والوقف، مع الاهتمام بطريقة الكتابة وبالتهجئة والترقيم والتنقيط وغير ذلك.

إنها اللغة التي تتجمع حولها آمال العرب، وترتكز عليها دعائم قوميتهم، وبالإمكان أن تصبح لغة التخاطب بين الناس في أمور الحياة اليومية.

ويعرف (وبستر) اللغة في قاموسه: "بأنها عبارة عن الحديث الإنساني الملفوظ الذي يمكن سماعه عندما يصدره اللسان، والأجهزة الصوتية القريبة منه، فهي رموز أو أصوات ذات دلالة بها يعبر الإنسان عما في نفسه، وما يجول بخاطره- وإن كانت في واقع الأمر- ليست مجرد أداة، أو وسيلة

للتعبير، لكنها مشحونات لتراث من الفكر والثقافة والقيم، والتراكمـــات مـــن التجارب والخبرات".

وهي كائن حي مرتبط بمجتمع له تاريخـــه، ولـــه ظروفـــه وتطـــوره وتنوعه، ومهما كانت جذورها المشدودة للأنماط التقليدية والكلاسيكية، فـــإن متابعاتها للمنجزات العلمية والتكنولوجية تتطلب منها أن تتسع معدتها، ويتسع قماشها لكي يكون قابلاً لاستيعاب كل المعطيات الجديدة، فهذا الكائن الحـــي ينمو، ولكنه أو هكذا ينبغي ألا يموت.. وهو الذي يمتد بين مـــاض عريـــق، وصولاً إلى حاضر نتنفسه، متطلعاً إلى غد نأمله، وهـــي اعـــتزاز بانتمائنـــا الوطني، وبهويتنا القومية، وإحدى ركائز تجمع ما بين الأمة من محيطها إلى خليجها، وهي أيضاً إحدى وسائل انطلاقنا.

إن علاقة اللغة العربية بالقرآن والسنة والإسلام، لا ينفي عنها أنها لغة كأي لغة أخرى واللغة العربية ظاهرة شديدة التعقيد، مثلـــها مثـــل أي لغـــة أخرى، لأنها تتصل بجوانب مادية وفيزيائية وفسيولوجية، واجتماعية ونفسـية وعقلية، ولذلك تفرعت علوم اللغة، وتنوعت في صورة علوم لغوية تبلغ إلـــى ما يقرب من عشرين فرعاً، ومن هذه العلوم اللغوية علم التخطيط اللغوي، أو كما يسمى أحياناً الهندسة اللغوية، ويسعى هذا العلـــم إلـــى حـــل مشـــكلات الاتصال اللغوي، واستخدام اللغة على مستوى الأمة والوطن، وذلك بتقديـــم خطط علمية واضحة ومحددة الأهداف للتصدي للمشكلات اللغوية، واقـــتراح الحلول العلمية والعملية لذلك، وفق برنامج زمني محدد، وذلك مـــن خـــلال دراسات لغوية علمية مثل: علاقة الفصحى بالعامية، ومســـتويات الفصحـــى التي نريد لها السيادة في حياتنا اللغوية، والمستوى اللغـــوي الـــذي ينبغـــي استخدامه، أو الذي ينبغي على وسائل الإعلام والإعلان المنطوقة والمرئيـــة والمكتوبة الالتزام به، ولغة الدين والسياسة، وتعليم اللغات القومية، واللغـــات

الأجنبية، والمستويات اللغوية التي ينبغي أن تعلم، وأنواع المعاجم اللغوية، وغير اللغوية التي تحتاج إليها، والترجمة وما ينبغي أن يترجم، ووضع ضوابط للكتابة، والخطوط التي ينبغي الالتزام بها، وحدود استعمال اللغات الأجنبية، خاصة في الإعلان، وعلى وجهات المحال التجارية، وحدود استعمال هذه اللغات في التعليم.

ونحن نحتاج اللغة لاعتبارات قومية ودينية وثقافية، ولاعتبارات تتعلق بنضجها ذاتها، من أجل ذلك نحرص عليها، ونحاول النهوض بها: نطقاً وكتابة، لأنها إلى جانب حاجتنا إليها وحي سماوي خالد بها، فتقدير السماء بهذه اللغة على هذا المستوى من التقدير، ومن ثم يكون تقديرنا نحن لها على هذا المستوى، وإذا كان الأساس الديني لنشأة اللغة لا مراء فيه، إلا أنها قد أصبحت الآن موضوعاً علمياً يجب الحرص عليه.

من أهداف اللغة:

- تذوق الفنون.
- ترقية ذوق الأطفال وأحاسيسهم ووجدانهم، والتدريب على سر الجمال في الكلمة.
- التعرف على بعض القيم والاتجاهات والمواهب.
- التعـرف علـى بعض أنماط السلوك، والتركيز على ما يرتبط بها، وعلى القيم.
- التعرف على بعض المشاعر الداخلية، والتركيز على الجوانب التي تحدث تأثيراً انفعالياً عند الأطفال.
- تدريبهم على سر الجمال في الكلمة، وإثراء اللغة عند الطفل.
- الرسـم والـتلوين والتجمـيل والتصوير بقدر ما يحيط الإنسان من ألوان التجميل الطبيعي في الكلمة.
- في الكلمة جمال وتمثيل، وعلى الطفل أن يدرك سر الجمال فيها.
- التعبير بصورة مباشرة سعة لغوية للطفل.
- الموسيقى جزء أساسي ضروري من التعليم للطفل، وأيضاً الكلمة المغناة.
- تنشئة التهذيب، والإحساس بالكرامة.
- الارتقاء بالشخصية، والشعور بالثقة.

اللغة واستخداماتها:

- الاستفهام عن كيفية استخدام كلمة معينة.

- اللغة مظهر من مظاهر السلوك الإنساني.
- الطرق المختلفة في الاستعمال اللغوي.
- الاستفهام عن واقعة وإعطاء معلومات عنها.
- الدلالة على موقف انفعالي.
- دور الاستماع في حياة الطفل التعليمية.
- توسيع النظرة الإنسانية للحياة عند الطفل.
- تزكية الشعور الوطني، وإلهاب العواطف القومية.
- الأناشيد المرتبطة بحياة الطفل وواقعه.
- الاختزان اللغوي عند الطفل، وأهمية الحفظ وتنمية الميول.
- تقوية الملكات في التخيل، وزيادة القاموس اللغوي في الألفاظ والأساليب والمعاني.
- الأفكار والصور وألوان الخيال، وتنمية الإحساس بالمعنى والإدراك الجمالي.

الفصل الثاني

اكتساب اللغة "ميكانيكية النمو"

لمفهوم مطالب النمو أهمية في الكشف عن المستويات الضرورية التي تحدد كل خطوط تطور الفرد، وهي بذلك تصلح لتوقيت العمليات التعليمية المختلفة وترتيبها في وحدات متتابعة متعاقبة، وتبين تلبية مطالب النمو مدى تحقيق الفرد لحاجاته، وإشباعه لرغباته وفقاً لمستوى نضجه وتطور خبراته التي تتناسب مع سنه، وتظهر هذه المطالب نتيجة للنمو العضوي، وبعضها ينتج من الآثار والضغوط الثقافية للمجتمع، وبعضها ينتج من القيم التي يعتنقها الفرد، ومن مستوى الطموح الذي يهدف إليه، وتنتج مطالب النمو من تفاعل عوامل هي: مظاهر النمو العضوي، ومظاهر الثقافة القائمة- ثم مستوى طموح الفرد.

والإنسان يتعلم لغة الكلام القومية منذ طفولته، بعد أن يتوافر لديه الاستعداد الفطري التام لاكتسابها، ويلتقي عنده خطا اللغة والفكر، ثم يبدأ شيئا َفشيئاً بالكشف عن مميزات اللغة وإدراك غاياتها ووظائفها وارتباطها بما حوله، وتصبح عملية اكتساب الإنسان للغة متطابقة مع قوانين اكتساب العادات والتقاليد الأسرية والاجتماعية، ضمن إطار العلاقات المثيرة والاستجابات، كما يرى السلوكيون أمثال "واطسون" و"سكنر".

وتخضع عملية اكتساب اللغة لمراحل زمنية مختلفة تبعاً لهذا التقسيم: مطالب النمو في مرحلة المهد، والطفولة المبكرة من الميلاد وحتى ست سنوات: تبدأ بمرحلة المناغاة، تتحول حين يتجاوز الطفل شهوره السبعة الأولى من المناغاة إلى مقاطع ثم كلمات، ويبدأ بعدها في التعبير عن جملة بأكملها في كلمة واحدة، معتمداً في ذلك على قدرته على التقليد والمحاكاة.

وفي نهاية السنة الثانية، يبدأ في تعلم العلاقات بين عناصر الجملة والصفات الدلالية لأجزائها المكونة، ويبدأ في تكوين الجملة ذات الكلمتين، ثم إلى تكوين الجمل.

وتكون القدرة على اكتساب اللغة في أوج نشاطها- كما يرى بعض علماء اللغة- قبل السنة الخامسة، ويبدأ الطفل في اكتساب الكلمات وتحصيلها كجزء من اكتسابه العام للغة منذ طفولته، وقد يتأخر نطق الطفل للكلمات أو يبقى حتى الشهر العاشر أو الثاني عشر في مرحلة الكلمة الواحدة، أو في دور نطق المقاطع رغم أنه يفهم كلمات عديدة.

يحصل الطفل من ألفاظ اللغة في الثمانية عشر شهراً الأولى بين (٣-٥٠) كلمة يصل متوسط عدد الكلمات التي يكتسبها إلى أربعمائة كلمة تقريباً، عندما يبلغ سنتين ونصف السنة من العمر، وببلوغه سن الثالثة يمكن أن يصل عدد الكلمات التي اكتسبها إلى ألف كلمة في المتوسط ، ويظل هذا العدد في تنام وتطور مستمرين، بقدر ما يتاح له من عوامل النمو والتطور، وقد لاحظ بعض الدارسين أن معظم الكلمات التي يكتسبها طفل ما قبل المدرسة، أو الطفل في بدايات نموه عامة، ذات مدلولات محسوسة، وبالأخص الكلمات التي تدل على أشياء أو مخلوقات متحركة أو قابلة للحركة.

وقد أظهرت الدراسات التي أجريت على الأطفال في المراحل الدراسية الأولى، أن المفردات اللغوية لديهم تظل تتزايد سنة بعد أخرى، فاكتساب اللغة تظل أكثر ارتباطاً بالأطفال، والإنتاج والفهم (أو الإدراك) ليست محددة بمراحل عمرية معينة.

إن اكتساب الطفل السوي للغة ولمفرداتها في المراحل الأولى من نموه عامة ربما يكون كما يرى (نوام تشومسكي) عفوياً تلقائياً، لأن ذهن الطفل

مهيأ بشكل من الأشكال لإتمام عملية التكلم واتجاهه لإثبات وجوده الاجتماعي اتجاه فطري والطفل يعتمد على أمه في بداية هذه المرحلة اعتماداً كلياً، وعليه فالأسرة ، بل المحيط الذي يعيش فيه الفرد بأكمله ما هو إلا جزء من المجتمع الكبير الذي تظهر وتنمو فيه اللغة القومية، وقد بينت الدراسات والتجارب أن الأطفال الرضع في سن شهر أو شهرين يمكنهم التمييز بين بعض الوحدات الأولية للأصوات الصادرة أثناء الكلام.

مطالب النمو في مرحلة الطفولة المتأخرة (٦-١٢) سنة:

يتعلم الطفل المهارات الحركية، مع تكوين اتجاه عام نحو نفسه وحولها ككائن حي ينمو، ويتعلم مصاحبة الأتراب، ويكون المفاهيم والمدركات الخاصة بالحياة اليومية، وتكوين الضمير والقيم الخلقية والمعايير السلوكية، وتكوين اتجاهات نفسية متصلة بالمجتمعات البشرية المختلفة، ولا يأتي ذلك عن طريق ما يعرفه الطفل من لغة، فتتكون الجمل من الكلمات لديه في تسع سنوات، فيستخدم الأسماء للدلالة على الناس والحيوانات والأشياء، وكذلك الأفعال لتعبر عما يفعله الناس وما يحيط به، ويستخدم الصفات لوصف ما يشاهده.

مطالب نمو البلوغ والمراهقين (١٢-٢١ سنة):

في هذه المرحلة يتقبل الفرد التغيرات التي تحدث له نتيجة نموه الجسمي، ويكون علاقات جديدة مع الأصدقاء، ويستقل عاطفياً عن الأسرة، ويصل إلى مستوى الاطمئنان كما يحدد مستقبله لما يتكون لديه من المهارات والمفاهيم العقلية الضرورية للمواطنة الصحيحة، ويتقبل المسئولية الاجتماعية، وتتكون لديه قيم سلوكية.

إن أنماط الحياة وأساليبها في تغير متواصل وتطور مستمر، وتبعاً لذلك تتغير حاجات الناس وأغراضهم وأساليبهم، وتطور لغاتهم ولهجاتهم وألفاظهم ومعانيهم، ومهما كان الاستعداد الفطري للإنسان، وكانت العوامل المساعدة، والأمور مهيأة لاكتساب اللغة، فإن حصيلة اللغة القومية من الألفاظ تبقى أوسع من أن يحيط بها الفرد أو يتلقاها بمجرد التعايش مع أفراد أسرته، والاختلاط بأهل محيطه، "إن الألفاظ تابعة للحياة، إنها تتحول بتحولها، فطالما أن الحياة لا تثبت على طور من الأطوار، فكذلك الألفاظ لا تثبت على وجه من الوجوه على تراخي الأحقاب، فالصلة بين الحياة والألفاظ مستحكمة الأواصر".

إن من المسلم به أن لدى الأطفال استعداداً ولادياً لمهارة لغوية تسمى: "جهاز اكتساب اللغة"، يمكن الأطفال من السيطرة على الإشارات القادمة وإعطائها معنى وإنتاج استجابة . "ويرى الكثيرون أن الأطفال يأتون إلى العالم مجهزين وراثياً أو جينياً للتعامل مع اللغة بطريقة معينة، وأن المبادئ الفعالة في تعلم اللغة جزء من ميراثنا البيولوجي"، حتى إذا كانوا ينتمون لمستويات شديدة الاختلاف من الذكاء والبيئة الثقافية، وتطاع القواعد في حدود معينة دون أن يظهر ما يدل على فهمها في البداية، وقد قيل إن الإنسان: فريد فيما لديه من استعدادات لغوية، ولكن ما هو الطريق الذي يتبعه الأطفال في تعلم كيفية فهم وإنتاج اللغة في المراحل العمرية الأولى؟ لاشك أن اللغة تتيح لنا دراسة الفكر، والنتاج الفكري، وقد بدأ علماء اللغة أمثال سلوبن، وبادن، وسبولسكي، وغيرهم في دراسة لغة الطفل وتطورها، وخاصة في المرحلة المبكرة- ما بين سنة ونصف وأربع سنوات- وأثبتوا أن لغة الطفل لها سماتها المميزة عن لغة الكبار، كما أثبتت أن أفضل المراحل العمرية لاكتساب اللغة هي ما بين عامين وسن البلوغ، وأن تعرض الأطفال للغة في مواقف طبيعية يعد مفيداً للغاية.

إن اللغات التي يكتسبها أطفال العالم هي التي أمضى اللغويـــون فـــي دراستها وتحليلها وفي محاولة التوصل إلى النـــهوض بـــها نطقـــاً وكتابـــة، ومازالت المحاولات متصلة في سبر أغوار هـــذه اللغـــة، فكلمـــا وصلـــت المحاولات إلى شيء من النتائج المرضية جئ بمنهج مختلف اعتقاداً في أنـــه أفضل من غيره، وهكذا محاولات مستمرة دون أن يتمكن الإنسان من حـــل شاف حول هذه القضية.

الخطأ والصواب:

يولد الطفل مزود بنعم كثيرة- كالسمع، والبصر والحس والعقل- ما تلبث أن تنمو لتشكل له رأس مال يكون به قادراً على العيش ، ومواصلة النماء، وتلبية حاجات الحياة، ومضت سنة الله في خلقه استكمالاً لهذه النعم الفطرية بما أودع في الإنسان من طاقات هائلة، تؤهله للرقي والارتقاء، وتعده للإنتاج والإبداع، وتساعده على التكيف والعطاء، وتشكل له أساساً لابد منه في حياته الفردية والاجتماعية، وأبرز ما يتمثل ذلك في اكتساب اللغة، من هنا وجب الاهتمام بتعليم اللغة، على مستوى الفرد والمجتمع أيضاً، وتنهض عناصر التربية ، ومؤسسات التعليم بهذا المطلب الحيوي الجوهري بحيث يتحقق الإتقان للغة في صورتيها: الرمزية الصوتية، وتشمل: الكلام والاستماع، والرمزية الخطية، وتشمل: القراءة والكتابة والضعف أو القصور في أحد هذين الجانبين، أو في المهارات المساعدة المتصلة بهما، قصور في الاتصال الاجتماعي، وتعطيل لوظيفة اللغة، ونقص يعتري الأفراد، وخطر يهدد الأمة، وحيف يلحق تاريخها، ويشوه شخصيتها، ويساومها على ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وأصبح الضعف اللغوي ظاهرة العصر، وقصر الأداء اللفظي والكتابي عن استكمال مظاهر الصحة بين كثير من أبناء المدارس والجامعات، وامتد الضعف إلى وجوه الأداء اللغوي الأولية. والمهارات المساعدة، وأخلت بالمعنى في بعض الأحيان، وبمظهر الكتابة بوصفها وسيلة للاتصال والتعبير، ونقل الطلاب ضعفهم من التعليم العام إلى الجامعات، التي خرجت فئات من المعلمين غير المؤهلين لسد العجز وتلافي النقص، في دائرة مغلقة لا يعرف مبتدؤها ولا منتهاها لتحديد نقطة الضعف، وما يغص به إنشاء الطلاب وكتاباتهم في مراحلهم التعليمية، وقد أصبح الخطأ في اللغة

هماً يؤرق جفون المهتمين والمعلمين وأولياء الأمور، وأساتذة الجامعات، والغُير من أبناء الأمة، وضجت الشكوى من هذا الضعف، وتنادت الصحف، والندوات والمؤتمرات، والمجامع بأن هذا الضعف أصبح بدرجة يهدد اللغة العربية واقعاً ومستقبلاً، يخشى منه على الأمة، وشخصيتها، وعقيدتها، وكيانها، وصلتها بتراثها وجذورها.

وإذا كان البناء المعرفي لهذه اللغة من المرونة والاتساع بحيث يعطي مزيداً من التفسير والاحتمال لكل ظاهرة لغوية، حتى قيل "النحوي لا يغلب"، وكان الأساس النظري للغة قد احتمل فيما احتمل تعدد اللهجات، فليس الغرض من قضية الصواب والخطأ في اللغة أن نقع على الاختيار الثاني أو الثالث من العربية، أو أن نجد وجهاً فرعياً للمسألة، أو أن نلتمس تعليلاً لجواز هذا أو ذاك. فكل ذلك أمر ممكن، ولكن الغرض أن نحتكم إلى الأفصح والأقوى والأشيع والأصح الذي استقرت عليه النصوص، وجرت به الألسنة، وأثبته الاستعمال اللغوي الممتد، وجاء في النصوص الشرعية. فذلك مخالفته مخالفة، وموافقته هي الصواب الذي ينبغي ألا نحيد عنه، وسيضمن لنا هذا الاتجاه وحدة اللغة، ووحدة التعبير، ووحدة الأمة، ويجنبنا أن نخوض في فوضى لا حدود لها.

وإذا استخرجنا "نظرية" الخطأ، وأصبحنا قادرين على أن نقدم لجمهور الطلبة والكتبة تفسيراً يهيئ لهم (وعياً نظرياً مقنعاً)، على حالهم مع اللغة، فإننا نستطيع أن نأخذ بأيديهم إلى تدارك أخطائهم في اللغة عن بينة. ذلك أن كل تعلم محدود بزمان وغاية إلا تعلم اللغة، فإنه يبدأ قبل المدرسة، ولا ينتهي أبداً، ويستخدم في تحصيل كل العلوم، وأن مفاهيم المدرسة وعلومها كثيراً ما يصيبها النسيان، إلا اللغة فإنها تزداد بالزمن، والاستعمال تطوراً وغنى وثراء.

وأخطاء الطلاب النحوية تحتاج منا إلى فرط عناية وتركيز، بحيث توليها المناهج، ويمنحها المعلمون اهتماماً خاصاً من الممارسة والوعي، يتجاوز حفظ القاعدة، واستظهار الأمثلة، حتى يضفي تجديداً على طرائق تدريس النحو، وهي في أمس الحاجة إلى بعث هذه الروح فيها، وترجع الأخطاء اللغوية إلى ما يرثه الطلاب من الغلط في الصحف والكتب، ولغة الحديث، وشرح المعلمين، وكلن ذلك لا يعفينا من تقويمها على ألسنتهم وأقلامهم حتى لا نتيح لها الثبات والاستقرار، أما الإملاء فأشيع ما يقع فيه التلاميذ من الأخطاء الإملائية وهو على حد تعبير "روبير دوترانس"، الكلمات التي تخضع كتابتها للعرف، وليس لقواعد عامة، والقواعد اللازمة لتلافي هذه الأخطار التي يقع فيها الطلاب، النظر في توزيع المقرر وطريقته وأساليب التدريس، والتدريبات، وقدرات المعلمين، ومستوياتهم.

وعلى الرغم من التقدم الحضاري الذي يكتنف الحياة المعاصرة، والذي ظهر أثره في الرقي الذوقي، وتحسس الجمال، إلا أن الخط يتقهقر ويتخلف، مع أن الجانب الجمالي الفني هو الغالب عليه، ويأسف المرء على ما وصلت إليه خطوط طلابنا. وقد دلت بعض الدراسات على أن شكل الكتابة وجمال الخط عامل مؤثر في تقويم المدرس، وتقدير الدرجة في الأعمال التي تضم حقائق عادية، ومعارف عامة، وترجع رداءة الخط في الكتابة إلى اكتساب العادات غير الصالحة منذ التدريبات الأولى، ثم تستقر مع الممارسة وتقدم الزمن.

إن اللغة العربية غنية بصيغها المتعددة، وبجوانبها الصرفية، وأنواع الجموع، وقدرتها على تمثل المادة اللغوية، ونقلها إلى معان عديدة بالاشتقاق، أو تغير الحركة أو إشباعها والطالب في أكثر المناهج يدرس أنواع التصريفات والجموع والمشتقات والأبنية. ومع ذلك قدرته على استعمال هذه

الصيغ وتوظيفها والتفريق بينها تعد قليلة، وتكاد لغته تكون محصورة بين الصيغ المشهورة المتداولة، ولا تلقى المادة الدراسية ظلها على هذه اللغة فيقل فيها بعض المشتقات الأخرى.

ويرمي تعليم اللغة العربية إلى تزويد الطالب بالقدرة على معالجة الفكرة وخصبها وعمقها بنوع من الاستيعاب والوفاء بالعناصر والأجزاء والإحاطة والشمول، وتوليد المعاني الجزئية المتصلة بالفكرة الأساسية من خلال نمو داخلي مترابط تصب فيه الأفكار في قالب محكم متجانس، وترتيب منطقي يسلم بعضها إلى بعض، ويتأتى ذلك بذكر الأسباب وتقديم العلل، ورصد النتائج التي تترتب عليها مع ضرب الأمثلة والشواهد وعرض الموازنات، وتوظيف المعلومات المختلفة.

غير أن المتأمل في أسلوب الطلاب ومدى إحكامه، يجده في ظل هذه المعايير مفككاً وضعيفاً، تقل فيه الروابط، وتكثر فيه الانتقالات المفاجئة دون تمهيد مع تباين في المستوى والفكرة، وتباعد في الزمان كعطف مضارع على ماض أو بالعكس، وخلل في استعمال الضمائر كالانتقال من الحضور إلى الغيبة أو العكس، ومن المفرد إلى الجمع أو العكس، وليس في الفكرة عمق يعطي الأسلوب قوة دفع وامتداد، ولا عاطفة تؤدي إلى الربط والإحكام، وعلى الرغم من الانفجار المعرفي الذي يتسم به العصر، والنمو المستمر، والتقدم المطرد، حتى قدر العلماء أن المعرفة تتضاعف كل عشر سنوات تقريباً، وعلى الرغم من القفزة الهائلة في وسائل الاتصال والتقنية التي تمدنا بالمعرفة، فإن كثيراً من المتعلمين يظل جامداً منغلقاً مقتصراً على جانب معين، منعزلاً عن الثقافة الضرورية، وهذه العزلة ليست من طبيعة العصر، ولا من روح التربية.

إن لغة الطفل تمر في فترات نمو سريعة، وأخرى أقل نمّواً، ولكنها تظل تدريجية وأن الطفل في السنوات الأولى لا يستثار باللغة وحدها الاستثارة الكافية ما لم تصاحبها ظروف أخرى كالإشارات والحركات، وتتمثل ثورة الطفل اللغوية في الكلمات التي يعرف مدلولاتها عندما يسمعها أو يقرؤها أو يستخدمها، وهو ينظر إلى اللغة على أنها تأليف بين كلمات، وتعلمه اللغة يتطلب تعلم الكلمات أولاً، وكلام الأطفال المكتوب يختلف عن كلامهم الشفوي.

وقدر ركزت البحوث التي أجريت في الوطن العربي لقياس ثروة الطفل اللغوية على حساب تكرار الكلمات التي يستخدمها الأطفال في أحاديثهم الاعتيادية، أو حساب تكرار الكلمات التي تشيع في كتبهم المدرسية. وتعتبر سعة الثروة اللغوية للطفل إحدى المهارات الاتصالية في حالة تعبيره وفي استقباله المضمون الاتصالي، والاتصال بالأطفال يستلزم استخدام لغة يفهمون دلالتها ويتذوقونها، ومقدار ثروة الطفل اللغوية تتيح له التفاعل اجتماعياً، وهو يعبر بها عن أفكاره، ويستقبل أفكار الآخرين، غير أن الطفل الوليد حين يصدر أصواتاً لفظية دون أن يكون لها معنى فلا ينظر إليها على أنها تعبر عن فكر، ولغة الأطفال تعجز أحياناً عن التعبير عما يحملون من أفكار من مشاعر وعواطف.

إن اللغة مقياس حقيقي للحكم على شخصية الأطفال، ومعرفة قدرتهم على التفكير، والتعبير عن العواطف والمشاعر، والحكم على المواقف والمشاهد التي يتعرض لها، وكيفية التصرف حيالها، كذلك تعتبر الركيزة الأساسية للابتكار عند الأطفال، والرغبة في تحقيق نجاح في جميع أعماله

وتصرفاته، ومن هنا نستطيع الحكم على الأطفال، ووضع أيدينا على الموهوبين منهم، وذوي الابتكارات.

حيث تبدأ موهبة الخلق والابتكار عند الطفل في المراحل المبكرة من العمر، خاصة في سن الثانية، كما أكدت ذلك دراسة للإخصائية الأمريكية "باتريكا هندريون" بجامعة شيكاغو، وبينت أن الطفل في هذه المرحلة من العمر يكون لديه القدرة على التعبير عن احتياجاته ومطالبه، وأحاسيسه ومشاعره، ويستطيع أن يقوم برسم بعض الرسومات البسيطة أو اللعب ببعض الألعاب كالعرائس، إلى جانب اللعب الجماعية، ففي هذه المرحلة يكون خيال الطفل خصباً عندما يختلق بعض القصص والحكايات، ويتخيل أن اللعب الخاصة به شخصيات حقيقية، وهنا يجب مشاركة الطفل في تخيلاته، وعدم إظهار الدهشة إذا ما رسم وجه أي شخص بطريقة غريبة، بل يجب تشجيعه إلى أن يتعرف الطريق السليم من خلال تجاربه، ومن المعروف أن الأطفال في هذه المرحلة من العمر يكون لديهم مقدرة كبيرة على الخلق والابتكار، ولابد من تشجيعهم على تنمية هذه الموهبة، وقد أكدت الأبحاث والدراسات العلمية على أهمية موهبة الخلق والابتكار عند الأطفال، لأنها تسمح لهم بالتفكير السليم، وتساعدهم على التوصل إلى أنسب الحلول لمشكلاتهم، ومن المعروف أيضاً أن موهبة الخلق والابتكار تشغل كيان الطفل وتفكيره ومشاعره، وتساعده على النجاح في حياته الدراسية والاجتماعية فيما بعد، وهي إحدى المفاتيح المهمة في تكوين شخصيته، فينمو بطريقة طبيعية، ولا يصاب بالانطواء أو التوتر النفسي، فيجب ترك الحرية الكاملة للطفل لكي تكتشف موهبة الخلق والإبداع عنده دون الاعتماد على الآخرين.

ولقــد ركــزت العديد من الدراسات والأبحاث العلمية على الأطفال، وأهــم الوســائل التــي تؤدي إلى نجاح موهبة الخلق والابتكار عندهم، ومن أهمهــا تزويده بالأدوات التي تساعده على تنمية هذه الموهبة، ولا تقدم له إلا الأشــياء السهلة البسيطة. وتصل به إلى الأصعب عن طريق التدرج، وتترك لــه الحــرية الكاملة في تخليق الأشياء التي يريدها، فإن لديه شغفاً كبيراً في اكتشاف ما يقدم إليه، على أن نهيئ له الظروف المناسبة.

وتعــد الموسيقى من أهم الأشياء التي تنمي موهبة وقدرات الطفل في مراحل العمر المختلفة، من أجل ذلك كانت الكلمة التي تصل إلى الطفل مغناة أســرع وأجــدى مما لو قدمت له عن طريق الإلقاء، فالكلمة ذات الإيقاع لها أثرها لدى الطفل، وتجعله يقبل عليها برغبة وحب.

إن التغيــرات الســريعة في عالمنا المعاصر، تجعلنا نعيد النظر فيما يمكــن أن نعامل به الأطفال، وما يمكن أن يتعلمه وكيفيته خاصة في سنواته الأولى حيث يتم فيها أسرع نمو في الخصائص الجسمية والعقلية، وأنها أعظم الفتــرات للتأثــر بالبيئة، وما حوله، والرغبة في أن يتعلموا عن العالم الذي يعيشــون فــيه، ولكــي يعرف لابد من اللغة، ولابد من الوقوف عليها نطقاً وكتابة، وإتقانها إتقاناً يؤدي إلى اكتشاف المعاني والدلالات.

ومــن المــؤكد أن هناك علاقة أثبتتها الدراسات العالمية والمحلية بين الــرعاية الصحية والغذائية، وبين نمو الطفل وقدرته على التحصيل والتفوق والإبــداع، وأن البيــئة الغنــية بالظروف الطبيعية، تعمل على نمو الجهاز العصبي والمخ، وعلى ذلك فالأطفال محتاجون إلى ذلك، لأن الخلايا العصبية في مخ الطفل تنمو بدرجة متزايدة منذ لحظة ولادته، لتكون المراكز العصبية المــرتبطة بوظائــف المخ كالتفكير والانتباه والإدراك، والعاطفة والسلوك، ولذلك كلما عاش الطفل في بيئة غنية بكل الأبعاد المعنوية والمادية، كان ذلك

مؤثراً قوياً على مستوى ذكائه، كما أن زيادة عدد خلايا المخ في مرحلة الطفولة والشباب تحمى من أمراض الشيخوخة.

إن نمو ذكاء الطفل يتطلب معيشته في جو عائلي، يتوافر فيه العطاء المعنوي، والاندماج الاجتماعي، مع توفير وسائل التسلية والألعاب التي يفضلها، وتشجيعه على التعبير عن نفسه، وإحساسه بالثقة حيث يساعد ذلك على نمو خلايا المخ، ونضج مراكزه الحيوية، وزيادة عدد خلاياه، وهذا النمو والنضج يصاحبه زيادة في اكتساب القدرات العلمية، وارتفاع معدل الذكاء لديه.

إن الموهبة وراثية فطرية، ولنا أن نكتشفها بالملاحظة لبعض سماتها وخصائصها أو عن طريق بعض الاختبارات، وأن العقل البشري ساحة فسيحة غير محدودة من حيث مرونتها في الاستقبال والتفاعل مع مؤثرات خارجية معلومة وغير معلومة لنا، تتولد من خلالها طاقات وقدرات متعددة ومتنوعة. ومن ثم فإن ما يمكن أن يظهر في تلك الساحة من موهبة أو أكثر، إنما هو نتاج ومحصلة لتلك المؤثرات البيئية، ومن بين ذلك النتاج قدرات معينة تتصف بالحيوية والنشاط، وسمات لمحاولة تجاوز النمط العادي في تجلياته وأشكاله المألوفة، ولابد أن تعني مؤسسات المجتمع كلها وتسعى لاكتشاف الموهبة ورعايتها وتنميتها، لأنها ضرورة قومية.

وقد أثبتت جميع الأبحاث التربوية والنفسية، أنه كلما قللنا القلق والتوتر والشد العصبي- استطاع الطفل أن يستمتع بسنوات دراسته الأولى، كما أن التقويم المستمر للتلميذ طوال العام، أفضل من التقويم مرة واحدة، وقد تضافرت الجهود لخدمة طفل المرحلة الأولى، في سنوات عمره الأولى، بحيث وفرت له كل الإمكانات التي تساعده وتعينه على إثراء اللغة عنده، فمن خلال بحثٍ تجريبي ميداني قام به بعض الدارسين العرب بهدف التعرف

على اللغة الأساسية للأطفال من سن الثالثة حتى الثانية عشرة، واتخاذ ذلك أساساً في وضع معجم للطفل العربي، وجد أنه من الضروري تقسيم معجم الطفل إلى مراحل، من أجل تيسير تناول المادة اللغوية، على الرغم من التداخل الطبيعي في السنوات، والنمو، والوعي، والذاكرة، وغيرها من القدرات أو المهارات الطبيعية والمكتسبة، وهذا يؤكد ضرورة السير باللغة نحو مستوى أفضل، والسير بأبنائنا نحو طريق أصلح.

إن كل طفل في أي مكان، وفي أي مجتمع، قادر على اكتساب اللغة التي يتحدث بها مجتمعه بيسر وسهولة، وفي فترة زمنية قياسية، بل إنه ليس هناك طفل لا يكتسب لغة مجتمعه، حتى لو كان هذا الطفل متخلفاً عقلياً.

الباب الثاني

اللغة في مفترق الطرق

الفصل الأول

انحسار اللغة

لغتنا العربية تصادف في وقتنا الحاضر بعض المشكلات التي تعترض مسيرتها، وتحد من مكانتها، وهي مشكلات ترجع إلى عوامل مختلفة، منها ما هو مرتبط بالتعليم وبالطلاب، وأولياء الأمور، ومنها ما هو متعلق بخريجي الكليات والمعاهد العليا، ومدى معرفتهم باللغة في أسرارها وأيضاً القائمين على الإعلام ووسائله المتعددة، وكذلك ما تأثرنا به في إعلاناتنا، وغير ذلك. ورغم ذلك فنحن متفائلون بمستقبل اللغة العربية لأنها أولاً لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، فهي وإن كانت على هذا الحال في القرن الحادي والعشرين، فقد وصلت في القرن التاسع عشر، وما قبله إلى مستوى أقل مما هي عليه الآن في الأساليب والمصطلحات. من أجل ذلك فنحن نحاول أن نلقي الضوء على مدارسنا ومناهجنا [illegible]سية. وتعليم اللغة العربية، فما يقدم لأبنائنا لا يجد عندهم صدى، وينفرون منه، ويحفظونه على غير رغبة منهم، ويرجع ذلك إلى أسـ[illegible] منها: طريقة العرض لفروع المادة، أو لمن يقوم بتقديمها وعرضها، أو للوسائل المعينة لها، أو للمنهج الدراسي المقرر، أو للوسائط المختلفة التي يتعامل معها الطالب: في الأسرة أو المدرسة أو الشارع أو الأندية أو حيث يلتقي إنسان بإنسان، وهذا يدفعنا أن نقف عند منحنى في فروع اللغة يعتبره الدارس شاقاً عسيراً عليه، وكيف نزيل ما بينه وبين ما يجده من عوائق فيما يقدم إليه، حتى نصل به إلى إدراك ما يعرض عليه. وفهمه فهماً دقيقاً محبباً إليه، في غير ما عسر.

سيقول قائل إنها مادة النحو والصرف كما يشاع، وأقول لا- وإن كان فيها صعوبة على الطالب- بل هو الشعر أصعب الفنون اللغوية في تدريسها، أقول لا.. فقد أوهموه أنه صعب فاستصعبه، ذلك لأن الشعر دائماً في أية لغة

لا يكشف عنه دائماً الكلام المسطور، وإنما ليس من السهل الوصـــول إلـــى مضامينه إلا بالتعمق مع الموقف الذي قيل فيه الشعر، مع الخلفية الثقافية لمن يقول الشعر، مع إدراك الإشارة والإيحاءات، وما تحمله مـــن دلالات- وإن كان البعض يفسرون الشعر بمعزل عن هذه المؤثرات، وعلى اعتبار النــص كائن حي بذاته- وهذا يحتاج إلى جهد واضح، وبحث، واطلاع لا يقدر عليــه إلا المخلصون. إنما العسر يرجع إلى أننا فقدنا المتعــة الحســية فــي عــدم ممارسة اللغة، وتفضيل غيرها عليها، واعتبار المتمسك بها يمثل عاراً فـــي مجتمعه، فتركنا لغتنا، وبعدنا عنها، فأصابها ما أصاب من خور وضعـــف، وأصبحنا في وضع لا نحسد عليه، وحتى لا نفقد هويتنا وقوميتنا، نحــاول أن نجد حلولاً لهذه القضية، وأن نضع لها ما يرفع بناءها، ويعيد لها صورتـــها، ومكانتها التي سادت العالم العربي والإسلامي.

وهكذا بعد أن رأينا ماهية اللغة، وأهميتها، وضرورتـــها فـــي حياتنـــا الاجتماعية، وعلاقتها بالفكر والذكـــاء والحضـــارة، والثقافـــة والمجتمـــع، وأوضحنا في عجالة طبيعتها، وتركيبها، ووظيفتها، وكيف تكتسب في مراحل النمو المختلفة، وخاصة في المراحل الأولى من عمر الإنسان، حيث يكتشــف الموهوبون، والمبدعون، ونحرص عليهم، ولن يتم ذلك إلا عن طريق اللغــة، والنهوض بها نطقاً وكتابة، وقد مرت قرون انحســرت فيــها اللغــة تحــت الاحتلال الإنجليزي والفرنسي ثم عادت وازدهرت، ولبست ثوبها من جديــد، ولكنها تتعرض أيضاً لأخطار على الطريق، علينا أن ننتبه إليها ونعمل علــى الحفاظ على مكانتها، وحمايتها من هذه الأخطار حتـــى لا تصبــح المشــكلة مستعصية، ويضيع منا الطريق، والمشكلة لا تكمن في اللغة العربية نفســـها، ولا فيمن يقوم بتعليمها، ولا في طريقة تدريسها، ولا في الطـــالب ولا فـــي ظروف التعليم، ولا في المناهج، ولا في المحيط الاجتماعي الذي تجرى فيــه العملية التعليمية، ولا في أولياء الأمور، ولا فيمن يستخدمونها فـــي جميـــع

الميادين والمجالات، ولكنها نتيجة لوضع تترابط فيه هذه العوامل جميعـــها، وتتشابك تشابكاً شديداً لا يمكن فكه، ويستدعي ذلك سبر الأغوار، سواء فـــي اللغة نفسها، أو العقل البشري، أو النفس الإنســـانية، أو العمليـــات العقليـــة والنفسية المختلفة، أو أغوار المجتمع الإنساني الـــذي تجـــرى فيـــه عمليتـــا التعلم والتعليم.

لابد أن ننظر إلى اللغة نفسها، لا على أنها مادة علمية تعليمية فحســـب مثلها كمثل الكيمياء والرياضيات وغيرهما مـــن المـــواد المختلفـــة العلميـــة الأخرى التي يجدها المرء في أي خطة دراسية، كما لا يجوز النظر إليها كما لو كانت واحدة مما يكتسبه الطفل في سنوات عمره المختلفة، والحفاظ عليـــها وحمايتها والعمل على انتشارها والتمكين لها في أوساط المجتمعات العربيـــة، ولدى الجاليات العربية الإسلامية في بلاد المهجر، ليس عملاً تعليمياً تربويـــاً، أو نشاطاً ثقافياً أدبياً، أو وظيفة مـــن وظـــائف وزارات التربيـــة والتعليـــم، والمؤسسات والهيئات والمنظمات المختصة فحسب، ولكنه عمل من صميـــم الدفاع عن مقومات الشخصية العربية، والذود عن مكونات الكيـــان العربـــي الإسلامي، وعن خصوصيات المجتمعات العربية الإسلامية، وعن الركـــيزة الأولى للثقافة العربية وللحضارة العربية الإسلامية.

اللغة الأجنبية:

إن اللغة العربية ركن أساسي من أركان الأمن الثقافي والحضاري والفكري للأمة العربية والإسلامية، في حاضرها ومستقبلها، واللغة العربية هي القاعدة المتينة للسيادة الوطنية، والقومية الإسلامية، وهي ليست لساناً فحسب، ولكنها عنوان لهذه السيادة التي تحرص عليها كل دولة من دول المجموعة العربية الإسلامية، فهي إذا تعرضت لخطر من الأخطار فعلينا أن نواجهه على النحو الذي يعيد لها مكانتها وقيمتها، وما نراه ونحس به جدير بأنه يحرك السواكن، ويحفز إلى تدارك الأمر، قبل أن يبلغ درجة من الاستفحال يصعب معه العلاج، ولذلك، وباعتبار أن اللغة العربية قضية استراتيجية في المقام الأول، تمس الأمن الثقافي والحضاري للأمة، فإن المسألة في عمقها وجوهرها تتطلب يقظة أشمل وأعمق، وحركة أكبر وأنشط، وعملاً أكثر جدية وفعالية واستنفاراً للطاقات الحية، وحشداً للجهود المخلصة، في إطار منَ التنسيق والتكامل والتعاون، والعمل العربي المشترك على مستوى المنظمات والمؤسسات والجامعات والهيئات المختصة.

فاللغة العربية هي العروة الوثقى التي تجمع بين الشعوب العربية، والشعوب الإسلامية التي شاركت في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية، لغة القرآن الكريم، ولغة الثقافة العربية الإسلامية، ومن هنا تأتي الأهمية الكبرى لتدعيم مكانة اللغة العربية، والعمل على النهوض بها نطقاً وكتابة، ونشرها وتعليمها، لأنها قضية وجود، وقاعدة كيان، ودعامة النظام العربي الإسلامي، وعلينا أن ندرك المخاطر التي تحاصرها حتى نعمل على إزالتها أو التقليل منها، ولكي نستطيع النهوض باللغة نطقاً وكتابة لابد أن ندرك المخاطر الآتية:

ولعل من أبرز العوامل التي كان لها أثر قوي على النيل من لغتنا العربية، الصراع المرير الدائم مع اللغة الأجنبية، فقد أصبح استثمارها كسباً تجارياً لأصحاب المشاريع والمؤسسات التعليمية- إن جاز التعبير- وصارت ميداناً للتنافس، مما أدى إلى تباري أولياء الأمور في إلحاق أبنائهم على هذه الأبنية العلمية الخاصة، حتى أن بعضها فرضت على الطلبة غرامات مالية لمن يتحدث العربية، فكانت المأساة التي يعاني منها الناشئة، ومما يزيد الموقف سوءاً وخطراً، الأسلوب والطريقة التي تفقدهم لغتهم الأصلية أثناء الدروس الخصوصية- وسيأتي الكلام عنها- ومن هنا ينشأ الخوف على مستقبل هؤلاء الطلبة، ومن ثم لغة المجتمع الذي سيواجهونه، ويشكلون جزءاً مهماً فيه.

إن الدافع للاهتمام باللغة الأجنبية، والاتجاه لتعلمها في المدارس الخاصة من ورائه الكسب المالي- تجارة رابحة غير كاسدة- وإن كان التعليم فيها يشترط ويتطلب إدارة حكيمة، وأعضاء هيئة تدريس منتقاة، وأسلوب ونظام تربوي سليم من نظافة ودقة واهتمام، غير أن الباعث إليها من خلال تعلم اللغة الأجنبية، وإعطائها أهمية بالغة على حساب الاهتمام باللغة العربية، والتي يغلب فيها استخدام الإنجليزية في دراسة المواد العلمية، على أنها اللغة المعتمدة، وممارستهم لهذه اللغة على مستوى عريض نطقاً وكتابة، والمناقشة والحوار مع أساتذتهم، والمشرفين واستخدام الوسائل السمعية والبصرية في توصيل المادة إليهم، والدورات التي يقيمونها لتطوير وسائل التدريس، والتقويم والتطوير، وإغرائهم بالمؤثرات الخارجية الأخرى التي تدعوهم إلى الاحتفاء بها.

كل ذلك يبعث على النظر إلى اللغة العربية على أنها اللغة الأقل شأناً، والأقل جدارة بالاهتمام، فتزيد من جهلهم بها وبمكانتها ودورها في عملية

البناء الحضاري، وتقلل من احترامهم لها، ومن العناية بها، وتضعف من سعيهم أو من حماستهم لتطوير مهارتهم فيها.

أنا لا أنكر وجوب معرفة اللغات الأجنبية، وأوصي بتعلمها، فمن تعلم لغة قوم أمن شرهم، لكني لا أومن بإهمال لغتنا، أو العمل على ضعفها، فإن في ذلك هدماً لهويتنا، وتدميراً لديننا، فلغتنا العربية هي لغة القرآن الكريم، ومن أجادها فقد أجاد الدين، واستطاع أن يتعلم القرآن، وأن يعلمه، وفي ذلك خير عميم.

إن الرواسب أو المؤثرات التاريخية المهيئة لضعف اللغة العربية لدى أبنائنا، وفي مجتمعنا يرجع إلى أمور مجتمعة تخضع لها لغتنا في الوقت الحاضر، وتعليم اللغات الأجنبية أولى هذه الأمور، والتنافس فيها على المستويات الخاصة، والإقبال عليها والانبهار بها، قلل بلا شك من فرص الاتجاه لتعلم اللغة الأم، وقلل من ممارستها، ومن تداول ممارستها، فقل رصيد هذه المفردات.

إن اللغة الأجنبية مغنم لا يستهان بقيمته، غير أن فرط الاهتمام بها لا يجب أن يكون على حساب لغتنا الأم، ففي مجالات التعليم العلمي، أصبح الاهتمام باللغة الأجنبية واضحاً، فاستخدمت المصطلحات والتعبيرات الأجنبية، وتسربت إلى لغتنا، وسرت على ألسنتنا، فقلل فرص استعمال العربية واستخدامها، وإنعاش مخزونها اللفظي عن طريق الكتابة والقراءة.

لقد تسربت ألفاظ اللغة الأجنبية ومصطلحاتها إلى لغة الجمهور العربي، لضعف ثقة كثير من أبناء المجتمع العربي بأنفسهم، وبلغتهم، وبقدرات هذه اللغة على الوفاء بمتطلبات الحياة، ومستلزمات الحضارة الحديثة، فضاع الاعتزاز بها وإحساسهم بضرورة التمكن منها.

بل لقد وصلت المهانة باللغة العربية إلى أن أحد محرري صفحة ثقافية في إحدى صحفنا اليومية، قدم عرضاً من كتاب فقال ضمن ما قاله: "يضم

أيضاً تراكماً معرفياً وتطوراً ومتابعة لكل ما هو Up To Date .. هذا فضلاً عما يحدث في كتابة أساتذة الاقتصاد والقانون، فيما ينشرونه في مختلف صحفنا، عندما يشعرون بأن المصطلح الذي يستخدمونه باللغة العربية قد لا يعبر عما يدور في أذهانهم، فيكتبون أمامه مقابله باللغة الإنجليزية، برغم أنه قد يكون في كثير من الأحيان مصطلحاً شديد الوضوح إلا في أذهانهم التي تعودت على لغة أخرى غير العربية التي يضطرون إلى الكتابة بها في بعض الأحيان، وبجانب هذا هناك تخطيط لإزاحة اللغة العربية، وإحلال لغة أخرى مكانها، وذلك في بعض مناطق فلسطين التي سيطر عليها اليهود، فأصبحت العربية لغة ثانية، لأبناء العربية من الفلسطينيين، مما ترتب عليه نشأة جيل من أبناء العرب في هذه المناطق، من أصحاب الازدواج اللغوي، يستخدمون فيه العبرية بجوار لغتهم العربية، ولابد أن نأخذ في الحسبان هذا الصراع بين العربية واللغات الأخرى، على مستوى الوطن العربي، إذ أن مستقبل الحضارة والثقافة والعربية والإسلامية، سيظل أبد الدهر مرتبطاً باللغة العربية وجوداً وعدماً.

وهناك ظاهرة أخرى تسيء إلى اللغة العربية، فنظرة إلى اللافتات المنتشرة في الشارع العربي، أو القراءة العابرة للأسماء والمسميات لتدعو إلى الألم والحسرة، وتثير في النفس الأسى والحزن، حين تصاغ هذه الإعلانات بلغة أجنبية، وحروف عربية أو العكس، فهل فرغت قواميس اللغة، ونضبت مسميات التجارة العربية من أسماء للمنشآت والمرافق والمحال والمؤسسات الاقتصادية؟ فإذا أضفنا إلى ذلك ما يسمعه الناس ويرددونه من غثاء القول، تبين لنا الحال الذي آلت إليه لغتنا العربية.

نحن الآن نتجه نحو تدريس العلوم باللغات الأجنبية في الجامعات، لقد أصبحنا نتخلى بمحض إرادتنا عن استخدام لغتنا القومية في التدريس والتعليم

لتحل محلها اللغتان الإنجليزية والفرنسية، وأصبحت اللغة العربية في وضع حرج للغاية.

إن اللغة العربية ليست بأقل شأناً من لغات الأمم التي سبقتنا في مضمار التقدم، فليست أقل شأناً من اللغة الروسية، أو من اللغة اليابانية، أو حتى من اللغة العبرية، فقد أصبحت هذه اللغات وغيرها لغات علمية، يكتب الباحثون والعلماء بها، وتترجم أبحاثهم واكتشافاتهم إلى كل اللغات الأخرى، فما بال أبناء اللغة العربية يقبلون طواعية أن يقضى على لغتهم، وما بالهم لا يدركون أنهم حينما يوافقون يوماً بعد يوم على إنشاء جامعات أجنبية، وتخصصات بلغات أجنبية، إنما يوافقون بإرادتهم على انتحار لغتهم، ما بالهم اليوم قد استسهلوا أن يقرأوا العلوم باللغات الأوربية، وأن يعلموها لتلاميذهم بنفس هذه اللغات، دون أن ينقلوها إلى لغتهم العربية- لغة القرآن- ورمز الهوية، والسبيل الوحيد لغرس الانتماء، ولإدراك التقدم، وعلينا أن ندعو إلى تعريب العلوم، وتحريم تدريس العلوم في الجامعات بلغات أجنبية، حتى نكون على بداية الطريق الحقيقي للتقدم، وأنا أومن بأنه كلما اشتدت الظلمات، وتقاذف العديد من الكلمات الأجنبية يلو كونها دون وعي، ودون فهم لمضمونها، تساقطت حبات حروفنا العربية، ولا ريب في أن طلاب الكليات العلمية يشعرون بغير قليل من الهوان للغتهم العربية، إذ يدرسون علومهم بلغات أجنبية مختلفة، ولا يجدون للغتهم العربية مكاناً بينها، مما يجعلهم يشعرون بأنها لغة مختلفة، ولا توجد أمة متقدمة في العالم تعلم العلوم في جامعاتها بغلة أجنبية سوى مصر، وبعض البلاد العربية، ومعروف أن سوريا هي البلد العربي الوحيد، الذي يعلم العلوم الغربية في جامعاته بالعربية منذ سنة ١٩٢٠م. ولم يحدث فيه أي خلل أو ضعف، ويشترك علماؤها في المؤتمرات العالمية.

ورغـــم ذلك فإن هناك من يدعو إلى الإبقاء على الإنجليزية لغة لتعليم العلوم الغربية في جامعاتنا العربية، وتعميمها في كل سنوات الكليات العلمية، ويقولون إن اللغة العلمية السائدة في العالم اليوم، لتعليم العلوم هي الإنجليزية، ويســندون كلامهــم بــأن أســاتذة العلوم في اللغات الكبرى، مثل الفرنسية والألمانــية واليابانية، يعلمون الشباب في جامعاتهم بلغاتهم الوطنية، غير أن كثيــرين منهم يتقنون الإنجليزية، ويكتبون بها مقالات علمية قيمة، ويقولون أيضــاً إن العلم عالمي، ولماذا لا نعلم شبابنا بالإنجليزية اللغة العلمية السائدة فــي المحــيط العلمي؟ ويقولون إننا إذا علمناهم العلوم باللغة العربية، يخشى عليهم من الانغلاق، وألا يستطيعوا ملاحقة التيار العلمي العالمي، ونسوا أننا حين نقول بتعريب التعليم الجامعي في البلاد العربية، سنحرص أشد الحرص على إتقان الشباب للغة الإنجليزية، أو إحدى اللغات الحية الأجنبية، وستوضع للشباب البرامج والمناهج الكفيلة بتحقيق ذلك.. بحيث يكون أساتذة جامعاتنا، مثل أساتذة الجامعات الأجنبية، فيعلمون الشباب في الجامعات باللغة العربية، ويكــون مــنهم من يتقنون الإنجليزية، أو لغة حية غربية أخرى، يكتبون بها مقالات علمية، تنشر في المجلات العالمية.

ويمكــن القول بأن تاريخ اللغة العربية لا يمكن استيعابه بدون اللغات الشــرقية القديمة، فاللغة العربية وحضارتها، استوعبت كل حضارات الشرق القــديم، ومازالت بها إلى يومنا هذا رواسب مماثلة في اللغة التي نتحدثها في أيامنا هذه، ومن ثم فإن درس العربية لا يمكن أن يكتمل أو يتميز دون البحث اللغــوي المقارن بين العربية وهذه اللغات الشرقية، إننا نحتاج لدرس اللغات الأخــرى ذات الصـــلة بلغتنا القومية، فمن الثابت أن تعلم لغة أجنبية، يساعد على فهم اللغة القومية، بشرط أن تكون موظفة لذلك، ولا تستأثر بالجهد كله، حتى لا تقلل من شأن اللغة الأم.

الدروس الخصوصية:

وليس من شك في أن ظاهرة الدروس الخصوصية قد انتشرت انتشار الوباء بين أسرنا، وعلى أبنائنا الطلاب، حتى أصبح التفاخر بها كتفاخر الجاهليين بأنسابهم وأحسابهم وحتى أصبح الطلاب يتبارون في الإسراع إلى حجز أماكنهم عند الأسماء التي لمعت في سماء هذه الظاهرة، والتي أصبحت لها خصوصيتها في هذا الميدان أو المجال أو الساحة التي افتعلها المدرسون لأنفسهم بتخصصاتهم الوهمية، التي أصبحت تنافس تخصصات الأطباء والمهندسين والذي لا نعرفه أن هذه الظاهرة من وسائل هدم اللغة العربية، حيث يستخدم المدرسون اللغة المبتذلة في سيناريو دعوتهم، وهي زيف وتزوير يعتمد على التخيل والإيهام، في فعلهم كفعل السحرة والحواة، مستغلين أرخص وأدنى الوسائل لاستقطاب ضحاياهم، كأن يقومون بافتعال إغراءات تعتمد على اختلاط البنات بالبنين أثناء الدرس، أو بتقديم وسائل مغرية أخرى أثناء حضورهم للمكان الذي يتلقون فيه علاجهم، حتى أصبحوا مدمنين لهذا العقار الذي يتعاطونه، ولا يقدرون على تركه، أو تجنبه غير عابئين بما يصيب المجتمع من فساد وإضرار من جراء ذلك الفعل المهين.

ولو تنبه أولو الأمر لخطورة هذا الإدمان، وفكروا قليلاً لوجدوا الأبدال لأبنائهم، لوجدوها في البرامج التعليمية، وفي المجموعات الدراسية- تحت الرقابة والإشراف- وبما يضمن سلامة اللغة العربية، وحفظها من الضياع، وقد دلت الدراسات وأثبتت البحوث التي أجريت حول الاستفادة من هذه البرامج، أنها قد وصلت إلى معدلات مرتفعة.

وإني أرى أن العمل الذي يقوم به المدرسون، وهو ما يسمى- بالدرس الخصوصي- عمل إجرامي، مثله كمثل الجرائم التي تقترف في المجتمع،

والقضاء عليها يستلزم تضافر جميع الجهود والجهات في المجتمع ككل، وليس جهة بعينها على حدة، فلو استطعنا أن نفعل ذلك، ونقوي عليه لأمكننا التخلص من هذا الداء الذي استشرى بنا، ولسقط المجرم صريعاً دون محاكمة، ودون إبداء الأسباب، ولوجد نفسه طريد المجتمع، وأصبح التخلص منه سريعاً ميسوراً، لكننا نتخاذل ونتقاعس أمام هذه القوى التي لا تعرف منابعها ومصادرها، ولا تعرف أيضاً مراميها ومآربها، غير ما يعترينا من مصائب من جراء استمرارنا على هذا الحال، وكأننا أمام عمل إرهابي نشترك فيه جميعاً، وكلنا مدانون وعلينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن يعصف بنا الزمن، ونصبح عاجزين على اتخاذ أي إجراء أو قرار، ونصبح مجتمعاً خائراً لا قيمة لنا بين سائر المجتمعات.

إن الدروس الخصوصية يعتمد فيها المدرسون على النقل، وفي هذا إلغاء للعقول، وتعطيل للملكات، وضياع للغة العربية، فهي تشل القدرة على الاختيار والإبداع والابتكار والخلق والاستكشاف، وتمنع تحقيق الرغبات والآمال، وتطمس الميول والاستعدادات، وتحجب المهارات والقدرات، وتجعل الأبناء أمام قيد لا يمكن الفكاك منه، أو التخلص من آثاره، وفي مقدمتها انحسار لغتنا العربية، فأسلوب التلقين، وحشو العقل بأكبر قدر ممكن من المعلومات لم يعد مجدياً في هذا العصر، المليء بالتطور التكنولوجي الهائل، والتقنيات الحديثة.

وعليه فالحاجة ماسة إلى عقول نشطة، ولسان عربي فصيح، وعقول مدربة واعية، تتأمل وتفكر، وتكون قادرة على التحاور والتفاوض وتبادل الخبرات، ويستلزم ذلك أيضاً تطوير المناهج التعليمية، والاحتماء بثقافتنا الإسلامية العربية، وفهم القرآن الكريم والسنة الصحيحة، والتعرف إلى عظماء العلماء والمبدعين، لأن ذلك كله يضيع من جراء الدروس

الخصوصية التي ينفق عليها في المجتمع حوالي ١٢ مليار جنيه سنوياً، وهو ما يجعلنا نشير إلى هذه الظاهرة، والغول الذي يدمر المجتمع من خلال التعليم، الذي هو أساس أي نهضة، أو تقدم. والذي يخلق لنا أنصاف متعلمين، وغير قادرين على اللغة نطقاً وكتابة، بل جهلاء داخل نظام تعليمي عاجز عن محاربة آفة قاتلة ومدمرة..، وستظل وصمة في جبين التعليم المصري، وثمة مصدر آخر يعمل في هدم اللغة العربية، وضعفها نطقاً وكتابة، وإحلال اللغة الهابطة مكانها من خلال وسائل الإعلام.

لقد أصيب العلم، واعتور التعليم بالقصور، فقد دخلت الجرثومة في جسم التعليم بل الميكروب الخفي الذي ينخر عظامه، ليهدم كيانه، ويشوه صورته، ويجعله مسخاً.. الآباء والأمهات والمجتمع في جانب، ووزارة التعليم وقياداتها في المقابل، وكل منهم يتهم الآخر، ويوجه إليه اللوم، هي نبت شيطاني لا يترعرع إلا في مزرعة العفن، وبحيرة الأوحال، والتسيب والإهمال، إنه مضيعة للعلم، ومفسدة للأخلاق وليدة الإهمال والتسيب والتراخي، وغيبة المتابعة والرقابة، ولها أضواء كالبرق، ورنين كرنين العملة المغشوشة، إلى جانب ما تحدثه من هدم في بنيان اللغة العربية.

والحقيقة أن البيت بلا أركان يستند عليها الأبناء، فلا يشبعون رغباتهم وميولهم ومن ثم ينطلقون بحريتهم فيما يشتهون، وفيما ينمون مواهبهم واستعداداتهم.. لقد رأى الفرد نفسه في عالم محير، فألقى بنفسه في أحضان هذا المدرس، الذي يتلقفه، فيكون منه الفرق والجماعة ليكون الربح السريع، في الوقت القصير.. هي تجارة بلا جدال الكل يتنافس فيها لتدمير لغتنا العربية، بقصد أو بغير قصد، وتسعد الأسرة لأنها استراحت من عناء المراقبة والمتابعة والمساعدة، فهي تملك المال وتنافس به غيرها، وتغدقه بلا

حساب إلى هؤلاء التجار، المشكلة إذن مـن البيـت، وتـزداد وتنمـو مـع المؤثرات الأخرى، فلو حاولنا أن نقف ضد هذا التيار، وأن نجتاز الموجـة الكريهة التي أودت بلغتنا، لاستطعنا أن نستعيد كرامتنا ومجدنـا، ولحافظنـا على هويتنا.

وسائل الإعلام:

إن تركيز النظر على قضية الفصحى والعامية، والنهوض باللغة نطقاً وكتابة في وسائل الإعلام، وما لها من نفوذ وسلطة في عصر ثورة الاتصال، ومن تأثير على الإنسان في عصرنا، والحق أن مكانة الإعلام هذه تحمل في طياتها فرصاً لأن يكون التأثير إيجابياً لصالح الإنسان ورقيه، وفصاحة لسانه، إذا أحسسنا توظيف الوسائل الإعلامية في تقديم ما هو مفيد، والحرص على سلامة اللغة نطقاً وكتابة من خلال المذياع والتلفاز والصحافة والمسرح.

فبدون تكوين الشاب بالعربية الفصحى، فإن الذين يتخرجون سيكونون أميين، ولا يستطيعون القراءة والكتابة، وقد أولت شعبة الإعلام بالمجلس القومي للثقافة، قضية اللغة العربية، وكيفية المحافظة عليها والارتقاء بها في وسائل الإعلام- مقروءة ومسموعة ومرئية- باعتبار هذه الوسائل هي الجهات الوحيدة المنوط بها إنقاذ لغتنا العربية من حالة التردي التي تقع فيها الآن، وضرورة أن تتصدى هذه الجهات للأخطاء التي ترتكب في حق اللغة العربية.

فقد تفشت الأخطاء العربية في السنوات الأخيرة بصورة واضحة في البرامج التعليمية والأنشطة الثقافية، والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية، والمقالات الصحفية أيضاً، الأمر الذي يجب إعادة النظر فيه من خلال خطة علمية جادة، تستهدف رفع مستوى سلامة اللسان العربي.

ويأتي عدم الاهتمام من قبل أجهزة الإعلام، بقضايا الفكر الديني، في مقدمة العوامل الجوهرية التي تسهم في هبوط المستوى اللغوي للجماهير، ذلك أنه كلما اهتمت المؤسسات الإعلامية والثقافية والتعليمية، بعلوم القرآن

والحديث والشريعة وغيرها من العلوم الإسلامية والثقافية والتعليمية، ازداد الاهتمام باللغة العربية، التي بدونها يصعب فهم هذه العلوم، لأن اللغة العربية، والعلوم الإسلامية وجهان لعملة واحدة، فالقرآن الكريم هو الذي حافظ على هذه اللغة من الضياع والتحريف، حيث أن البرامج والفقرات والمقالات الدينية يمكن أن تلعب دوراً حيوياً للارتقاء باللغة العربية، التي تقوم بها المادة الإعلامية والإسلامية في مختلف وسائل الاتصال بالجماهير.

إن العامية أصبحت منتشرة ومتفشية بصورة واضحة ومتزايدة في مجال الأعمال الدرامية التي يكتبها كثير من المؤلفين، وكتاب السيناريو، وباللهجات العامية المحلية، والتي يندر فيها التعبير بالفصحى، لدرجة جعلت معظم مسلسلاتنا ذات طابع عامي على مدار العام، وبطريقة تجعلنا نشعر بأن المضي في هذه الطريقة، سوف يصيب لغتنا العربية الفصحى في مقتل، فنسبة ما يبث باللغة العامية في وسائل الإعلام، وبلهجة رجل الشارع المصري، أصبحت تفوق بكثير ما تبثه هذه الوسائل باللغة العربية، وبما يهدد اللغة العربية بالفعل.

صحيح إنه لا يمكن أن نصل في يوم من الأيام إلى مجتمع يتكلم بالفصحى، ويتعامل بالفصحى. فأن يتكلم الناس ليل نهار، في البيت والسوق والمكتب ومكان العمل بالفصحى، أمر لم يحدث في تاريخ هذه اللغة في أي وقت من الأوقات، ولا تكون الدعوة إلى استبدال العامية بالفصحى، ولا إلى الاهتمام بالعاميات على حساب الفصحى، فهناك عاميات فصيحة، ارتفعت كثيراً عن عامية الشارع والسوق، واقتربت كثيراً من الصحيح اللغوي، واصطفت لها نهجاً متميزاً في تطور المعنى والدلالة، والظل الذي يوحي ويشير، واصطبغت بلاغتها بروح العصر، ووجدان الشعب، وحرارة الواقع.

إنـــنا ندعـــو إلى النهوض باللغة العربية، وبمن يتحدثون بها ويكتبون، وأن نـــنهض بهـــا حـــين نستخدمها، فالأمر الموجع أن ترى أرّبَابها، بعيدين عنها، لا يحسنون نطقها أو كتابتها، ومن ثم لا يجد المتلقي ما يقوم به نفسه، فالاســـتخدام غير الصحيح للغة يؤدي إلى كسر عدد من قواعد وأصول اللغة العـــربية عند الجماهير العريضة التي تتابع الكلمات التي تسمعها أو تقرؤها، وتنتقل عل ألسنة المواطنين، ويرددها الشباب في كل مكان، كما يمتد تأثيرها السلبي إلى البيوت، فيتعلمها الأطفال وينطقون بها.

وتجمع الدراسات على أن حال اللغة العربية بدأ في الاعتدال مع بداية الإذاعـــة المصــــرية في ٣١ مايو ١٩٣٤، ودخول الإعلام المصري عصراً جديداً، أدرك معه المستمعون منذ اللحظة الأولى، أن الإذاعة جاءت لتصحح ما ازدحم به الأثير من فوضى قبل هذا التاريخ، وأخذت على عاتقها مسئولية الاهتمام باللغة العربية التي التزم بها المذيعون، في عرض وتقديم كل فقرات بـــرامجهم اليومـــية، على الرغم من بعض فقراتها التي كانت تتخللها اللهجة العامـــية، بحكم طبيعتها، وعلى الرغم من انتشار الأمية في ذلك الوقت، أكثر ممـــا عليه الآن، فقد لقي التمسك باللغة العربية في برامج الإذاعة، استحساناً كبيـــراً لدى جميع المواطنين باختلاف فئاتهم، وتوجهاتهم، ويرجع السبب في ذلـــك إلـــى أن الإذاعة استطاعت من اليوم الأول أن تفرض احترامها على المســـتمعين، مـــن خـــلال احتـــرامها للغـــة العربية، واتخاذها أداة أساسية لمخاطبـــتهم، ولأن القائمـــين علـــيها مـــنذ نشأتها، وحتى الآن وبكل تعاقب رؤســـائها، يدركـــون أن اللغـــة العربية، تملك من المقومات والخصائص ما يجذب المستمعين إليها، حتى الذين لم ينالوا أي قسط من التعليم، والدليل على ذلـــك الإنصـــات بشـــغف إلى القرآن الكريم وفهمهم لآياته الكريمة بكل ما تتضـــمنه مـــن صور الإعجاز البلاغي، مما يؤكد قدرة المستمع العادي على اســـتيعاب اللغـــة الفصـــحى، كما كانوا يستمعون إلى قصائد أم كلثوم، وعبد

الوهاب، التي كتبها كبار الشعراء، ويبحثون في معاني بعض الأبيات الصعبة في بعض القصائد.

فهذه اللغة الحية التي ملأت العالم شرقا وغربا، علما وأدبا، لا يمكن أن نستبدلها بالعامية التي نستخدمها في حياتنا اليومية ، بالسوق والمصنع والمنزل، ومن يدعون باستبدالها لا يعرفون تاريخها: لغتنا ولغة العرب القومية، وطاقاتها اللغوية وحملها لتراث الأمة الثقافي، الديني، التاريخي والأدبي والعلمي طوال هذه القرون، وهم لا يعرفون شيئا أيضا عن العامية- وهي في أكثرها- فصحى محرفة، ونحن إذا بعدنا عن لغتنا العربية، فلا تقدم في أي مجال من مجالات الفكر والإبداع، والحضارة. وإذا كنا قد وضعنا أيدينا على مصادر تدني اللغة العربية، أو إهمالها بحيث استبدلناها بغيرها في التعامل والاستخدام، مما أضعف منها، فإننا نضع بعض التصورات للقضاء على ما يفسد اللغة أو يقلل منها، بحيث نعمل جاهدين على إصلاحها والنهوض بها، والمحافظة عليها، واستخدامها الاستخدام الصحيح نطقا وكتابة.

الفصل الثاني

وسائل العلاج

إننا نأمل في إصلاح حال اللغة العربية.. على الألسنة والأقلام، وفي المدرسة والجامعة، وفي الصحيفة والمجلة والإذاعة والتليفزيون، وغيرها من وسائل النشر والتعبير، يقول العلامة والمستشرق الفرنسي الكبير "لويس ماسينيون" إن النهضة اللغوية هي في الحقيقة نوع من النهضة الاجتماعية الشاملة التي تتطلع إليها الشعوب الحديثة في "الشرق".

فالإصلاح لا يمكن أن يقوم على الأماني وحدها، فطريقها شاق ومتشعب، وله وسائله الحديثة والمتعددة، غير أن هذه الوسائل على تعددها وتشعبها تبدأ جميعاً من نقطة واحدة، هي دراسة الواقع، ورؤية أبعاده على حقيقتها.

ولكي نسير على طريق النهوض باللغة، لابد أن نسأل: ما اللغة التي نريد أن نعلمها لأبنائنا في المدرسة؟ هل هي لغة التراث؟ أم اللغة العصرية التي نكتب بها اليوم، ويؤلف بها المؤلفون في كل تخصصاتهم، ومجالاتهم، ويبدع بها المبدعون، اللغة التي اصطنعتها الصحافة لنفسها من البداية، ثم أصبحت لغة للإعلام الإذاعي والتليفزيوني، ثم ما الهدف الذي نريد أن نحققه من تعلم هذه اللغة؟ هل هو الكلام بها؟ أم إتقان الكتابة بها؟ هل هو التفكير بها؟ أم استمرار التفكير بالعامية ثم الترجمة إلى الفصحى عندما نريد أن نكتب أو نتكلم؟ هل هو تنمية القدرة على تذوق الإبداع العربي في شتى تجلياته، هل هو القدرة على الإسهام بها في علوم العصر، ومنجزاته ومجالاته الشديدة الاتساع والتنوع؟ هل نتعلمها لنجعل منها لغة للحاسب الآلي، ولغة صالحة للترجمة منها وإليها، لغة قادرة على استيعاب الجديد من ألفاظ الحضارة- ألفاظ الحياة العامة- ومصطلحات العلم؟ وهل هذا الهدف

واضح لدى المخططين للبرامج والمناهج التعليمية لدينا؟ وهل نحن حريصون على وضع معجمات متخصصة في شتى الفنون والعلوم، ولشتى المراحل التعليمية المختلفة، ومتى يصبح للغتنا العربية معجم عصري، يتضمن كل ما تم إنجازه في إطار لغتنا العربية عبر العصور؟ ثم متى نتوقف عن النظر إلى العامية، وفكرة استبدالها بالفصحى؟ ولنبدأ بالأسرة، فهي نواة المجتمع، ومن خلالها يمكن تشجيع الأبناء على القراءة، وغرس عاداتها من الصغر عندهم، ووجود نواة متواضعة لقراءات تثير اهتمام الطفل، وتغذي مداركه، وهذا هو الأساس، ثم يجيء بعد ذلك جهود وزارة التربية والتعليم- في المدرسة والجامعة- وجهود المجامع اللغوية، ومراكز اللغة العربية في الكليات المتخصصة وجهود العاملين في الإذاعة والتليفزيون، ورجال الصحافة، ذلك أن القراءة، والقراءة الواسعة المتنوعة، هي المدخل الأساسي لعلاقة صميمة مع اللغة- وسيأتي الكلام عن هذا المصدر ـ تبدأ بالمحبة والميل ـ الحميم، الذي ينضج ويتأكد ليصبح إتقاناً وسيطرة، وقدرة على المغامرة والإبداع، وإثارة الدهشة والتجديد والتطور.

فإذا أردنا أن ننقذ اللغة العربية من الضياع، فإنه يجب أن تستمر أجهزة الإعلام على دقة اختيار العاملين بها، لأنهم مطالبون بتعليم الجماهير العريضة في كل مكان، ومن ثم فإنه يجب أن يكونوا على مستوى علمي رفيع، وعلى درجة عالية من الذكاء والثقافة، ولديهم القدرة العلمية واللغوية لمتابعة أحدث الاتجاهات في تطور الحياة الإنسانية، وعلى أجهزة الإعلام أن تهتم بتدريب العاملين بها ـ وأظن أنها تسير في ذلك- على فن الإلقاء، للعمل على ضبط مخارج الحروف والكلمات، كما أن عليها أن تلتزم بقواعد وحدود اللغة في تأليف الكلام، ونظمه حتى تأتي النصوص الإعلامية معدة على الوجه المعقول، ومنظومة بصورة تخلو من التناقض، وهذا يفرض على الكتاب والمعدين التمكن من قواعد اللغة، والسيطرة على معانيها، والقدرة

على نظم الكلام، ومراعاة الغرض المقصود منها، وأن تبتعد قنوات الاتصال المختلفة عن استخدام الألفاظ المتدنية، والإسفاف في اختيار الكلمات الهابطة لعرض المعاني، حتى يستطيع الارتقاء بمستوى الجماهير، ورفع مستوياتهم اللغوية، وملكاتهم الفكرية، كما أنه من الأهمية بمكان، استعمال هذه اللغة في مختلف المجالات العلمية الحديثة ذلك أننا إذا لم نستعمل لغتنا في هذه المجالات، فإننا نحكم على أنفسنا بالعزلة والتخلف، فاللغة والفكر وجهان لشيء واحد، واللغة العربية يجب أن تعبر عن الفكر الحديث وهي قادرة على ذلك، بدلاً من تركها تعاني من الإهمال، وعدم الاستخدام.

إن العلاج يكمن في الأخذ باللغة الفصيحة، والعمل على إزاحة المشكلات التي تقف في طريقها، والخط العلمي الموضوعي الذي يجب أن نسلكه في إصلاح مسارنا اللغوي، على النحو الذي ييسر للمتعاملين بها توظيفها في كل مجالات الحياة.

ولنقف عند وسائل الإعلام حيث نجد أن لها دوراً كبيراً في المشاركة بالنهوض باللغة العربية، فهي إذا لم تلجأ إلى العامية في تقديم برامجها، وإذا استخدمت الفصحى الاستخدام التام، فإن ألسنة الناشئة تتأثر بالألفاظ والتراكيب التي يسمعونها ويرددونها، ويتوقع أن يزداد محصولهم، وذلك لشدة ارتباطهم بهذه الوسائل، وانجذابهم إليها لوقت كبير.

إن الصلة بين الإعلام وبين التربية والتعليم صلة وثيقة، فالتربية والتعليم يهيئان الذي يقوم بالإعلام والذي يتلقاه، فهما فاعلان مؤثران في الإعلام، والإعلام هنا تابع لهما،. لكنه بدوره يصبح مؤثراً عليهما لقوة تأثيره على المتلقي، وهذا يعني تبادل التأثير بين التعليم والإعلام، وهذه الصلة تدعونا إلى النظر في الفصحى والعامية في وسائل الإعلام، وفي التعليم، ومحاولة إيجاد مخرج من العامية للفصحى، أو إلى العربية الميسرة.

إن من شأن إصلاح اللسان العربي، عبر المؤسسات التعليمية الرائـدة، ووسائل إعلامها النافذة الواسعة الانتشار، منوط بدور مصر فيّ مجال تجديـد رسالة اللغة العربية، ودعم كيانها في المجتمعات العربية الإسلامية، ودورهـا في أن يسهم الإسهام القوي المؤثر في تحسين وضع اللغة العربية، في البـلاد العربية والإسلامية كلها.

الجمعيات الأهلية:

وتعتبر جمعية لسان العرب التي تأسست عام ١٩٩٢ من الجمعيات التي دافعت من خلالها عن أقدس لغات الأرض، وناقشت أحوال اللغة العربية، في التعليم العالي، والإعلام وإدارة الأعمال، عبر اهتمام موسع بقضايا اللغة العربية، في محاولة جادة لتشخيص واقعها في إطار الهوية التاريخية والاجتماعية والثقافية والحضارية، ومما لا شك فيه فإن الأمن القومي يبدأ باللغة التي تحفظ الهوية، وتدافع عنها، وتعبر عن الآمال والطموحات المستقبلية وتؤكد وحدة الهدف، وهذا هو عنصر القوة في اللغة العربية، فالتفريط في اللغة العربية تفريط في الدين، وهناك سعي لإنشاء مراكز للترجمة والتعريب، ونقل العلوم والثقافات المختلفة وتحقيق ونشر التراث العلمي العربي، وهذه الجمعية تنضم إلى جمعية حماة اللغة العربية، التي حددت أهدافها في حماية اللغة العربية، من التردي المتمثل في الأخطاء اللغوية وشيوع العامية، وكتابة اللافتات بكلمات أجنبية، وتنمية الإحساس بأهمية اللغة العربية، وإظهار جمالياتها.

إن العمل الأهلي من أجل رعاية اللغة العربية في الحياة العملية والعلمية، والتعريب قد أضحى مؤسسة قوية تستند إلى رأي عام قوي، عن احتياج ملح شديد الإلحاح من أجل إنشاء نواة مؤسسات عربية ترعى تغطية احتياجات التعريب، والنقل من اللغة العربية وإليها، وترعى إنشاء مؤسسة نموذجية تعليمية ثنائية اللغة، تكون اللغة العربية هي الأولى مستوى وتوجهاً ومنهجًا واستيعاباً.. وترعى شئون البحث والتطوير والتخطيط والمتابعة، كما ترعى توثيق وتوفيق العمل بينها وبين جميع البرديات وغيرها من المخطوطات والوثائق العربية، وتوفرها وثائقياً بالطرق الحديثة.

إن جمعية لسان العرب، تسعى إلى تيسير إذاعة استعمال اللغة العربية فـــي الحـــياة العملـــية والعلمية، على أن تقوم الأجهزة التشرّيعية، بمراجعة القوانـــين واللـــوائح التـــي تـــنظم استعمالها وتفعيلها بما يناسب الاحتياجات المستقبلية، ويعتبر عام ٢٠٠٢ عاماً فاصلاً في مسيرة العربية التطبيقية فهناك شـــعور قومي بالحاجة إلى تخطيط النهضة العربية الشاملة على أساس لغوي ســـليم، حـــيث الأساس اللغوي يستوعب علوم العصر، وأبحاثه، ويستوعب الجهـــود القومـــية الخاصــــة بأنشطة البحث والتطوير على كل المستويات، ويستوعب متطلبات الأمن القومي: أمن المصير والهوية، ضمن خطة نسميها خطة نشاط اللغة العربية تتمثل في: وضع حوالي ثلاثين معجماً في مصطلح العلوم الإنسانية والأساسية والتطبيقية، وتعريب العلوم الصحية، ونشر العربية في كل مكان.

وقـــد تأسس مركز اللغة العربية، في جامعة القاهرة منذ ست سنوات، ليـــنهض برســـالة حضارية مرتكزها الثقافة العربية، ولبها اللغة العربية، إذ اللغـــة وعاء الثقافة، والثقافة هي المجسدة لهوية الأمة، وهي هوية في حاجة إلـــى حمايـــتها، والـــذود عـــنها صوناً لمقدرات الأمة، ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

الإذاعـــي الكبيـــر طاهر أبو زيد، دعا في سهرته الإذاعية "أسبوعيات "طاهـــر أبـــو زيد" إلى النهوض باللغة العربية، ومواجهة ظاهرة المسميات الأجنبـــية، وتجمـــيع الأنصار والمؤازرين لما يطلق عليه: جبهة حماة اللغة العـــربية.. وهـــي جـــبهة تتسع يوماً بعد يوم، فيها الكاتب الصحفي، الأستاذ الجامعـــي والمجمعـــي، والمعلم ورجل الإعلام والطب والمهندس والصيدلي والجيولوجـــي.. فالدعـــوة إلـــى "جبهة حماة اللغة العربية" تعيد إلينا الثقة في الـــنفس، وفـــي الآخرين، والأمل في أن تكون هذه الجبهة قادرة على تحريك

المناخ ودرء الأسى، وإثارة الهمة والحمية والنخوة، حتى يصبح الاهتمام بقضية اللغة العربية، اهتماماً قومياً حقيقياً، يلقي صداه الحقيقي عند الجميع، ولا تهتم به هيئة واحدة دون أخرى، والجبهة إضافة ثرية لما تقوم به جمعية لسان العرب، التي نجحت في إقامة عدة ندوات ومؤتمرات مهمة خاصة بقضايا اللغة العربية.

وقد جعل مؤتمر مجمع اللغة العربية من اللغة في وسائل الإعلام، موضوعاً رئيسياً له، حريصاً في توصياته على إبراز أهمية الاهتمام بحسن اختيار المذيعين، ومقدمي البرامج، وأهمية تدريبهم على الممارسة اللغوية في المواقف العملية المختلفة، وتصويبها بطريقة فورية، من غير أن يكون التركيز كله على قواعد النحو والصرف، وكأنها وحدها الهدف والغاية كما كان حرص المجمع- في إطار هذه التوصيات- على عروبة مسميات البرامج في الإذاعة والتليفزيون، والدعوة إلى التوقف عن المسميات الأجنبية، وإلى أن تكون العربية الميسرة هي اللغة المستخدمة في برامج الطفل، والرسوم المتحركة، والعمل على اتساع مساحة الغناء الفصيح- في كل من الإذاعة والتليفزيون- لمواجهة طوفان الركاكة، والسوقية في الغناء الذي يستخدم مستويات متدنية من العامية، واللهجات المحلية، ويشيع على ألسنة الناس معجماً لغوياً لا علاقة له بالتحضر من ناحية، ولا بالصحة اللغوية من ناحية أخرى.

ودعوة وسائل الإعلام إلى الالتزام بالفصحى الميسرة، في المجالات السياسية والثقافية والدينية والعلمية، وإن كان لابد من استخدام العامية في جانب من مجالي الدراما الإذاعية والتليفزيونية والغناء، لكنها العامية المتوهجة بالإبداع الفني، البعيدة عن السوقية والابتذال والتي لم يتوقف الحوار بينها وبين الفصحى على مستوى الصورة والدلالة والمجاز وللعامية الجميلة بلاغتها، كما أن للفصحى الجميلة بلاغتها.

وسوف تكون انطلاقات المجمع القادمة إلى ما يراه الجمهور حول قضايا اللغة المختلفة في جميع ميادين ومجالات استخدامها. وينطلق في أداء دوره من إدراك عميق بمكان اللسان في هوية القوم، وكونه أحد أركان هذه الهوية، التي بالحفاظ عليها والتمسك بها، يتحقق نهوض الأمة، وازدهارها الحضاري.

وقد صدر قرار من كلية الآداب، جامعة الإسكندرية في العام الجامعي ٩٥/١٩٩٦م بتكليف طلاب الماجستير والدكتوراه بالكلية، بدراسة مقرر في اللغة العربية، واجتياز امتحانه، كشرط ملزم قبل تقدمهم لمناقشة الرسالتين المذكورتين.

ولسوف لا تناقش أي رسالة جامعية، في أية كلية من الكليات، قبل اجتياز الطالب لامتحان فى مقرر واف للغة الوطنية، وأن يستمر تدريس اللغة العربية، وقواعدها وأصولها وتعابيرها ومصطلحاتها، في السنتين الأولى والثانية في كل كلية من كليات الجامعة دون استثناء.

وأنا ممن يؤمنون بوجوب إدخال اللغة العربية في مواد الكليات الجامعية، حفاظاً منهم على استشعارهم للغتهم الوطنية والقومية، ووصلاً وثيقاً لهم بأمتهم وبتاريخها المجيد، حتى لا تنقطع صلتهم بها وهم في غمار ما يدرسون من علوم، ويوم يتقرر تدريس العربية في الكليات المختلفة للجامعات، سيحاول المجمع اللغوي أن يقدم لطلاب الكليات الجامعية كل ما يعينهم على تمثل لغتهم العربية تمثلاً قوياً سديداً، وللمجتمع في ذلك أعمال مختلفة.

والآن نتساءل، ماذا فعلنا لتذليل صعوبات اللغة، ولتقريبها من أبنائها، وللنهوض بها نطقاً وكتابة؟ لقد ألفت كتب كثيرة في هذا المجال، ونشر العديد من المقترحات، وتلك محاولة أعرضها من خلال تجاربي، علها تجد صدى في الأوساط المعنية.

الباب الثالث
منابع اللغة

الفصل الأول

الروافد

بعد أن رأينا قيمة اللغة العربية، وكيف كان القدماء يملكونها، ويجددون فيها، لأنها تمثل حضارتهم، وتكشف عن ثقافتهم، وهي لغة التخاطب والمشافهة، كما أنها لغة الكتابة التي تحمل تاريخ الشعوب ونهضتها، وتعرفنا في الفصول السابقة على ماهيتها، وأهميتها، والعلاقة بينها وبين الفكر والذكاء والحضارة، والثقافة والمجتمع، وتبينا طبيعتها ووظيفتها، وكيف تكتسب في مراحل النمو المختلفة، وما عوامل ضعفها، ووسائل علاجها، لننهض بها نطقا وكتابة.

فلابد من الاهتمام بالنواحي الوظيفية لها، واستخدامها والتدريب عليها، وممارستها في واقع الحياة، واستعمالها في شئوننا اليومية، واستدعائها واستحضارها في المواقف والظروف التي تستلزم ذلك، وألا نعتبر اللغة في أذهاننا بعيدة عن الواقع الفعلي، ودون الانطلاق بها إلى حيز العمل، ولابد أن نحرص على أن نهيئ الفرص للتلاميذ للربط بين الألفاظ، والصيغ اللغوية، المسموعة أو المقروءة، وبين مدلولاتها أو معانيها التي ترمز إليها، حتى لا تضطرب المعاني في أذهانهم، وتصبح غير راسخة في أذهانهم، فلا يقدرون على استحضارها عند الحاجة إليها، بل ربما ينتهي الأمر إلى النسيان، وتستمر المشكلة.

وقيمة اللغة وواجب النهوض بها نطقا وكتابة، يرجع إلى ارتباطها بالقرآن الكريم، الذي أضفى عليها قدسية لا تجيز لأحد من البشر أن يمسها بتغيير أو تبديل، فالله قد أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين، وأنه سبحانه وتعالى ما فرط فيه من شيء، ولذا تكون الدعوة مستمرة إلى انصراف الجهود لفهم اللغة، وإظهار مزاياها، فهي اللغة التي حفظت تراثنا،

واســـتوعبت تاريخنا، ووفت بحاجات الحضارة فيما سلف من الزمان ونقلتها بعـــد أن أغنـــتها إلى العالم كله، سهلة ميسرة قريبة من الإفهام، قادرة على الإحاطة بما تتفجر به الدنيا من المعرفة.

هـــناك مـــن ينادي بحبه للعربية وبضرورة النهوض بها نطقاً وكتابة، فـــتكون لهـــم محاولات كثيرة يرون فيها طريق نجاتها، فتؤلف الكتب وتنشر المقـــالات، وهناك من يجمع على صعوبة اللغة، وهؤلاء ينظرون في طرق التعلم، وقصورها عن الوفاء بالغرض الذي وضعت من أجله، ويحاولون أن يضـــعوا أيـــديهم على أسباب هذا القصور فيشيرون إلى ضعف الرغبة في المطالعة، كما يشيرون إلى صعوبة الإملاء والتعقيد، وتشتد الثورة على النحو والحـــديث عن إصلاحه، وتيسير تعلمه وتعليمه هو الأساس الذي يبنى عليه إصلاح اللغة بشكل عام..

(١) المدرسة:

إن المدرســة لا تولــي العناية للعربية الفصحى، وأن مناهج التعليم لم توفــق في تعليم اللغة العربية السليمة، وأن موجة تعليم لغات أجنبية اقترنت بإهمــال تعلــيم اللغة الأم، والأسباب وراء هذا الحال كثيرة، تتعلق بقيادات التعليم، وواقع المدرس، وبمؤثرات خارجية، ولذا فإننا نشهد عند كثيرين من الطلاب "تلوثاً لغوياً"، فالكتب التي تؤلف لهم لا تكتب بطريقة تربوية لتخاطب عقــول الطلاب، ووجدانهم في المراحل السنية التي يعيشونها، ويجب أن تعد بطــريقة تشــوق الطالب، وتجعله يعتز بكتابة اللغة العربية.. إلى جانب أن قــواعد اللغــة العربية أصبحت تدرس بمعزل عن المواد الأخرى، مع أنها وضــعت لــيكون لها أثر في هذه المواد.. وقد عالج المجمع من قبل قضية تيســير الــنحو العربــي التعليمي، وأعد له مشروعاً، وكان للدكتور شوقي ضيف، رئيس المجمع، إسهام كبير في هذا الموضوع..

وقــد أصبحت المدرسة بيئة طاردة، غير جاذبة للتلاميذ، إلى جانب أن المعلــم يهمــل فــي أداء واجبه، ولا يركز مع تلاميذه، ونحن نسمع ونشاهد الأســاتذة ومعلمــين يخطئون ليس فحسب في النحو والصرف وبناء الجملة، بل أيضاً في الإملاء، والمرء يأسى ويأسف حين يكون هذا هو حال الأساتذة، فمــا بالــنا بــالطلاب الذين يدرسون، ويتعلمون على أيدي هؤلاء الأساتذة، وقــد أعــد المجمــع اللغــوي بالقاهرة، منهجاً جديداً ومبسطاً يتيح استيعاب الــنحو الــذي عــادة مــا يجد فيه الطلبة صعوبة فهم الفهم والتطبيق، ومع ذلــك تــراه لا يطبق ولا يستخدم، وما يقدم للتلميذ يقوم على التلقين والحفظ والاجتــرار، دون اكتساب المهارات اللغوية مثل مهارات الاستماع والنطق، والقراءة والكتابة.

لابد من تدريب المدرس على التحدث باللغة العربية السليمة، ولابد من اشتراك جميع الطلاب في الأنشطة التربوية بالمدرسة- إذاعة وصحافة وإلقاء، ومناظرة ومسرح- وتخصيص بعض الوقت للقراءة الحرة، وتعميم مسابقات الخطابة، والتعبير الارتجالي، وتشجيع إقامة الفرق المسرحية وتوفير عدد من المدرسين المؤهلين والمدربين على تحسين الخطوط، وتكوين جماعات للخط العربي، وجعل الإملاء جزءاً لا يتجزأ من المادة، مع الاهتمام بما يقدم للأطفال من مطبوعات وأعمال فنية، وما تقدمه الإذاعة والتليفزيون من تمثيليات وبرامج وأناشيد خاصة بالأطفال بلغة فصيحة ميسرة، ومن هنا لا ينبغي للمدرس أثناء درسه أن يقف باللغة عند الشرح، وما هو مكتوب في الكتب الدراسية، لأننا نقرأ الكتاب لا لنجتر ما فيه، وإنما لنبعد عما فيه، أو على الأقل لنستعين به في فتح آفاق للغة، حتى لا نشعر بالجمود، وعدم الفعالية، والإحساس بعدم أهميتها، وعدم الجدوى من التمكن منها، أو من الحرص على اكتساب ألفاظها وصيغها.

وبين المدرسين أنفسهم، فوارق عقلية وثقافية ولغوية، في الخطة والتنفيذ، والمتابعة والتقويم، وتقدير الموضوعات والواجبات والعرض، وعدم الاكتراث بالميول والرغبات والاستعدادات والهوايات، والاحتياجات اللغوية الخاصة، والسعي الحثيث لتنميتها وتطوير مهاراتها، مما يؤدي إلى الشعور بالإحباط في أداء ما يمكن أن يثري اللغة، وينمي رصيدها.

ومن هؤلاء المدرسين من يستخدم اللهجة العامية في التقديم والعوض، إننا لسنا ضد العامية، لكن العامية التي تخدم الفصحى، أو هي من الفصحى، بحيث لا يحدث فجوة بينهما، أو يبعدنا عن الفصحى، ويقلل من حصيلتنا، من مفرداتها وصيغها، وبالتالي يقلل من الإحساس بفاعليتها، وفاعلية ما يكتسب منها من عناصر، وحتى استخدام المعاجم العربية، لا يعرفه ولا يقدم عليه إلا

القليل النادر، وغير ملحوظ من قبل الناشئة ومدرسيهم، وتكاد تكون معدومة في مراحل التعليم الدنيا.

إن المدرسة مجتمع صغير، يضم الطالب والمدرس وقيادات التعليم، يدخل في كيان المجتمع الكبير، ولها طبيعتها الخاصة، ومعطياتها المتميزة، فيها يكتسب التلميذ ما يكتسب من مهارات اللغة على نحو مكثف ومنتظم ومتوازن ومتدرج ومستمر، فالمدرسة مصدر مستقل أساسي لمفردات اللغة، وصيغها وأساليبها، كما أن المجتمع بدءا من الأسرة، وما يحيط بالفرد من مؤثرات، والمجتمع الكبير بكل قطاعاته وطبقاته، وطوائفه وأشكاله، ووسائل وطرق الاتصال فيه (المورد الأول لمفردات اللغة)، حيث تربط أجهزة الاتصال الحديثة بين طبقات المجتمع المتباعدة، وقطاعاته المختلفة، وتقوم بدور كبير في تطوير عمليات المقايضة اللغوية، وطرق التلقين والاكتساب، وفي نشر اللغة القومية.

إن للمدرس أثرا كبيرا ومباشرا في الناشئ سواء من الناحية السلوكية، أو من الناحية العلمية، فالتلميذ يحاكي مدرسه ويقلده في سلوكياته، ولغته، فالناس عامة كما يقول ابن خلدون "مولعون بالاقتداء، فهم يقتدون بمن هم أعلى منهم مكانة وثقافة ومرتبة، ويلتقطون تعبيراتهم ومفرداتهم التي يستعملونها، ويتأثرون ببيانهم الذي يسمعونه أو يقرؤونه".

وهناك من أصحاب النظريات اللغوية الحديثة المتطورة، من يؤكد "أن الأطفال ينتهون بالفعل إلى الكلام بطريقة تشبه إلى حد بعيد كلام أولئك الذين يحيطون بهم فيما يتعلق بالتفاصيل الدقيقة، من حيث الاستعمال الصوتي والنحوي، فضلا عن استعمال المفردات"، بل إن منهم من يقرر بأنه "لا توجد فترة في تاريخ البشرية على الإطلاق لم يعترف فيها بأهمية المحاكاة في

اكتساب اللغة بالتعلم.. وإن أي نظرية من نظريات علم النفس البشري لا تجعل للمحاكاة مكاناً بارزاً فيها تدفع بأنها غير مكتملة".

إن المدرسة صورة مصغرة مكثفة للحياة الاجتماعية، التي يكتسب الناشئ من خلال معايشته لها المعارف والخبرات والعادات السلوكية، عبر اتصاله وتفاعله مع عناصر وفئات اجتماعية ذات خبرة متنوعة ومتفاوتة، ولا تعتبر مكاناً لتلقين المعارف ونقل المعلومات فحسب كما يعتقد الكثيرون، فهي مؤسسة اجتماعية، وهي صورة للحياة الجماعية التي تتركز فيها جميع تلك الوسائل التي تهيئ الطفل للمشاركة في ميراث الجنس البشرى، ولاستخدام قواه الخاصة لتحقيق الغايات الاجتماعية، كما يقول "جون ديوي" Dewey .

وتعتبر اللغة من أهم الوسائط التي تعتمد عليها المؤسسة في أداء مهمتها، ومن أهم القوى التي تنميها، وتهيئ الطفل لاستخدامها لتحقيق الغايات الاجتماعية، ولذلك كان إثراء لغة الناشئة من أهم الأهداف التي يفترض أن تسعى المدرسة جاهدة لتحقيقها، وبناء على ذلك يفترض أن تكون المدرسة أيضاً من أهم الموارد التي يكتسب الناشئ منها لغته وينميها، ويثري حصيلته من مفرداتها وتراكيبها وأساليبها.

ويعتمد دور المدرسة في تنمية اللغة وتطوير المهارات فيها يعتمد بشكل أساسي على طبيعة النظام المتبع في التدريس، وعلى نوعية المناهج المقررة وملاءمتها لمستويات الناشئين العقلية، وتلبيتها لحاجاتهم العملية، وارتباطها بواقعهم، ويعتمد أيضاً على كفاءة وإخلاص من يتولى تنسيق المناهج المقررة وتطبيقها، وهذا يرتبط بطبيعة الحال بمدى ما يمتلكه المدرسون والأساتذة من مؤهلات علمية، ومن براعة في أداء عملهم، ولا شك أن لتوافر الإمكانات والظروف والأسباب المشجعة في المدرسة، وتوافر

التقنيات اللازمة لعملية التدريس أثراً كبيراً في تحديد نسبة الاكتساب المعرفى من المدرسة عامة.

ورغم أن معظم الإمكانات متوافرة لدى المدرسة في حياتنا المعاصرة، والعوائق المادية التي تواجهها قليلة، والحوافز والأسباب المشجعة كثيرة، إلا أننا مع ذلك كله لا نشهد للمدرسة دوراً في تنمية اللغة القومية وتطويرها ونشرها ماثلا على النحو المطلوب في محيطنا الاجتماعي، بل إننا قد نلمس الضعف الشديد في اللغة سائداً بين الدارسين ومدرسيهم عامة، ونرى بعضهم وكأنهم غرباء على لغتهم، أو أنها غريبة عليهم، لا سيما اللغة الفصحى.

إن من أسباب هذا الضعف ضآلة المحصول اللفظي، والجهل بمصادر مفردات اللغة وطرق استغلالها أو استخدامها، كما أن منها عدم إتقان أصول اللغة وقواعدها، أو عدم إدراك الوظائف الأساسية لهذه الأصول في الحياة العملية، ومنها أيضاً الهبوط الثقافي العام، وعدم وجود ارتباط وثيق بمصادر التثقيف الرئيسية، أو الفنية، وخاصة المواد المقروءة.

وليست المدرسة هي المسئولة الوحيدة عن هذا الضعف، ولا عن كل الأسباب التي أدت إليه، ولكن وجود هذا الضعف يدل على تقصير المدرسة أو قصورها في القيام بدورها تجاه اللغة على النحو المطلوب. ولهذا القصور أو التقصير في أداء مهمتها في تنمية حصيلة الناشئة من مفردات اللغة وتراكيبها، وأساليبها، وفي تطوير مهاراتهم على نحو عام أسباب متعددة، بعضها يعود إلى المدرسة وهيئتها، وإلى طبيعة البيئة التي تنشأ فيها، والظروف والأوضاع العامة التي تحيط بها، أو بالمؤسسات التعليمية بشكل عام، ويعود البعض الآخر منها إلى ما قد تلاقيه المدرسة من عوائق، وثمة أسباب أخرى تعود بصورة مباشرة إلى أساليب التعليم ونظمه المتبعة، وإلى الكتب والمناهج الدراسية التي تفرض على الطلاب.

إن اللغة يكتسبها التلميذ من المدرسة- وهذا هـو المكمـل لمؤثـرات أخرى- فهو يتلقن اللغة في رحاب مدرسته من كل مدرسيه، ولذلك إيجابيـة كبيرة في تعلم اللغة- على أن يكون المدرس متقناً لها عارفاً بـها- كمـا أن للمدرسة ميداناً رحباً للاتصال الجماعي الفعال في إغناء الحصيلـة اللغويـة ــ عن طريق الزملاء ــ، وهو أيضاً ميدان واسع للقراءة التي تفتـح آفـاق اللغة، كما أن الطفل يأتي إلى المدرسة ومعه ثروة من المفردات اللغوية مـن خلال المجتمع الذي يعيش فيه، يقول (فريدريـك هربـرت) فـي نظريتـه التربوية: "عندما يدخل المدرسة يحمل معه ثروة فكرية ناتجة مـن احتكاكـه بالبيئة، وعلى ذلك فإن التركيز في التعلم والتلقي والتواصـل داخـل إطـار المدرسة، عندما يكون موجهاً إلى لغة واحدة- هي اللغة الفصحى- يصبـح المحصول المكتسب من مفردات هذه اللغة، وصيغها وأساليبها ومعانيها "أوفر وأخصب".

وليس من شك في أن للمدرسة دوراً يمكن أن يكون ذا فعالية في تنمية اللغة، وتطوير المهارات فيها، يعتمد وبشكل أساسي على كل المؤثرات التـي تحيط بالعملية التعليمية، وهنا يعظم دور المدرسة، ويتسع نطاق فعلها وأثرهـا في الفائدة، وتصبح من أهم المصادر التي يمكن أن يستمد منها الطلاب علـى اختلاف مستوياتهم، والعناصر المكونة للغتهم، أو المطورة لها، وللمـهارات المرتبطة بها، وتزيد من صقل ما عندهم من خلفية في اللغة جاؤا مزوديـن بها، وبناء على ذلك تصبح المدرسة من أهم المؤسسات التي يمكن أن تلعـب دوراً مؤثراً في نشر اللغة القومية، وفي ترسيخها، وجعلها دعامـة أساسـية قوية للارتقاء بثقافة الأمة، وبوعي أفرادها، فتطور دور المدرسة، وتطـور وظائفها التي يمكن أن تؤديها للمجتمع، وتعدد نشاطاتها، يجعلـها مـن أهـم الصروح في المجتمع، فماذا لو انتشر شعاعها عن طريق المسـابقات التـي تشجع لها، والأنشطة التي تظهر فيها البراعات اللغوية كالخطابـة والإلقـاء

بالفصحى، والكتابات التعبيرية، وتقام هذه المسابقات على مستوى المراحـــل الدراسية المختلفة، إلى جانب المناظرات. والمساجلات الشـــعرية والأدبيـــة، والندوات الثقافية، هنا يعظم دور المدرسة، لأن الممارسة تعتبر فـــي نظـــر علماء التربية أساساً في النهضة اللغوية نطقاً وكتابة، فهي تعمل على زيـــادة فاعلية المخزون اللفظي لدى المتعلم، وعلى ربط التراكيب اللغوية بمدلولاتـــها ومعانيها، ومن ثم حضورها في ذهنه بشكل عام ودائم.

(٢) المناهج:

لابد من وقفة عند المقررات المتعلقة بموضوعات اللغة، في مراحل التعليم المختلفة، فهي تحتاج إلى اختيار وعرض وإخراج، بحيث تمس حاجات التلميذ، وتلمس واقعه، وظروف حياته، وثقافة عصره، وتطوراته، إلى جانب عنصر الاستمالة والتشويق والجذب، وإثارة حب القراءة، وإذكاء روح المنافسة والتحدي، فهناك نماذج توحي بصعوبة اللغة، أو بجمودها وعدم ملاءمتها لثقافة العصر، ومن أجل ذلك تنبه المضطلعون بالعملية التعليمية إلى حذف ٢٠% من الموضوعات التي تحتشد في أذهان التلاميذ، ويعتمد عليها على السرد، والغريب في موضوعه، والبعيد عن تصور التلاميذ وفكرهم ومشاهداتهم، وربما يكون الموضوع متكرراً، أو ضحلاً تافهاً في محتواه مما ينفر الطلاب، ولا يثير في نفوسهم الرغبة في الاطلاع. ومن هنا يحفظ التلميذ آلياً دون وعي بالمعنى، أو الظلال أو الصور والأفكار والكلمات، فلا يخرج نطقه صحيحاً سليماً، ولا كتابته كذلك صحية سليمة، إلى جانب عدم تنمية رصيد التلميذ من مفردات اللغة، وشعوره بالملل والإحباط، والكراهية لموضوعات اللغة.

من المفترض أن توضع المناهج الدراسية على أساس دراسات ميدانية دقيقة متفحصة، تستقرئ وتتحسس أذواق التلاميذ وميولهم واتجاهاتهم، ومستوياتهم العقلية والثقافية، وتتعرف على حاجاتهم، وظروف حياتهم الفعلية، وطموحاتهم الخاصة، ويختار من الموضوعات أو المقررات ما يتناسب مع هذه الأذواق والمستويات، وهذه الميول والظروف والحاجات والطموحات، بمنأى عن النزعات الإقليمية، والرغبات الفردية والمجاملات الشخصية، والمفترض أن يستعان بالمدرسين، وأولياء الأمور، والتلاميذ في

اختيار المناهج، فهذا يشد التلاميذ إلى كتبهم الدراسية، وإلـــى الموضوعـــات المقررة فيها، ومن ثم تنمية حصيلتهم الفكرية واللغوية.

وما دمنا نتحدث عن اللغة العربية، وكيف ننهض بها نطقـــاً وكتابـــة، لذلك يفترض أن تضمن المناهج الدراسية عامة، والمتعلقة منها باللغة والأدب خاصة، نماذج قريبة في لغتها من لغة العصر وروحه، تظهر فيـــها فاعليـــة اللغة ومرونتها وحيويتها، وقدرتها على استيعاب جميـــع مســـتجدات الحيـــاة الحاضرة، وتلبيتها لجميع متطلبات هذه الحياة، وتبرهن للناشئ على أن لغته، لغة حضارة متطورة متجددة، وليست لغة حضارة قديمة سادت ثـــم بـــادت، فيطلع على موضوعات يتجسد فيها ثراء اللغة واكتمالها وغناها بـــالمفردات اللغوية، ويتمثل فيها طابع العصر المتطور.

ينبغي أن تشتمل الكتب الدراسية، والكتب المرتبطـــة باللغـــة والأدب، على كل ما يمكن أن يحفز الناشئ أو يدفعه إلى ممارســـة اللغـــة الفصحـــى الملائمة لروح العصر، وكل ما يتيح له الفرص المتعددة للحوار والمناقشـــة والخطابة والكتابة، ويقوده إلى استغلال ما من شأنه أن يمرن لسانه، وينمـــي طلاقته اللغوية والفكرية، ويرتقي بقدراته على الإنشـــاء والإبـــداع الفكـــري والفني، ويشعر بضرورة التمكن من لغته نطقاً وكتابة.

وكذلك ينبغي أن تتضمن المناهج الدراسية، موضوعات تشجع الناشـــئ على التعليم الذاتي، وتنمي لديه حب الاستطلاع، والفضول العلمي، وتربـــي لديه الطموح والتطلع إلى آفاق فكرية وثقافية رحبة، يتسع فيها مجال استخدام اللغة، وتتنوع مستوياتها ليتضاعف محصوله مـــن مفـــردات هـــذه اللغـــة، وتراكيبها، ويزداد معرفة بأساليبها وتزداد أصولها وقواعدها رســـوخاً فـــي ذهنه، وينبغي أن تسعى المدرسة بصورة أساسية، ومســـتمرة مـــن خـــلال المناهج إلى تشجيع التلاميذ على الاشتراك في الأنشطة التربوية وممارســـتها،

ولا ريب في أن لوجود المكتبة أثرا كبيرا في اجتذاب الناشئة وتحفيزهم على القراءة والبحث، ومن ثم تنمية رصيدهم اللغوي.

إن الكتب الدراسية- التي بين أيدي التلاميذ- خاصة الكتب المتخصصة في اللغة، تحتوي على عدد من النصوص التي تزدحم فيها الكلمات والتراكيب والعبارات اللغوية غير المألوفة أو النادرة الاستعمال أو المهجورة، التي يتعسر على كثير من الطلاب استيعابها، وفهم معانيها ومدلولات مفرداتها، وتصورها، حتى مع تفسيرها لهم، مما يلجؤهم إلى حفظها مع المفردات الغريبة الغامضة التي تشتمل عليها، ومرادفاتها المفسرة لها- أنا لا أنكر العودة للقديم، بل أوصي به- لكن ما ينتقي من هذا القديم، ويتلاءم مع مستوى الطلاب تبعا لمراحلهم المختلفة، مع إدراك مدلولات الألفاظ، وتذوق النص الذي يبعث على الرغبة فيه، والإحساس بالنواحي الجمالية فيه، حتى يقبل على اللغة بحب وشغف، وأن تكون كلمات النص المختارة مفسرة تفسيرا واضحا بعيدا عن الغموض، مما يجعلها محببة في أذهان الطلبة، ويزيد من إقبالهم عليها، ويدفعهم لحفظها عن وعي وفهم وإدراك، وألا تفسر الكلمات في الكتب بألفاظ وعبارات متعددة، فقد تكون هناك فوارق دقيقة بين معاني هذه الألفاظ والعبارات، ولا يتمكن الطلبة من تمييز هذه الفوارق، ولا من تحديد المعنى المراد، أو تعيين اللفظ الذي يفسر الكلمة المشروحة على نحو واضح ومحدد، فتبقى معاني الكلمات قلقة ومضطربة في أذهانهم، ومن ثم لا تشكل أي رصيد لغوي نافع لديهم.

كما أن للطباعة والإخراج أثرا ملموسا في تقبل المادة المقروءة، وفي الانجذاب لها، فإذا لم تكن الطباعة سليمة، بارزة الحروف، فإن هذا يفضي إلى اضطراب الناشئة في نطقها وإلى نفورهم منها، أو حفظها على صورة محرفة، وتثبت في الذاكرة مضطربة الشكل، ومن ثم لا يستقيم المعنى في

الذهن، وتلك آثار سلبية، إلى جانب البطء في الاستيعاب، واحتياج التلميذ لجهد أكثر من المعدل الاعتيادي، لأنه يسعى إلى حفظ كلمات وعبارات لا يفهمها، "وأن تعلم الكلمات ذات المعنى أسهل من تعلم الكلمات عديمة المعنى، أي أن التعلم اللفظي يتأثر بدرجة معنوية الكلمة موضوع التعلم"، وأن سرعة الحفظ تتوقف على كل ما ورد لها من معان ومترادفات، وأن ما لم يفهم معناه من المفردات لا يمكن استخدامه في مجال التعبير.

إن كثيراً من المناهج الدراسية، يتصف بالتقريرية التي يكتفي فيها بسرد الموضوعات، وشرح بعض النصوص، وتفسير طائفة من الكلمات، ثم وضع بعض الأسئلة على نحو رتيب أو شكلي في الغالب، لا يولي اهتماماً كافياً بتنمية مهارات الطالب اللغوية، وتعويده على ممارسة اللغة، واستخدام مفرداتها وصيغها المكتسبة منها بشكل فعلي مباشر، ينمي فيه القدرات الخطابية، ويثير فيه الحماسة للتعلم، ويبعثه على المنافسة، ويشعره بفاعلية لغته، ويدفعه لاكتساب المهارة، وإظهار البراعة فيها، إلى جانب أن مناهجنا تسير على نظام التحفيظ والتسميع وعدم التمييز بين ما يجب أن يحفظ وبين ما يمكن أن يكون للدراسة، مع أنه لابد من التركيز على الفهم والإدراك والتخيل والاستنتاج في جميع الأحوال، غير أننا نكتفي في كثير من الأحيان بالاستخدامات النظرية المجردة للألفاظ والتراكيب اللغوية التي ترد في النصوص المقررة دون ربطها بالخبرات الحسية التي يكتسبها الطفل في المدرسة أو في حياته العامة، فلا تجرى في الكتاب المقرر، ولا من قبل المدرس الذي يتولى تدريس الكتاب التطبيقات العملية الحسية على هذه الألفاظ والتركيبات، ولا تربط مفاهيمها ومدلولاتها بواقع الطلبة وأجوائهم وظروفهم المحيطة بهم، ليتمكنوا من إدراك هذه المفاهيم والمدلولات وتصورها على نحو تام وصحيح، ويتوثق ارتباط اللغة بشئون حياتهم.

كما أن المقررات الدراسية لا تحتوي على ما يكفي من المواد لبث الشعور في نفوس الناشئة بشكل مباشر وفعال بقوة لغتهم، وبحيويتها وقدرتها على استيعاب التطورات العلمية، والتقنية الحديثة ووفائها بمتطلبات الحياة الجديدة.

وليس من شك في أن للمناهج الدراسية عامة دوراً مشاركاً في هذا الضعف، فالجمود في المنهج والرتابة في الموضوعات المقررة مستمر، وغزو اللغة الأجنبية متواصل، واللغة تتراجع وتهزل، وتتداخل مع اللغة الأجنبية على الألسنة، فإن الموقف عسير.

وإذا تركنا الحديث عن المناهج في الفروع التي تحدثنا عنها، وانصرفت إلى مقررات النحو والصرف، وجدتها تتصف بشيء من الجفاف والتعقيد والرتابة، وعدم التركيز على الوظيفة الأساسية لكل من النحو والصرف، وليس هذا الموضوع جديداً، فقد طال الحديث فيه، وكثرت المؤلفات والمحاضرات في محاولات تبسيطه وتيسيره، غير أننا ما نزال نرى أن مستوى الناشئة لا يدل على تقدم في هذا المجال، وأن الوحشة بينهم وبين تراثهم وأدب لغتهم تزداد يوماً بعد يوم، وتوشك أن تكون قطيعة تعصف بما نرجوه من آثار بناءة في تكوين أبنائنا الفكري والنفسي والحضاري. وليست المشكلة بالشيء الهين اليسير، فالشكوى من صعوبة النحو والصرف قديمة، فقصة أبي الأسود الدولي مع ابنته، وخصومة الحضرمي والفرزدق وخشية عبد الملك بن مروان وقولته المشهورة: شيبتني المنابر وخشية اللحن، وما كان يؤخذ على الفصحاء من خطأ يسرع إلى ألسنتهم، كل ذلك قديم، وكل ذلك كان يحصل والسليقة العربية سليمة، فماذا نقول الآن، والحال كما نعرف؟ يقول محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في مقدمة كتابة "المفصل" : "الله أحمد أن جعلني من علماء

العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى أن انفرد عن صميمهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصبني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين"، وكأن الزمخشري كان يلحظنا بعين الغيب، ولكن بأثواب جديدة، ومذاهب مستحدثة، فيقول في المقدمة نفسها: "ولعل الذين يغضون من العربية، ويضعون من مقدارها، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها.. لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج، وزيغاً عن سواء المنهج..". إلى أن يقول : "وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم، وتدريسهم ومناظرتهم.. فهم ملتبسون بالعربية أية سلكوا، غير منفكين منها أينما وجهوا، كلٌ عليها حيث سيروا.. ثم أنهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها، ويدفعون خصلها، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها، وينهون عن تعلمها وتعليمها، ويمزقون أديمها ، ويمضغون لحمها، فهم في ذلك على المثل السائر: الشعير يؤكل ويُذم"..

وقد نادى الكثيرون بأهمية النحو وأثره في اللغة، وبذلت محاولات لتيسيره، وقدم لبعضها الدكتور طه حسين بقوله: "وأنا أتصور النحو على وجهين: الأول: أن يقرب النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويستسيغه ويتمثله، ويجرى على تفكيره إذا فكر، وعلى لسانه إذا تكلم، وعلى قلمه إذا كتب، والثاني: أن تشيع فيه القوة التي تحبب إلى النفوس درسه ومناقشة مسائله، والجدل في أصوله وفروعه بعد أن أعرضوا عنه"، وقد وضعت لجنة- في محاولة- كونتها وزارة التربية والتعليم في مصر من كبار الأدباء والمشتغلين بقضايا اللغة، كالدكتور طه حسين، وأحمد أمين، وعلى الجارم، وإبراهيم مصطفى وغيرهم، وجعلت مهمتهم تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة، تبسيطاً لا يمس أصلاً من أصول اللغة العربية، ولا شكلاً من أشكال الإعراب والتصريف.

وهكذا توالت المحاولات، وكلها ترمي إلى تبسيط المادة ليقبل عليها الطلاب في يسر وسهولة، ووجدت الكتب التي تبين ذلك، ككتاب "المفتاح لتعريب النحو" الذي نشره الأستاذ محمد الكسار، عام ستة وسبعين وتسعمئة وألف للميلاد، وغيره.. على أن ما ينبغي أن يوجه النظر إليه من أمور تتصل بتعلم اللغة، وليس من تيسير النحو والبلاغة في شيء، فالنحو والبلاغة قد يثقفان العقل، ويرقيان الذوق، ويصقلان الطبع، ويقومان الألسنة، ولكن الأهم والأجدى تعلم اللغة نفسها، أي أن تصبح أداة الفهم والإفهام، والتفكير والتعبير، ووسيلة يهون على أبنائها أن يؤدوا بها من الأغراض، ما يؤدى من غيرها من اللغات الحية، متخذين ما دعت إليه المجامع العلمية واللغوية، والندوات والمؤتمرات التي عقدت والمجامع اللغوية، من مقترحات في سبيل النهوض باللغة عامة، والنحو خاصة، وهناك محاولات واقتراحات كثيرة، قام بها أساتذة كبار منهم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي، في كتابه: النحو الجديد، والدكتور شوقي ضيف في كتابه: تجديد النحو، ومنهم الدكتور مهدي المخزومي، والأستاذ عبد العليم إبراهيم، في النحو الوظيفي، والدكتور عبده الراجحي، في كتابه: تطبيقات نحوية. فإذا أخذت كتب النحو المدرسية بمبادئ التسهيل، واصطنعت طرقاً جديدة في تعليم العربية وقواعدها، ارتفعت الشكوى، وأصبح طلابنا أفضل ممن سبقهم، واستطعنا أن نحقق شيئاً في نهضة اللغة: نطقاً وكتابة.

(٣) أساليب التدريس:

هناك أسباب أخرى نراها في الأوساط التعليمية، والأوساط الثقافية، من مثل: طرائق التدريس وأساليبها المتبعة في مؤسساتنا التعليمية، والكتب الدراسية، والمناهج المقررة في هذه المؤسسات. وضعف المهارات والقدرات وعدم وجود الاهتمام الكافي بتقويتها، وتطويرها بحيث تصبح مواكبة للطوق والمناهج الحديثة في التعليم، ومتلائمة مع ثقافة العصر، ومع ما تواجهه اللغة من ظروف، فمازال مدرسو هذه اللغة ينهجون في تدريسهم طرقاً تقليدية عقيمة، لا تستميل التلاميذ، ولا تضيف إليهم رصيداً لفظياً، ولا تطور مهاراتهم اللغوية، ولا حتى تكتشفها، بل يعمل هذا الأسلوب على تقليل الحماس لتعلم اللغة، وعلى دحضها، ودفن المواهب، وإضعاف القدرة على كسب المفردات، والصيغ السليمة، ومن ثم يؤدي إلى تجنب دروسها والنفور منها.

هذه الطرق تعتمد على التحفيظ والتلقين، والشرح بعيداً عن الحوار، ودون إتاحة الفرصة للتلميذ للمناقشة والتفسير، فهي تقوم بشحن الذهن بالمعلومات بحيث تسرد نصاً على من يستخدم تعبيره الخاص في نقلها أو التعبير عنها، فمثلاً في النصوص الشعرية والدينية، والموضوعات النثرية، تعطل قدرات التلميذ على التعبير كنتيجة لاستخدام الطرق العقيمة، والصيغ اللغوية لا يستثارون لها، ولا يشجعون على فهم واستيعاب معاني ومفاهيم الألفاظ، وأسباب النص ومضمونه، معتمداً على معلومات المدرس التي تكون في الغالب موجزة، وغير مجدية، رغم أن مصادر المعرفة كثيرة ومتعددة، ومتنوعة لا تحتاج سوى الإشارة إليها.

إننا بذلك نخلق لدى التلميذ شعوراً بالحرج والخوف والتخاذل عن الاستفسار عن معاني الكلمات، وصحتها نطقاً وكتابة، أو صيغ التعبيرات

اللغوية الغامضة، أو التي قد تكون غريبة عليه، مما يتردد على لسان المدرس نفسه، أو ترد في النصوص المقررة، فتمكث هذه الكلمات والتعبيرات في أذهانهم مجردة من مدلولاتها، ولا يستقيم نطقها عنده، وربما أيضاً كتابتها، إلى جانب شعورهم بالضجر والملل، أو إلى الانحراف بالذهن إلى غير ما فائدة.

إن تدريس اللغة العربية، لا يجد العناية المرجوة في معاهدنا أو مدارسنا وكلياتنا، فتصبح اللغة هامشية تكميلية، لا تبعث عن الاهتمام بها، وبالتالي لا يستفيد الطلاب منها شيئاً، وكذلك لا نجد أهمية لدور الأنشطة التربوية بكل فروعها في مناهجنا، وإن وجدت فإنها لا تؤدي رسالتها الفعلية في إحياء اللغة، والنهوض بها نطقاً وكتابة.

مع تقدم وسائل الاتصال، وسهولة تدفق المعلومات، أصبح العالم وكأنه يعيش في قرية صغيرة مليئة بالمعلومات المتقدمة والمتشابكة، وأصبح من الضروري إحداث ثورة في طرائق التدريس، وأساليبها، لتخلق جيلاً واعياً بما يدور حوله في العالم، دون أن يفقد هويته، ليصبح قادراً على التنبؤ والإبداع، لا الحفظ والتلقين، خاصة وأن واقعنا التعليمي الراهن يؤدي في معظم الأحيان إلى تدريس مفاهيم أو موضوعات منفصلة عن بعضها البعض، وأن نطور ونجدد في مناهج تدريس اللغة العربية للاعتماد على تنمية المهارات والكفاءات، وإعادة النظر في مناهج تدريسها في مختلف المستويات، وتطويرها بجهد علمي، وبحثي منظم تقوم به المؤسسات المتخصصة.

وليس من شك في أن هناك أموراً كثيرة، تتعلق بأساليب التدريس، لها أثرها الكبير في الحد من ظاهرة اللفظية، والتقليل من آثارها السلبية على الناشئة فالطريقة المشوقة في التدريس لها أثرها في جذب انتباه الطالب،

ومتابعة ما يقوله المدرس، وما يدلي به من أفكار ومعان وألفاظ جديدة، وليس من شك في أن الحيوية في عرض ومناقشة الموضوعات المقررة، وإشـــراك الطالب المستمر في المناقشة والحديث والتطبيق العملي، وإتاحـــة الفرصـــة للطالب لممارسة جميع الأنشطة اللغوية الممكنة، وإزاحة ما قد يعرض مـــن ملل، واهتمام المدرس بتثقيف نفسه بصورة مستمرة، وإيجاد رابطة بينه وبين طلبته، وحرصه على كسب ثقتهم، وجلب اهتمامهم بما يقدم إليهم، كل هـــذا يؤدي إلى استيعاب الموضوعات على النحو السليم.

وكما أن لطريقة التدريس أثرا مهما على ظاهرة اللفظية، فإن للمـــواد والموضوعات المقررة، ولطرق عرضها وإخراجها وتنســيقها فـــي الكتـــب الدراسية دورا مهما أيضا.

الفصل الثاني

الإثراء اللغوي

إن إثراء الحصيلة اللغوية، وتنوع مستوياتها لدى الفرد، يجعله أكثر فهماً لما ينطق أو يكتب، وتزداد الخبرات والتجارب والمعارف والمهارات التي يكتسبها الفرد، وبالتالي يزداد المحصول الفكري والثقافي والفني عامة، وتنفتح الشخصية على ما يحيط بها، وتنمو غريزة الاجتماع لديها، ومن ثم تنمو روح الألفة، والجرأة الأدبية، والثقة بالنفس، وهكذا فإن "معرفة الإنسان الحضاري لفنون لغته، وكيفية نطق الحروف والأصوات المكونة لبنيان اللغة، بما يلائم الموقف، ويناسب الحالة، وينسجم مع الذوق، يوفر له قفزة نوعية في بناء شخصيته الجديدة"..

إن اتساع حصيلة الفرد من الألفاظ والتراكيب اللغوية التي يكتسبها بفضل علاقاته الاجتماعية، يساعده على فهم وإدراك كثير مما يقرأ، وتعين الثروة اللفظية المكتسبة عن طريق ممارسة قراءة اللغة المكتوبة بصورة خاصة على فهم ما في التراث من نتاج فكري، ومن نماذج ونصوص وإبداعات أدبية، والاستمرار في القراءة يكسب الفرد ثقافة وعلماً، كما يعين على فهم واستيعاب قواعد اللغة، وأصول نحوها وصرفها، وبالتالي يعين على توظيف هذه القواعد والأصول على الوجه الصحيح في التعبير عن أفكاره وأحاسيسه، فثراء الحصيلة اللغوية يجعل الفرد فعالاً في محيطه، وبين أفراد مجتمعه أو أمته، ولا تظهر أهمية الحصيلة من ألفاظ اللغة، مهما بلغت من الثراء، ما لم تكن هناك قدرة على صياغة وتركيب وسبك، وربط المفردات اللغوية المكتسبة على نحو سليم، وطبقاً للمقاييس والقواعد اللغوية المتفق عليها في اللغة الواحدة، وما لم يرافق وجود كل ذلك ذوق فني صقيل، وطبع صاف مهذب، يتمكن معه صاحب هذه الحصيلة من تحقيق التلاؤم

والانسجام التام بين الأفكار والانفعالات التي يريد نقلها للآخرين، وبين القوالب اللفظية التي يوصلها بها، ويختارها لها "إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلمة مفردة" كما يقول الجرجاني، "وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة أو خلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها". والثروة اللفظية لا تظهر أهميتها، ولا تظهر البراعة في استخدامها ما لم تبرز معبرة عن ثروة فكرية، أو عن حصيلة متميزة جيدة نافعة من المعاني، ومخزون مؤثر فعال من العواطف، وعن صور ذهنية متلائمة معها. "إن الألفاظ لا تدل على البلاغة، ولا توصف بالفصاحة وحدها، وإنما المزية التي من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح"، كما يقرر الجرجاني أيضاً "عائدة في الحقيقة إلى معناه، ولو قيل أنها تكون فيه دون معناه لكان ينبغي إذا قلنا في اللفظة أنها فصيحة أن تكون تلك الفصاحة واجبة لها بكل حال، ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك، فإنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير، وإنما كان كذلك لأن المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح، مزية تحدث من بعد ألا تكون، وتظهر في الكلمة من بعد أن يدخلها النظم، وهذا شيء إن أنت طلبته فيها، وقد جئت فيها أفراداً لم ترم فيها نظماً ولم تحدث لها تأليفاً، طلبت محالاً..".

وإذا تبينا أهمية الثروة اللفظية، وعرفنا الدور الأساسي المهم الذي تلعبه أو تؤديه في عملية التواصل والتعايش والترابط، والتفاعل الاجتماعي، وعرفنا فاعليتها الكبيرة في اكتساب الخبرات، وفي تنشيط عملية الإبداع، والإنتاج الفكري، ومن ثم في تحقيق التقدم الحضاري، إذا عرفنا كل ذلك أمكن إدراك ما يترتب على نقص هذه الحصيلة، أو عجزها من سلبيات يعود أثرها في الفرد، وفي المجتمع وحضارته عامة، من عزلة اجتماعية، وضعف القدرة على التفاعل، واضطراب الشخصية، وضيق الأفق الثقافي

والفكري، وضحالة الإنتاج الإبداعي أو الفكري، ثم هجران اللغة، والازدواجية اللغوية.

إن كل هذه العوامل والدوافع تؤكد ضرورة خلق وتطوير المهارات اللغوية، والمهارات البيانية عن طريق إغناء الحصيلة اللغوية واللفظية، من أجل تحقيق المطامح الشخصية والاجتماعية والقومية في الإنتاج والإبداع والتطوير، ومن أجل تحقيق الاستقلال الفكري، وإحراز المكانة المرموقة، والتقدم الحضاري المنشود.

إن ما يجب أن يتخذ في سبيل إدراك أهمية الثروة اللغوية، ومعرفة مصادرها ومواردها وطرق وسائل تنميتها، تهيئة النفوس للإقبال عليها، وعلى تعلمها، واكتساب المهارة فيها، استخدام اللغة في التعليم، وفي التأليف والتثقيف والإعلام، واستخدامها في المعاملات الرسمية في كل مرافق الدولة، وفي التعامل الاجتماعي والتجاري بجميع أنواعه وأشكاله، كل هذه أمور تبعث الثقة باللغة، وتوجه الأنظار والقلوب إليها، وتزيد من الاهتمام بها، عن طريق التوجيه السديد إلى مصادرها، وإلى طرق ووسائل تنميتها، ومن ثم تلقينها ونشرها والارتقاء بها، ومن هنا نشأت ضرورة تطوير المهارات في تدريسها، وتطوير مناهجها. والمقررات الدراسية المتعلقة بجميع فروعها: تهيئة المدرس الكفء القدير الذي يمكن أن يكون قدوة صالحة في سعة معرفته، ومسلكه العلمي والخلقي، وفي عمق تفكيره وبعد نظره وجمال ذوقه، ووفائه لمهنته، وفي فصاحة لغته وطلاقة لسانه، وتهيئة الكتاب المدرسي الذي نقدم فيه اللغة حية متجسدة، مرنة محسوسة، مواكبة لتطورات الحياة، ملبية لكل متطلبات الحضارة، وتهيئة المنهج السليم الذي ينظر إلى اللغة وكأنها كائن حي متطور، كما يجب أن تولي المؤسسات اللغوية والعلمية عنايتها واهتمامها بإحياء ونشر الأعمال الأدبية التراثية والعمل الدائم على

توثيق الارتباط بهذه الأعمال، وجعلـــها قــاعدة أساســية لإيجــاد نهضـــة فكرية نشطة، وبناء حضارة جديدة نامية متطورة أصيلة في معناها ومبناهـــا، ولابد من أن يصاحب حركة إحياء ونشر الأعمال الفكرية التراثيـــة تشـــجيع متواصل على جعل تلك الأعمال منطلقات رئيسية لإيجاد أعمال عديدة باللغـة القومية.

وهذا النشاط أساسه القراءة، ومن هذا المنطلق جاءت حتمية التشـــجيع على القراءة، والسعي الحثيث من قبل الجهات الرسمية، والمؤسسات اللغويــة والعلمية لتوفير المادة المقروءة، والكتاب الجيد، وجعله فـــي متنـــاول اليـــد، وبأسعار مناسبة، وإنشاء المكتبات العامة الثرية، وتهيئـــة جميـــع الوســـائل المشجعة على الارتباط بالمادة المقروءة، وأن تسعى الدولـــة لتنقيـــة جميـــع أجهزتها مما يسئ إلى اللغة القومية، وأن تجعل منها منابع صافية يستقي منها الجمهور مفردات لغته سليمة فصيحة صحيحة.

إن النهوض باللغة نطقاً وكتابة، قضية سياسية اجتماعية وإنتاجية، ذلـك أنه عندما ينهض المجتمع حضارياً وإنتاجياً، ينهض الفكر، وتنـــهض اللغـــة، وعندما يتقدم الفكر واللغة، يتقدم المجتمع، ومن ثم فإن نهضة اللغة مرهونـــة بتحقيق مشروع حضاري عربي قومي، تتمرد فيه الأمة على واقعها، وتخرج من تمزقها، وتتجاوز تخلفاتها وخلافاتها، لتنطلق إلى المستقبل الذي يليق بها، بشراً وتاريخاً وأملاً.. ، واللغة جزء من التقدم الحضاري للمجتمع القائم على أساس سلامة الرؤية، ووضوح الهدف، وحرية التعبير والاجتـــهاد، والفكـــر والإبداع المنطلق إلى اللا حدود.

القراءة:

إن القراءة وسيلة من الوسائل التي لابد منها، ومن وجودها لإمداد الفكر الإنساني بأسس الإبداع، فبالقراءة يعيش الإنسان حياة الحاضر والماضي معاً، يعيش عصوراً وأزماناً بعيدة ممتدة، يشارك أهلها معارفهم، وخبراتهم وتجاربهم، ويستوحي منها ومما أبدعته عقولهم إبداعاته الجديدة، إذ أن "صور ذكاء البشر ومعارفهم" كما يقول فرانسيس بيكون.. "تبقى في الكتب بمنجاة عن عنكبوت الزمن، وهي قادرة على التجدد الدائم"، وتتوقف نسبة إغناء المحصول اللغوي على كمية القراءة، وعلى نوعية النتاج المقروء وأسلوبه وقيمته من الناحية الفكرية واللغوية، وعلى أسلوب القراءة نفسها، وطريقة استغلالها كوسيلة لتنمية الحصيلة اللغوية، ومدى القدرة على القراءة والفهم والاستيعاب والتذكر، وكلما كان النموذج المقروء عالياً ثرياً في لغته، جميلاً في أسلوبه، جلياً في صياغته، كانت فعاليته في إنماء الحصيلة اللغوية أكثر، والمحصول اللغوي المكتسب من قراءة الموضوعات الأدبية يكون وفيراً.

إن "اللغة مادة الأدب كما أن الحجر أو البرونز مادة النحت، والألوان مادة الرسم، والأصوات مادة الموسيقى"، وليست اللغة على عمومها، وإنما لغة الألفاظ والحروف والمقاطع الصوتية المتكونة منها بصورة خاصة، يقول غيورغي غاتشف: "إن الإبداع الأدبي نوع راق من أنواع العمل الاجتماعي، ومادة البناء في الأثر الأدبي هي الكلمة، أي الشكل المتميز للوعي، إن الكلمات وما تتركب منه من مقاطع صوتية وحروف، وما تكمن فيها من طاقات دلالية مختلفة هي المادة الأولى التي تتجلى فيها وفي انتقائها واستخدامها واستغلالها موهبة الأديب المبدع، وتظهر بها براعته في التعبير عن مشاعره وأخيلته وأفكاره ومعانيه، ومواقفه الإنسانية المترامية الأبعاد،

وكل ما يجيش في نفسه ويتبلور في ذهنه، وهي المرآة الحقيقية التي نرى فيها ومن خلالها إبداعه الفني، ونشهد تميزه ، ونرى شخصيتهّ بكل ما لهذه الشخصية من نوازع وسمات، ولذلك كان الأدب الحقل الأوسع الذي تمارس فيه اللغة بمختلف ألفاظها وتراكيبها وصيغها، وبكل ما يكمن فيها من أسرار، وما تحمله من صفات أصيلة ومن طابع فكري ووجداني قومي متميز.

والأديب لا يتخذ اللغة وسيلة لبناء عمله الأدبي، وإنما هي لديه غاية: إنها جزء مهم من عمله الإبداعي، يسعى إليه ويعمل على تحقيقه، وهو لا يستخدم اللغة على النحو المألوف لدى الآخرين، وإنما هو يخدمها.

إن العزوف عن القراءة، والإعراض عن ممارسة الأنشطة التربوية، عامل مساعد للضعف في اللغة، ولضآلة المكتسب منها: من صيغ وألفاظ وتراكيب وأساليب وقواعد لدى الجميع، وقد تنبهت مصر إلى أهمية هذا العامل، فدعت السيدة سوزان مبارك، إلى مهرجان القراءة للجميع، وماذا تقرأ لطفلك؟ وكانت مكتبة الأسرة، وأصبح هناك وعي لضرورة القراءة، وتشجيع التأليف والمسابقات الثقافية، حتى أصبحنا على الطريق المؤدي لتصحيح المسار، فالقراءة وسيلة من وسائل النهوض باللغة العربية نطقاً وكتابة، وهي ذات أثر فعال في تنمية الحصيلة اللغوية، وتطوير القدرات التعبيرية، من أجل ذلك كانت الدعوة إلى مهرجان القراءة للجميع، إلى مكتبات الأسرة، وإلى ماذا تقرأ لابنك، قد وجدت رواجاً كبيراً من جميع الأوساط، وأقبل عليها الكثيرون، وأحيتها المؤسسات العلمية، والمراكز الثقافية، والمكتبات العامة.

إن القراءة مصدر رئيسي للمعرفة، منها يستمد الإنسان ما يمكن أن يرتقي بعقله وخياله، وهي مصدر رئيسي لمفردات اللغة، ومورد ثابت مستمر لابد من الكشف عن طبيعته، وأبعاده المهمة، ومدى فاعليته، وطرق

اســتغلاله في تكوين حصيلة لغوية نامية فعالة، فهي إذن تعد الميدان الرحب الذي تتجلى فيه اللغة بكل ما تحمل من طاقات، وما تشتمل عليه من عناصر، ومـــا يدخل تحت طوقها من أساليب، حيث دعا إليها القرآن الكريم في سورة القلــم، فقـــال: "ن والقلــم ومـــا يسطرون"، وهذا يعني أن القراءة ووسيلتها القلــم، يعنـــي بدايـــة الحـــياة لأمـــة تريد أن تتعرف على نفسها في ميدان الحضــــارات، والقـــراءة والكـــتابة في الإسلام، ضرورة وفريضة، وقد أمر القـــرآن بها فقال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق..." – العلق – وينبغي علينا أن نخـــتار الكتب التي تقدم للناشئة، كما ينبغي أن تتجه القراءة إلى التأكيد على القـــيم، والاتصـــــال المباشر بالتراث الصحيح، وبكل ما يخدم الإنسان المثقف عقله وفكره وخلقه.

وتهيـــئ القـــراءة الحرة الفرصة لاكتساب الكلمات، كما أن قراء آيات القـــرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، وحفظها، يهذب لسان الناشئ بلا شك، ويسمو بسليقته ويرتقي بلغته، كما ينمي قدرته على الاسترجاع والتذكر، حتى وإن لم يدرك ويفهم كل ما يحفظ أو يقرأ.

ولقـــد تميـــزت اللغـــة العربية بغزارة مادتها بفضل مرونة أصواتها، وطواعية مفرداتها وتعدد طرائق نموها وتوسعها وعراقة الأدب والشعر فيها، لأن الشـــاعر كمـــا يقول "هربرت ريد" ينطلق إلى العمل من وحدة عاطفية، وهذه الوحدة تكتسي بما يمكن أن يسمى بالصورة اللغوية الداخلية، ولكن يظل الشـــاعر مخلصـــاً لهـــذه الصـــورة اللغوية الداخلية، فلابد له من أن يخترع الكلمات، وأن يبدع الصور، وأن يتلاعب بمعاني الألفاظ ويوسع في نطاقها، ويقـــول "ســـارتر" "إن الشاعر لا يستخدم الكلمات بحال، ولكنه يخدمها، وهو أبعـــد مـــا يكون عن استخدام اللغة كأداة، وقد اختار طريقه اختياراً لا رجعة فـــيه، وهو طريق فرضه عليه مسلكه الشعري في اعتبار الكلمات أشياء في

ذاتها، وليست بعلامات لمعان.. والكلمات للمتحدث خادمة طيعة، وللشـــاعر عصبية أبية المراس، لم تستأنس بعد، فهي على حالتها الوحشية، والكلمـــات للمتحدث اصطلاحات ذات جدوى، وأدوات تبلي قليـــلاً قليـــلاً باســتخدامها، يطرحها حين لا تعود صالحة للاستعمال، وهي للشاعر أشياء طبيعية، تنمـــو طبيعية في مهدها كالعشب والأشجار".

وحين نتحدث عن تنمية الحصيلة اللغوية، وأثر ذلك على الفرد، إنمـــا نقصد مصدرها القراءة التي تعالج المشاكل المتعلقـــة بالحيـــاة، والعلاقـــات الناشئة بين المخلوقات في هذا الكون، ويتجه فيـــها الخطـــاب إلـــى النفـــس البشرية، أو الروح والعقل معاً، ويقصد بها التأثير في أحاسيس المتلقـــي، أو في أحاسيسه وفكره معاً، ويسعى إلى تغيير مواقفه في إطار تعبـــيري فنـــي جميل، يتعانق فيه الخيال مع الفكر، وتترقرق الأفكار فيـــه فـــي ذوب مـــن العاطفة، وتتضح فيه رهافة الحس، وأناقة الذوق ، ورقة الطبع، وثراء اللغـــة، وعلى نحو مختصر نقول: "كل الأعمال التي تغلب فيها الوظيفة الجمالية".

هناك من يقرأ وقصده مما يقرأ معرفة محتـــوى النمـــوذج المقـــروء، والإحاطة بما يتضمن هذا النموذج من معان وأفكار، أو معلومـــات جديـــدة، دون الاهتمام بالشكل، ودون التفات إلى نوعية وطريقة نظم القوالـــب التـــي أدت ونقلت تلك المعاني والأفكار أو المعلومـــات، فـــهو كمـــا يعـــبر ابـــن رشيق القيرواني لا يبالي "حيث وقع من هجنة اللفـــظ وقبحـــه وخشـــونته".. وعدم التفات هذا القارئ للألفاظ وشكلها، وعـــدم تذوقـــه لـــها ولصياغتـــها، وإيقاعات أصواتها تجعل نسبة العالق منها في ذهنه والمستقر منها في ذاكرته قليلاً.

وهناك من يقرأ عابراً، فلا يعلق في ذهنـــه مـــن المعـــاني والألفـــاظ والأفكار، إلا ما كان متكرراً، وهناك من يقرأ متعثراً فهو لا يستفيد إلا علـــى

قدر ما يستوعب ويهضم من أفكار ومعان، وما عسى أن يعلق في ذهنه من الألفاظ والتراكيب المعبرة. ومن وجهة نظر أخرى نجد من يقرأ بأناة وحرص متتبعاً المعاني والأفكار ومتذوقاً في الوقت نفسه التراكيب والألفاظ والصيغ التي تنقل هذه المعاني وهذه الأفكار أو تعبر عنها ولطريقة القراءة من حيث الجهر بها، أو الإخفات فيها أثر في اكتساب مفردات اللغة، فمع أن للقراءة الصامتة إيجابيات وفوائد في زيادة وسرعة استيعاب القارئ لما يقرأ، وفي توفير جهده ووقته، وتوفير الهدوء له ولمن يحيط به أو يجالسه، وفي تخيل المعاني التجريدية، والعبارات وما توحي به من صور، فإن للقراءة الجهرية إيجابياتها وفوائدها الكثيرة، من حيث اكتساب المهارات اللغوية بنحو خاص.

وهناك فرق عظيم كما يقول الكاتب والشاعر الإنجليزي (جلبرت كيث تشسترتون) "بين شخص متشوق يريد أن يقرأ كتاباً، وشخص متعب يريد كتاباً ليقرأه" فالقراءة تؤدي وظيفتها عندما يكون الإنسان في حالة مرضية، وقد أشار بشر بن المعتمر البغدادي (ت ٢١٠ هـ) إلى ضرورة مراعاة الجانب النفسي في الكتابة تصريحاً، وفي القراءة ضمناً، فقال: "خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وعزة من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه" فهذا القول وإن كان ابن المعتمر يعني به الكاتب الناشئ نراه ينطبق على القارئ الناشئ أيضاً.

ومهما كان نوع القراءة وشكلها وحجمها وهدفها ومرجعها وموضوعها، فإنها تعد بلا شك مصدراً أساسياً، ووسيلة من أهم الوسائل لاكتساب اللغة بجميع صيغها وتراكيبها ومفرداتها، كما أنها تعتبر عاملاً رئيسياً من عوامل الارتباط الوثيق باللغة القومية، وجميع مراحلها وأطوارها، وبتراث هذه اللغة في مختلف أشكاله وصوره المدونة الموروثة.

إن القراءة تجسيد حقيقي للغة ولحياتها وحياة أبنائها من كل عصورهم وأزمانهم وبمختلف أذواقهم وأمزجتهم وأفكارهم وأحاسيسهم وظروفهم ومواقفهم وعاداتهم وتقاليدهم.. لهذا كانت الدعوة إلى القراءة، والتشجيع عليها ضرورة حتمية تفرضها المطامح التربوية والقومية والاجتماعية، وعلى الأسرة والمدرسة، والصعيد الاجتماعي العام التركيز على هذه الدعوة، حتى تصبح هناك علاقة بين الناشئ والكتاب داخل الأسرة وداخل المدرسة، وفي المكتبات العامة، لينشأ الطفل منذ عهد مبكر على حب القراءة، لما لها من آثار إيجابية في حياته، وفي تنمية رصيده اللغوي، وفي إيقاظ شعوره وتطوير قدراته على التذوق الفني، وعلى التخيل والحفظ والإلقاء الجيد، إن هذا يستتبع تشجيع المؤلفين على الاهتمام بكتب وقصص الأطفال. والعمل على تطوير فن الكتابة للأطفال، عن طريق إنشاء فروع خاصة لدى المؤسسات الثقافية، والمؤسسات اللغوية المعنية بهذا الفن، وتقديم الدعم المادي والمعنوي اللازم لهذه الفروع، مع العمل المتواصل على تطوير مجالات الأطفال، وإقامة جمعيات خاصة بثقافتهم، ومؤسسات أدب الأطفال والمكتبات العامة، ومكتبات الأطفال، ونوادي القراءة الصيفية، وتشجيع إقامة نوادي الكتب، ومعارض ومهرجانات أسبوعية أو شهرية للكتب، وتطوير المكتبات المتجولة.

الممارسة اللغوية:

للممارسة أهمية للتعلم عامة وتزداد بالنسبة لتعلم اللغة، لأن ما يبقى المعلومات المختزنة في الذاكرة حية حاضرة في الذهن سهلة الاسترجاع، هو ممارسة استخدامها بصورة مستمرة، فذلك يهيئ الارتباط الدائم بين هذه المعلومات وبين الحوافز، وبالتالي يساعد على إتقانها وبلورتها، وتعلقها وثباتها ونموها في الذاكرة. يقول (لودفج فتجنشتين: "إن كل كلمة تبدو في حد ذاتها كما لو كانت شيئاً ميتاً. وما الذي يعطيها الحياة؟ إنها تكون شيئاً حياً أثناء استخدامها، فهل دبت فيها الحياة بهذا الشكل، أو أن الاستخدام نفسه هو حياتها؟

والتخاطب لون من ألوان الكلام، وطريقة من طرق استخدام اللغة وممارستها، تزداد نسبة تسميع الكلمات التي تتلقاها الذاكرة، ويزداد ترددها على الذهن، ويتكرر استرجاع مجموعات كبيرة منها ربما لفترات طويلة ومستمرة، بحسب الفرص المتاحة لهذا التخاطب وهذا يزيد من ثبات الكلمات في الذاكرة، ويسهل على مكتسبها استرجاعها من هذه الذاكرة، واستحضارها عند الحاجة إليها، مما يؤثر إيجابياً على نمو الطلاقة اللغوية.

يقول (رومان جاكوبسن): "عندما يتكلم أحدنا إلى متحدث جديد يحاول دائماً، عمداً أو عن غير قصد، أن يكتشف مفردات مشتركة بينه وبين الآخر، فهو يستعمل ألفاظ المخاطب، إما لإرضاء المتحدث، أو للتفاهم معه فقط، أو للتخلص منه. ذلك أن الملكية الخاصة لا وجود لها في ميدان اللغة: كل شيء مشترك، والتبادل الكلامي، مثله في ذلك مثل أي شكل من أشكال العلاقة الإنسانية".

إن ممارسة اللغة نطقاً تعتبر أساساً مهماً في معرفة وإدراك معان ومدلولات وظيفية معجمية، أو لهجية خاصة، أو سياقية إيمائية إيحائية جديدة

للألفاظ التي سبق اكتسابها، وهي تثبت المعلومات والمعاني والمدلولات التي سبقت معرفتها، وسبق ارتباطها بهذه الألفاظ في ذهن مستخدمها. والفرد قد يكتسب من خلال علاقات واتصالات اجتماعية، أو قراءات سابقة، ألفاظاً بمدلولات معينة، وقد تكون متعددة، ومختلفة "فليس للكلمة الواحدة معنى واحد، ولا استخدام واحد، وإنما تقوم الكلمة الواحدة باستخدامات لا حصر لها".. و"ليس للغة حساب منطقي دقيق لكل كلمة معنى محدد، ولكل جملة معنى محدد بحيث يمكن الانتقال من جملة ما إلى ما يلزم عنها من جمل حسب قواعد الاستدلال المنطقي، لكن الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بحسب استخدامنا لها في الحياة اليومية.

"وتتعدد معاني الجملة الواحدة حسب السياق الذي تذكر فيه، وإن الكلمة مطاطة تتسع استخداماتها، أو تضيق حسب الظروف والحاجات، وإن اللغة ليست كرجل صارم يعرف دائماً ماذا يريد ويفعل دائماً طبقاً لقاعدة محددة، وإنما هي كرجل فضفاض متقلقل، له نشاط متعدد يتلاعب بما لديه من دون صرامة، أو خطة محكمة.

"إن مستعمل اللغة لا يكتسب المعنى التام لأي كلمة، ويستخدمها بدقة إلا عند سماعها بوصفها رمزاً يستخدم في مواقف متعددة متنوعة. وقد يختلف معنى كلمة ما اختلافاً كبيراً أو طفيفاً بالنسبة لمستعمل اللغة الواحدة، وحتى بالنسبة لأفراد أو جماعة بشرية صغيرة متوطنة، ولتعريف معنى أي كلمة، أي ما ترمز إليه بالنسبة لمستعمل واحد للغة، فإن من الضروري تحليل جميع المواقف التي سمعها فيها، واستوعب ما ترمز إليه، ومن ثم استخدامها في نفس المواقف، لكي نستطيع في النهاية عزل الملمح المشترك ومن ثم تحديده".

أما ممارسة اللغة كتابة، فالأمر مختلف حيث لا يوجد طرف آخر يفرض إرادته في الإسراع بتغيير الموقف، أو تحويل الفكرة وصرف الذهن عما يشغل الفكر، فهو طرف واحد يتحكم في زمن التخاطب، وموضوع التفكير وزمن الإنتاج، وبإمكانه أن يطلق العنان لفكره وخياله فيستدعي ويتذكر ويغوص في طيات الذاكرة في لحظات من التأمل أو التخيل أو الكشف، ومن هنا تكون الفرصة أكبر عند ممارسة الكتابة لتداعي وتوارد التصورات والأفكار والمعاني والألفاظ المعبرة عنها أو المرتبطة بها، كما تكون الفرصة أكبر أيضاً لدوران ما يسترجع من الذاكرة، ولبقائه طافياً حاضراً في ذهن من يمارس الكتابة، حتى مع تغير الموقف الفكري أو الشعوري، ولا شك أن لهذا الدوران وهذا الحضور أثره في نمو الطلاقة اللغوية.

إن ممارسة القراءة تعتبر إلى جانب التخاطب نوعاً من الرياضة النفسية، وتنحصر هذه الرياضة كما يعبر فندريس: "في التوفيق بين الرسم والصوت، وفي الجمع في دائرة الإدراك بين التصورات البصرية والتصورات السمعية"..

"عندما نسمع حديثاً ما نلاحظ في أغلب الأحيان أن الكلمات تقرع في نفس اللحظة جهازنا البصري، بقدر ما تقرع جهازنا السمعي، بمعنى أن الأثر الواقع على المراكز السمعية ينتقل بدوره إلى المراكز البصرية، وحينئذ نبصر الكلمات التي تسمعها آذاننا بل نحن أيضاً عندما نتكلم نرى الكلمات التي نلفظها، فتمر أمام عقولنا كأنها مسطورة في كتاب مفتوح والصورة التي تتخذها شفاهنا محددة غالباً بالمنظر الذي تظهر فيه أمام عقولنا".

لذلك كان من خير الوسائل لتجنب أخطاء النطق أن نرجع إلى صورة الكلمة البصرية التي تصحب دائماً صورتها السمعية في أذهاننا، وكذلك

صورة الكلمة البصرية يصحبها عند القراءة إحساس سمعي، فتراننا نعني لأنفسنا جمل الكتاب الذي نقرؤه، وعندما نكتب، نرى قلمنا يتبع الإشارات التي يمليها عليه الصوت الداخلي، فيمكننا أن نقول إنه في أثناء النشاط اللغوي لدى الشخص المتحضر العادي، تشترك صورة اللغة جميعها، في العمل". وعن طريق هذا الاشتراك تحفر صورة الكلمات في الذاكرة بطابع وشكل أدق وأعمق.

ونتيجة لثبات اللغة المكتوبة واستقرارها النسبي، بالإضافة إلى "انتقال السلسلة الكلامية من المستوى الزمني، إلى مستوى الإشارات المكانية" كما يعبر (رومان جاكوبسون) "تبقى الكلمات بالنسبة للقارئ موجودة، وهو يستطيع أن يعود من العنصر اللاحق إلى ما سبقه من العناصر" لا ليصحح ما قد أخطأ في نطقه أو تصوره من هذه العناصر فحسب، وإنما ليدرك ما قد فاته استيعابه أو فهمه أو تذكره منها أيضاً يجدد العهد بما نسيه من الألفاظ والمفاهيم، وهكذا تعمل ممارسة القراءة على زيادة فرص استيعاب الفرد لمعاني اللغة، وفرص ربط هذه المعاني بألفاظها على نحو وثيق صحيح، كما تعمل على إنعاش العناصر اللغوية التي يكتسبها، أو على تعزيز تذكر هذه العناصر، ولكل محيط اجتماعي لغة تتناسب معه في مفرداتها وتعبيراتها وطرق نطقها.

وإذا كان للقراءة أثر، فإننا نلمسه في تنقية المحصول اللغوي الناتج عن التحاور، وتهذيبه، وفي انتقاء اللغة التي تصلح للتخاطب والتواصل اللغوي بمستواه الفصيح الراقي الذي يحتاج إليه الإنسان في مجتمعنا الذي نعيش فيه.

والقارئ محتاج لتفسير ما يمر به من مفردات وكلمات وألفاظ، ولفهم وإدراك ما يقرأ، فيبحث في الذاكرة عن معاني ومدلولات المفردات اللغوية

في فاعلية مستمرة وسريعة، والذهن أحياناً "يميل إلى أن يصل بين الكلمات تبعاً لشكلها الخارجي".

إن اللغة- نطقاً وكتابة- تخلق للكلمة قيمة "حضورية" كما يعبر فندريس فإن المعاني المختلفة للكلمة التي قد تكون كامنة في الذهن، ربما تتداعى وتستحضر أيضاً لأن "الكتابة تخلق ما سماه بعض الباحثين لغة "طليقة من السياق، ومن الثابت في علم النفس أن الخبرات أو المعلومات القديمة تساعد على خفض الفترة الزمنية اللازمة لتعلم مهارات جديدة، أو تلقي معلومات جديدة، "كما يقرر (فنجنشتين) أن معنى الكلمة" يتحدد بناء على الظروف المختلفة التي تستخدم الكلمة حدودها بالفعل"، وشرح معنى الكلمة "يكون بإظهار كيفية استخدامها"، لذلك دع الألفاظ تعلمك وتوضح لك معناها من خلال استخدامها سواء كان هذا الاستخدام مقروءاً أو مسموعاً.

إن ألفاظ اللغة المكتسبة كلما كانت مستمرة الحضور في الذهن، كانت عملية اكتساب الألفاظ أو المواد الجديدة أسرع، وأكثر إيجابية، حيث تكون عملية تذكر واستيعاب ما يقرأ أو يسمع أسرع، كما تكون عملية اكتساب المفردات والألفاظ الغريبة المجاورة لها المرتبطة بها شكلاً أو معنى في سياقاتها القائمة أسرع أيضاً.

يقول الجاحظ: "إن الألفاظ إذا طال مكثها تلاكحت ثم تلاقحت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أكرم ثمرة، لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلفة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر".

النشاط اللغوي:

ويعتبـــر النشاط التربوي لأبنائنا- في المدارس والمعاهد والجامعات- ركيـــزة مهمة للنهوض باللغة نطقاً وكتابة، ومن ثم يخرج هؤلاء الأبناء إلى الحـــياة العامـــة، فيـــتفاعلون مع بعضهم البعض بلغة سليمة صحيحة- نطقاً وكـــتابة- والنشاط المدرسي هو الجهد العقلي أو البدني الذي يبذله المتعلم في ســـبيل إنجاز هدف ما، ولابد للنشاط المدرسي من هدف، فهو الذي يخلق لنا أفـــراداً فـــي المجتمع يعملون في شتى ميادين ومجالات الحياة، ويصبح لدينا الصـــحفي، والمذيع، والكاتب، والمهندس، والطبيب، وغير هؤلاء من الفئات الأخـــرى، التي تخرج لنا أعمالهم بلغة راقية صافية معتمدة على ممارستهم للغـــة السليمة نطقاً وكتابة، فما يبذله المتعلم من نشاط تربوي له قيمة كبرى فالمـــنهج جوهـــره النشاط، يدور حول تربية الفرد تربية جديدة، ذات فلسفة خاصـــة، حـــيث يدفع إلى تربية الأبناء، وبنائهم من الداخل، ويدعو إلى بناء المعلم أيضاً من الداخل، ومدى قابلية المعلم لاستخدام النشاط الذي يحتاج إلى إمكانات للتخطيط له، وتنفيذه.. ويقصد بالنشاط تنوع ألوان الممارسة العملية للغـــة- نطقاً وكتابة- يقوم بها الأفراد مستخدمين فيها اللغة استخداماً موجهاً ناجحـــاً فـــي المواقـــف الحـــيوية الطبيعـــية التي تتطلب الحوار والمناقشة، والـــتخاطب، والاســـتماع، والقـــراءة والكـــتابة، في الاجتماعات والندوات والمناظـــرات، وغير ذلك من ألوان الثقافة، وفنون المعرفة، وذلك بممارسة القـــراءة الحرة، وزيارة المكتبات العامة، ومكتبات المدرسة، والفصل، وبما يـــتاح مـــن فرص الاستماع إلى الأحاديث والمحاضرات، ولذلك كله أثر في تنمية الحصيلة اللغوية، وفي إتقان اللغة- نطقاً وكتابة-.

وتعتبـــر الإذاعـــة المدرســـية، والمســـرح المدرسي، أكثر فاعلية من المقـــروء مـــع الحاجة للقراءة في تنمية المحصول اللغوي لدى الفرد، وهذا

المحصول يصب في الصحافة والمجلات، ذلك النثر العلمي، الــــذي يكتــب بأسلوب سهل معبر، معتمدة على الأسلوب العلمي في العرض، وما يتميز بـه من عذوبة التعبير، تعمل على توسيع آفاق الفرد ومدركاته اللغوية، وتزويــده بالثراء اللغوي، كما يخلق المقروء نوعاً من النقد الذاتي، الذي يعـــبر عنــه القارئ بأسلوبه مستخدماً مخزونه اللغوي.

وللإذاعة فوائد قيمة، فهي تقوي شخصية المذيعين، وتدربهم على حسن الأداء، وجودة الإلقاء، وتعودهم إتقان اللغة، ودقة الأســاليب، وتــهيئ لــهم مواقف حية طبيعية، يستخدمون فيها اللغة استخداماً ناجحاً، فتصقل مواهبـهم، وتشحذ ميولهم، وتربي فيهم الجرأة، والقدرة على الارتجال، وسرعة الخاطر، واستدعاء المخزون اللغوي، ومن ناحية أخرى تنمي معارفهم، وتدفعهم إلــى الاعتماد على أنفسهم فيما يحصلون من شتى المصـــادر لإعـداد مـا يقـدم للمتلقي..

وللإذاعة المدرسية دور معروف في تثقيف التلاميذ، ونقل المعلومــات والخبرات إليهم وتقوية الجرأة الأدبية لديهم، وتطويـــر قدراتــهم الخطابيــة وصقلها وإبرازها، وتنمية حصيلتهم اللغوية، ويمكن أن يزيد التركـــيز فــي الإذاعة المدرسية على جانب اللغة، وعلى إمداد التلاميذ بألفـــاظ وتراكيــب وصيغ جديدة منها، ومما يزيد من فاعليتها في إغناء حصائل التلاميذ اللغوية، تخصيص فترات معينة فيها للخطابة الارتجالية الحرة، والتي يتهيأ لها في كل يوم مجموعة من التلاميذ تحت إشراف مدرسهم، مع اســـتغلال المؤثـرات الموسيقية وغيرها، وتتوقف الفائدة على الأنشطة المقدمة من خلالها، وممـــا يزيد ارتباط التلاميذ باللغة، وينمي حصيلتهم اللغوية، إيجاد مكتبات صغـــيرة إلى جانب مكتبة المدرسة، ويمكن أن يستعين الطـــلاب بالأجـــهزة الحديثــة لمعرفة اللغة، يقول أحد الباحثين في شئون اللغة "إن حاسة السمع ينبغـــي أن ترافقها دائماً حاسة البصر، وينبغي أن يدرب اللسان بالترابط مع اليـــد كمـــا

ينبغي ألا تدرس الموضوعات شفوياً، بل توضح بطريقة مرئية، وإن من الحكمة أن يصور على جدران الصف كل موضوع يعالج داخل الصف".

والحقيقة إن استخدام أي وسيلة سمعية أو بصرية، أو أي وسيلة حسية أخرى تساعد على استيعاب المعاني والأفكار، وتجسيد استخدام اللغة، وتناول المفردات اللغوية بشكل حيوي ملموس، أصبح أمراً ضرورياً في الأوساط التربوية الحديثة، كما ينبغي ألا يقتصر استعمال التلاميذ للغة في المدرسة، على إعادة ما يتعلمونه من مدرسيهم أو يقرأونه في كتبهم الدراسية. إن "مدرس اللغات الذي يدرس بطريقة معينة ويطلب من طلابه اتباع أنماط معينة في استجاباتهم لا يحيدون عنها، لا يوفر لهم حرية الاكتشاف، ولا الفرص الكافية لمعالجة المشاكل التي قد تواجههم عن طريق استخدام لغتهم".

يرى ديوي أن من الضروري أن تثار في التلميذ غريزة اللغة، وأن تجذب اللغة إلى هذا التلميذ بطريقة اجتماعية ليتحقق اتصاله المستمر بالواقع. إن من المفترض أن يدرك التلميذ في المدرسة إدراكاً تاماً أن الكلمات والتراكيب التي يتعلمها تعد وسائل مهمة للتعبير عن المواقف والمشاعر والمعارف والعلوم التي يتلقاها، وأنه لا جدوى من تعلمها ما لم توظف لذلك، لهذا ينبغي أن يشارك كتابة ونطقاً في الحديث عما تعلمه وعما سيتعلمه على نحو متواصل ليتمكن منها، ويحرز المهارة في استخدامها. يقول "كومينيوس" وهو أحد المهتمين بتطوير اللغة: "يجب أن يتعلم طلاب المدرسة الكتابة عن طريق الكلام، وينبغي ألا يهمل تدريس الكلام في خضم التأكيد على القراءة والكتابة.."

إن كل هذه الإجراءات تعد إشارات حيوية للغة، أو وسائل لاجتذاب الطالب إلى اللغة، أو اجتذاب اللغة إليه، وكلها تعمل على تطوير وإنعاش ما

لديه من محصول لفظي. ويجب ألا نغفل أهمية النشاط الديني، فـــهو ميــدان خصب في إثراء اللغة لدى الأفراد، وهو ينمي الإنســـان فكريــاً ووجدانيـــاً، ويجعل علاقته بالآخرين تقوم على الود والإخاء والمحبة، فيتبادلون التحــاور والتخاطب مما يزيد من حركة تداعي الكلمات، واستجماعها، واســـتخدامها- نطقاً وكتابة-.

من أجل ذلك لابد أن نهتم بلغتنا القومية، ونعمل علـــى إثرائـــها، وأن نتعلمها تعلماً دقيقاً فهذا يعيننا على تلاوة القرآن الكريم، ومدارســـته، وفـــهم معانيه، واستيعاب مدلولاته وكذلك الحديث الشريف.

المعاجم:

ليس من شك في أن معاجم اللغة العربية تعد وسيلة من وسائل النهوض باللغة نطقاً وكتابة، وإن كنا نفتقر إلى المعاجم المرحلية، والمعاجم السياقية، ومعاجم الأضداد، والمترادفات المناسبة لحاجات الناشئة على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم فبعض الناشئة قد يرجع إلى المعجم، ليبحث عن معنى كلمة، ربما يجد هذه الكلمة مفسرة بلفظ أو عبارة أكثر غموضاً، وأشد غرابة من الكلمة نفسها، أو يجد مجموعة من الألفاظ المطروحة لتفسير الكلمة التي يبحث عنها.

ويمكن أن تستخدم الشواهد الصورية، ويقصد بها الصور الفوتوغرافية، والرسوم والخطوط والألوان والرموز، وجميع الأشكال المرئية مظللة وغير مظللة، ملونة وغير ملونة، وربما شمل ذلك تنقيط الكلمة ورسمها أيضاً، إذا كان لذلك ارتباط بتجسيد أو تصوير معنى الكلمة- أن تستخدم في المعاجم، وخاصة معاجم الطلاب، والمعاجم المرحلية فيها، كما يمكن أن تستخدم في الكتب الدراسية عامة، وكتب الناشئة في المراحل الأولى والمتوسطة من التعليم بصورة خاصة، بشرط أن تتناسب هذه الشواهد مع أحجام الكتب الدراسية، ومع الموضوعات التي تشتمل عليها.

إن اللغة تنمو وتتسع وتتطور على مر العصور، سواء من حيث قواعد نحوها وصرفها، أو من حيث مفرداتها وتراكيبها وأساليبها، تبعاً لتطور الناطقين بها فكرياً وحضارياً واجتماعياً، وأن مجموعات كبيرة من صيغها وألفاظها تتغير في مدلولاتها ومفاهيمها، نتيجة لعوامل وظروف طبيعية وحضارية مختلفة، وبذلك فإنها تصبح من الضخامة والسعة والتشعب بحيث لا يستطيع أحد الإحاطة بها، وبكل ما تشتمل عليه من صيغ وتراكيب، وأساليب وكلمات، وبالنسبة للغة العربية، فقد أكد ابن فارس ذلك بقوله: "وما بلغنا أن

أحداً ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها" ونزه الخليل بن أحمد الفراهيدي، أن يدعي ذلك، مع أن الخليل كان علامة ونابغة عصره في اللغة وعلومها.

إن المعاجم اللغوية هي خزائن اللغة وكنوزها التي يستمد منها الإنسان ما يغني حصيلته اللغوية وينميها، ويجعلها مرنة طيعة في مجالي الأخذ والعطاء: مجال الاستيعاب والفهم، والتوسع الفكري، والنمو العقلي والمعرفي، وفي مجال التعبير والعمل الإبداعي والإنتاج الثقافي، ومن يطلع على معجم: "أساس البلاغة" لمؤلفه: جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) يعرف ما كان للأدب العربي من آثار في تحقيق هذا النماء.

لقد تفنن الإنسان على مر الأزمان في تأليف المعاجم، وتصنيف مفردات اللغة وقد تفرعت أنواع المعاجم، في بعض اللغات المتطورة إلى أنواع جديدة أخرى عديدة وظهرت تصنيفات جديدة للمعجمات، والقواميس اللغوية العامة والخاصة، ميزت بين أنواع عديدة منها، وليس من شك في أن المحصول اللغوي المكتسب من المعاجم عامة، تعتمد في كونها ونوعها على مدى المرونة والسعة في استخدامها بأنواعها المختلفة.

وتعتبر المعاجم المرحلية بمنزلة معجم واحد متدرج، أو قاموس ذي أجزاء متسلسلة متنامية، ففيها تنتقي مجموعة من مفردات اللغة تتناسب مع عمر الناشئ ومستواه الإدراكي والعلمي، وقدراته الاكتسابية، وحاجته في التعبير، ومدى قدرته على البحث، وصبره على التتبع والفحص، وينمو ويتسع مع نمو الناشئ، ونمو قدراته الطبيعية والمكتسبة، واتساع ثقافته.

إن المعجم المرحلي له تأثير فعال في نمو حصيلة الناشئ اللغوية، ولذلك يلقى في العصر الحاضر اهتماماً ملحوظاً من بعض المجتمعات المتقدمة، وهناك معاجم لغوية عربية صغيرة أعدت لتلائم احتياجات

الطلاب في مراحلهم التعليمية الإعدادية والتكميلية مثل المعجم الوجيز- وهناك تضافر جهود من أجل إيجاد معاجم مرحلية للغة العربية كخطوة أساسية لتنمية الناشئة من مفردات لغتهم، فهو مصدر لإغناء الحصيلة اللغوية.

وإذا كنا قد ألمحنا إلى أهمية المعاجم، واستخداماتها للنهوض باللغة العربية، نطقاً وكتابة، فإننا نشير أيضاً إلى أهمية الترجمة في هذا المجال، فالمفكر الكبير محمود أمين العالم، يرى أن لغتنا العربية بحاجة لتطور يواكب التقدم التكنولوجي والثقافات المعاصرة، وذلك عن طريق الترجمة، فهي الحل، لأنه مع التعريب بدلاً من إجهاد أنفسنا في البحث عن لفظ عربي، يقابل اللفظ الأجنبي، والتوسع في حركة الترجمة في التراث الفكري العلمي، والانفتاح على الأفكار العالمية لإثراء لغتنا بالخبرات العلمية، والألفاظ والتراكيب اللغوية الجديدة، وعلى جانب آخر هناك مئات المخطوطات لا نعلم عنها شيئاً، وموجودة في أوروبا، فمثلاً اكتشفنا في الأربعينيات كتاباً للقاضي عبد الجبار، غير رؤيتنا في المذهب الأشعري فما بالنا ببقية المخطوطات؟

إن اللغة العربية هي العنصر الأساسي الذي يجمع العرب في شتى أنحاء الأرض، فهي الحلقة الرئيسية التي تربط جميع الشعوب العربية، حيث إن العربي لابد أن يكون ناطقاً بالعربية أينما ذهب، ومهما يكن أهله ومولده. وأول من فكر في خدمة اللغة العربية هو المستشرق الألماني "فلوجل" بوضع معجم مفهرس شامل لألفاظ القرآن الكريم، وأسماه "نجوم الفرقان في أطواف القرآن"، وهذا المعجم الكبير طبع ووزع لأول مرة عام ١٨٤٢م. ثم معجم تفسير لغوي لكلمات القرآن، هو معجم لألفاظ القرآن مع ترتيب مواد اللغة بمراعاة ترتيب حروف الهجاء في أوائل المواد وما يليها، كتاب مكون من

٢٨ مجلداً مترتبة بتسلسل هجائي من حرف الهمزة إلى حرف الياء، وهكذا يكون لكل حرف مجلد خاص، وهذا العمل أحصى ١٧٢٩ مادة لغوية، وجمع ٥٠٣٣ كلمة قرآنية، أما "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، فقد وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، وهذا المعجم لا يستغني عنه أي باحث في اللغة العربية، لغة القرآن الكريم.

إن الرجوع إلى المعجم للبحث عن معنى كلمة ما، بالإضافة إلى كون أنه يعود الاعتماد على النفس في تنمية الحصيلة اللغوية، فهو أيضاً يعود البحث والصبر، وينمي حب الاطلاع، ويعمل على ترسيخ معاني الكلمات التي تستخرج في ذهنه لمدد أطول، ومع الحث والتشجيع الدائم، والرجوع المستمر إليه، يصبح استعماله عادة، ويجد لذة في البحث فيه، ومما يزيد من فائدة المعاجم، أن تكون مناهجها مبسطة سهلة- خاصة بالنسبة للناشئة- ويستحسن أن تكون من المعاجم (النطقية) أي التي تصنف فيها المفردات اللغوية بحسب نطقها أو المعاجم الهجائية الألفبائية، أي التي تصنف فيها المفردات اللغوية بحسب ترتيب الحروف الهجائية في اللغة، وأن تكون من المعاجم المرحلية، ومما يمكن أن يكون له أثر كبير في اهتمام التلميذ بالمعجم والحرص عليه وعلى الرجوع إليه، والاستفادة منه اقتناء معجم خاص به، وتعرفه على جميع المختصرات والرموز والمصطلحات المعجمية المستخدمة في هذا المعجم.

ولعلنا ندرك صعوبة اللغة، وأنها من اللغات المعقدة، ولا نستطيع إحصاء معانيها، حتى وإن أسعفتنا القواميس والمعاجم، فالقرآن الكريم نزل على العرب بلغتهم التي ينطقون بها- لغة قريش- وفي عهد نقائها وصفائها وفصاحتها، ومع ذلك صعب على بعضهم معرفة معاني ألفاظه وصيغه، فقد روي بدر الدين الزركشي أنه "كان ابن عباس- وهو ترجمان القرآن- يقول:

لا أعـــرف (غســـلين) ولا (الـــرقيم)، ولهذا احتاج الناس إلى من يكشف لهم معاني ومدلولات ألفاظ القرآن وعباراته، حتى أن عمر بن الخطاب- رضي الله عـــنه- سأل عن معنى كلمة (يحور) في قوله تعالى في صورة الانشقاق: "إنه ظن أن لن يحور" الآية ١٤.

وهـــذا ما دفع علماء اللغة فيما بعد إلى تصنيف كتب خاصة يجمعون فـــيها ما سمي بغريب القرآن من المفردات، ويفسرونها ويوضحون معانيها، ومـــع أن الرسول صلى الله عليه وسلم عربي ما نطق إلا بالعربية الفصحى الصـــافية، فقـــد غاب على نفر ممن عاصره إدراك معاني بعض ما ورد في أحاديـــثه وكلامه من مفردات وتراكيب لفظية، الأمر الذي دفع فيما بعد أيضاً إلـــى تصنيف كتب خاصة تشتمل على ما سمي بغريب الحديث، والتي تتولى شـــرح وتفســـير مـــا اشتملت عليه بعض الأحاديث، من غريب العبارات أو المفردات أو المعاني.

إن الواقـــع التاريخي والعقلي يشهد باستحالة الإحاطة باللغة، وبكل ما يـــرتبط بها من مفردات، وصيغ وأساليب، وأن الإحاطة بمفرداتها وتراكيبها، وبكـــل مـــا يتصـــل بها من معان ومدلولات شيء عسير، فالإنسان معرض للنسيان، وإحاطته بكل مفردات اللغة تكاد تكون أمراً مستحيلاً، من أجل ذلك كانت المعاجم لحماية اللغة والحفاظ عليها حية نامية متطورة، تحفظ مفردات اللغة القومية، وتتولى تفسيرها وتوضيحها، وتتكفل ببيان صور استعمالاتها، وتمييز الأصيل من الدخيل، والحقيقي من الزائف فيرجع إليها الإنسان ليتزود بما يحتاج إليه من ألفاظ يعبر بها عما تخطر له من أفكار وتبدو له من معان، ويخـــتار مـــنها مـــا يتلاءم مع مشاعره وأخيلته من صيغ، ويتعرف على ما صعب عليه فهمه من مدلولات، وبذلك يحيي لغته وينعشها، ويبقيها ثابتة حية مع الزمن باستخدامه المستمر السليم لها نطقاً وكتابة، وبما يبدعه وينتجه فيها

فكـــره، كما أنه يتخطى حاجز الزمن، ويعيش مع الأجيال الماضية، فيفيد من خبراتها، وما أبدعته قرائح أهلها، وأنتجته عقولهم وقرائحهم.

ومهما كانت سعة المعجم، ومعهما بلغ استيعابه لألفاظ اللغة ومعانيها، لا يمكـــن أن يحـــيط بهذا الترخم الهائل من طاقات اللغة، فيستوعب ويوضح جمـــيع المعانـــي التـــي يمكن أن تحملها أو توحي بها ألفاظها، ويتتبع جميع مدلـــولات كلماتها التي تصخب وتتوالد وتتغير مع مرور الزمن دون توقف "إن المعجـــم عادة يقنع بتسجيل المعاني العامة، مهملاً في أكثر الأحايين تلك الظـــلال المعنوية الكثيرة التي قد تفيدها الكلمة في السياقات المختلفة للكلام. هـــذه المعانـــي الأخرى إنما يتم إدراكها إدراكاً دقيقاً في الكلام المنطوق في المواقف اللغوية الحية".

الحاسب الآلي:

للحاسب الآلي في عصرنا الحاضر دور مهم وفعال في مجال البحث العلمي والإحصاء والفهرسة، وتخزين وتصنيف وتوصيل المعلومات والبيانات على اختلاف أنواعها، ولقد اتسع مجال استخدام الحاسب الآلي في عالمنا الحاضر ليصبح وسيلة للاتصال الاجتماعي لتنظيم وتنسيق كثير من شئون الحياة، وواسطة للتثقيف والتعليم وتنمية المهارات بمختلف أشكالها، ومن بينها المهارات اللغوية، هذا بالإضافة إلى كونه وسيلة للمتعة والتسلية وإزجاء وقت الفراغ. يقول أحد الباحثين "إن هناك تقنيات تربوية متنوعة وفعالة الاستخدام من التعليم عن بعد، ويتوقع أن يتطور كثيراً"، وقد تطورت فعلاً هذه الأجهزة لدرجة جعلت البعض يعتقد بأنه أصبح منافساً قوياً للكتاب، وخاصة بعد تطور مراصد المعلومات، وظهور النشرات والدوريات العلمية والثقافية الإلكترونية.

وأصبحت أجهزة الكمبيوتر تستخدم في جميع المدارس الآن، وأثرها الفعال في تعليم اللغة وتلقين الكلمات يكمن في الطريقة المنهجية التي تعد وتعرض وتستخدم بها البرامج وفي الشكل الحركي الذي تتخذه اللغة، وتفاعل الإنسان واستجابته للمثيرات والحوافز السمعية والبصرية التي تصاحب عمليات تعليم اللغة، فتجسد له اللغة في إطار مرئي جميل أو مسموع مؤثر أو هما معاً.

وعلى الرغم مما للحاسب الآلي من دور مهم في عملية التعليم عامة، ومن أثر وفاعلية كبيرة في تنمية المهارات اللغوية، وإمكانيات واسعة لاستخدامه كوسيلة لإغناء حصيلة الإنسان من مفردات لغته بصورة خاصة، فإن له سلبياته التي لا يمكن تجاهلها.

وهكذا يمكن إدراك ما للاتصال والاحتكاك الاجتماعي المرن المستمر المباشـــر وغير المباشر، من دور فعال، وأثر إيجابي مهم في إغناء الحصيلة اللغوية، وخاصة إذا توافر التوجيه السديد للفرد، وتهيأت له الفرص والأجواء المناســبة للانفتاح على المجتمع بجميع طبقاته، ومستويات لغته، وتمكن من توثـيق الارتــباط والاخــتلاط بالطــبقات الاجتماعية ذات المستوى الثقافي واللغــوي المتميــز، وأتيحت له الفرص الكافية لممارسة المحصول اللغوي المكتســب ممارســة فعلــية مستمرة، بحيث يبقى هذا المحصول مرناً فعالاً حاضراً في الذاكرة مهيأ للاستخدام.

إن العلــم قــد أصــبح هو المحور الذي تدور حوله كل مظاهر حياة البشرية، وكانت أبرز إنجازات هذا العلم قد تحققت في اكتشاف الطاقة الذرية وغــزو الفضـــاء، واســـتخدام الحاسوب، ويرى بعض العلماء أن الحاسوب وتصــميمه واســتخدامه، يتفوق على اكتشاف الطاقة الذرية، وغزو الفضاء، ذلــك لأن أواخــر القرن الماضي، قد شهدت عصر "المعلوماتية" أو انفجار المعلــومات، بحــيث أخذت كمية المعلومات في أي ميدان من ميادين البحث والعلم، في الاتساع والتنوع إلى حد يستحيل على العقل البشري أن يستوعبه، يضـــاف إلـــى ذلــك أن العلم لم يعد جهداً "فردياً" بل سادت فيه روح الفريق وعمله من ناحية ومبدأ تداخل العلوم من ناحية أخرى.

التفاعل الاجتماعي:

الإنسان بطبعه اجتماعي، ويبدأ احتكاكه بغيره من أبناء جنسه منذ المراحل الأولى من حياته، وتظل دائرة اتصاله تتسع شيئاً فشيئاً، مع مرور الزمن وتعدد أغراض الحياة وتعقدها واتساعها، وعن طريق الاتصال يكتسب لغته الأولى إذا توافر لديه الاستعداد الفطري لاكتسابها.

إن أفراد المجتمع الواحد، كما يقول ابن جني في معرض حديثه عن انتقال لغة العربي الفصيح: "بتجاورهم وتزاورهم، يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة، فبعضهم يلاحظ صاحبه، ويراعي أمر لغته، كما يراعي ذلك من مهم أمره"، وبهذه الملاحظة وهذه المراعاة يكتسب أو ينمي الفرد الناشئ منهم عند اتصاله واختلاطه بهم "سليقته اللغوية" كما يكتسب أو يطور أي عادة في مجتمعه، وتظل اللغة في تطور مادام اتصاله بأفراد مجتمعه مستمراً. ويرتبط المحصول اللغوي للفرد ارتباطاً وثيقاً بنسبة ذكائه.

إن الأجهزة والأدوات الحديثة في الاتصال، وسعت من دائرة التخاطب والتواصل يلتقي الإنسان عن طريق هذه الأجهزة بغيره، أو بفئة متميزة من أبناء قومه، ويسمع حوارهم، فيأخذ منهم على قدر إصغائه إليهم، وبقدر ما يمتلك من ذكاء، يقول مصطفى مندور: "يلحظ اللغويون عودة القيادة المؤثرة إلى اللفظ المنطوق، وذلك منذ عرف الإنسان أجهزة الاتصال الصوتي: كالتليفون والراديو وأجهزة الإعلام المماثلة. ومن جديد يقف الإنسان متوجساً أمام الطاقة التي تمتلكها تلك الأجهزة لتحويل أحاسيس الناس، بل ولتحويل مواقفهم السلبية إلى طاقات إيجابية: بانية أو مخربة"..

وإذا كان لوسائل الإعلام والاتصال عموماً من آثار سلبية في نقل ألفاظ اللغة، وتراكيبها وعباراتها بصورة خاطئة، فلا شك أن هذه الآثار يمكن أن

تكون أشد خطورة بالنسبة للراديو، لذلك كان من الضروري الاهتمام بنوع ما يقـدم للجمهـور علـى هذا الجهاز، والتشديد في انتقاء الطاقم البشري الذي يديـره، ويعد وينفذ برامجه، ويقدم مواده، والتأكيد على توصيل ما يقدم من خلاله بلغة فصيحة نقية ثرية، وسلسة عذبة ملائمة للجمهور بجميع مستوياته وطبقاته وأصنافه، ولقد دلت كثير من البحوث الميدانية التي أجريت في عدد مـن الـدول العربية، على أن التلفاز أصبح المصدر الأول للإعلام والثقافة العامـة، باضـافة إلى كونه أداة للإمتاع والترفيه، متفوقاً بذلك على وسائل الاتصال الأخرى.

إن اللغـة المسـتخدمة خـلال هذه الأجهزة تكون في الغالب مبسطة، وربما كانت عامية فقيرة ضعيفة المستوى.

ورغـم وجـود سلبيات، فإن من الممكن أن يكون التلفاز والراديو معاً أكثـر فاعلية في تنمية المهارات اللغوية لدى الناشئ، إذاً أمكن استغلال كل مـنها بوعـي وحـرص كأداتين لنشر اللغة القومية، وتنمية حصيلة الناشئة والمتلقين عامة من مفرداتها وصيغها وتراكيبها السليمة المنتقاة، ومما يساعد علـى تحقـيق ذلك- وعلى مستوى العالم العربي بصورة أخص- ملاحظة البرامج التعليمية، والأجنبية، والمسلسلات.

إن للمذيعـين، ومعدي ومقدمي البرامج في المذياع والتليفزيون دوراً كبيراً في نقل مفردات اللغة، وانتقاء الألفاظ وتقديمها عبر البرامج، وقد يكون لهـم دور سـلبي إذا لـم يتمتع هؤلاء بالكفاءات اللغوية والصوتية والإلقائية اللازمة.

الباب الرابع
وسائل التنمية اللغوية

الفصل الأول

الألعاب اللغوية

تنمية الحصيلة اللغوية في غاية الأهمية إذا أردنا أن ننهض بلغتنا العربية- نطقاً وكتابة- وقد بينت في هذا المؤلف الوسائل التي تكفل للفرد التزود من الحصيلة اللغوية، ونعرض هنا في هذا الفصل بعض الوسائل الأخرى، التي تعمل على إنعاش هذه الحصيلة، وتنشيطها وزيادة حيويتها في التعبير، بالإضافة إلى إغنائها، وخاصة لدى الذين تتوافر لديهم فرص التعليم، ويتهيأ لهم الإشراف الواعي المؤهل من لدن الأسرة، فهم الذين سيحملون لواء هذه اللغة في حياتهم الاجتماعية ويستخدمونها في حياتهم اليومية، وفي جميع الميادين والمجالات، وحيث يلتقي إنسان بإنسان، ومن أهم هذه الوسائل ما يأتي:

العلاقات اللفظية: وهي أن تأتي بمجموعة كلمات، ونوضح مرادفاتها من بين عدد من المفردات، ونختار الصح منها، ويتضح ذلك من خلال المثال الآتي:

معنى "هادئ".. (أزرق- ساكن- توتر- مائي).. نضع خطاً تحت اللفظ الصحيح/ الناقعات تساوى في المعنى: (الغبار الساطع- الشديدة القاتلة- مكان الماء)..

معنى "ينفصم".. (ينكشف- يتخلص- ينقطع).. وهكذا ندرب أنفسنا عن الكلمة ومعناها، وكذلك عن الكلمة وجمعها، مثل:

جمع "دواء".. (أدوية- دوى- دواءات) نضع خطاً تحت اللفظ الصحيح.

جمع "أريكة".. (أرائك- أرك- أريكات). نضع خطاً تحت اللفظ الصحيح.

وأيضاً التدريب على الكلمة ومفردها، مثل مفرد أذيال، ذيل، ومفرد الخلال خلة، وهكذا نمرن على المرادفات، والجمع والمفرد. ومثل ذلك يكون في التضاد مثل صغير: كبير، قصير: طويل، فهي متنوعة كالتشابه والتضاد، أو وضع الكلمة في جملة، وعلاقة السببية، وعلاقة الجزء بالكل مثل: العين :الوجه- الإصبع: اليد.

وهذه الوسيلة من أهم القدرات الخاصة التي تميز بعض الأفراد الاستعداد في النواحي اللفظية، وهي أساس التعبير اللغوي نطقاً أو كتابة، ويوجد منطقة خاصة للنطق في المخ مما يؤكد أهمية الاستعداد اللفظي، بحيث إذا أصيبت هذه المنطقة من المخ، تتأثر القدرة على التعبير اللغوي، سواء كان ذلك النطق أو التحدث.

وتعتبر جميع الوسائل التي تعتمد على لغة الكلام، أو الكتابة اللفظية مقياساً للقدرات اللفظية واللغوية.

-طلاقة الكلمات (الطلاقة اللغوية)- ويتضح فيه العامل اللفظي (أي العلاقات اللفظية في أنه يستدعي القدرة على التفكير في الكلمات بسرعة، كما في الجناس اللفظي والسجع فإذا كنا قد اخترنا المرادف الصحيح من بين الأقواس، فإننا نحس أنه مشبع بالعامل اللفظي، وليس عامل الطلاقة، فإذا طلبنا ثلاثة مرادفات بسرعة لكلمة سهلة، فهذا دليل على الطلاقة اللغوية، وليس القدرة اللفظية، مثال: اذكر أكبر عدد ممكن من كلمات ذات أربعة حروف، كل منها تبدأ بالحرف هـ.. وهذا يدل على سرعة استحضار الكلمات أو العبارات بشروط معينة، وفي زمن محدد، كما يعتبر التعبير الحر مقياساً للقدرة على الطلاقة التعبيرية.

وهناك وسيلة أخرى لتنمية الحصيلة اللغوية، كأن تعطي مجموعة من الكلمات المبعثرة بغير ترتيب، ونقوم بترتيبها ليتكون منها جملة مفيدة.. مثل:

الهدى- فالكائنات- ولد- ضياء.. فتقول ولد الهدى فالكائنات ضياء.. وكأن نقول الفرج- مفتاح - الصبر.. (الصبر مفتاح الفرج).. وهكذا.

ووسيلة أخرى تعطي فيها مجموعات من الكلمات المتشابهة في المعنى، أو في صفة، أو في علاقة معينة، ومعها كلمة واحدة مختلفة لباقي الكلمات، ويطلب تعيينها مثل: أرض- سماء- شمس- قمر.. فالكلمة "أرض" مخالفة لباقي الكلمات.

وتعتبر قدرات الذاكرة من أهم القدرات اللازمة للشخصية، وقد تبين أن قدرات الذاكرة تتوقف على الاستعدادات الخاصة بالتذكر، ومعنى ذلك أن للذاكرة لا تعتمد على الذكاء، فقد نجد شخصاً ذكياً جداً، وضعيف الذاكرة، والعكس صحيح- كما ثبت أيضاً أن الذاكرة من أكثر القدرات العقلية تعقيداً.. ويتبين ذلك من الخطوات الرئيسية التي تتوقف عملية التذكر عليها، وأهمها:

عملية المعرفة الإدراك- عملية الحفظ والوعي- عملية التذكر والاسترجاع، وكل عملية من هذه العمليات تتوقف على العمليات السابقة لها، فلابد للتذكر الجيد من أن يكون الإدراك والمعرفة على درجة كافية من الدقة وتركيز الانتباه، بحيث يمكن إدراك التفاصيل والجزئيات، ويسهل فهمها وتذكرها فيما بعد. ويتوقف الحفظ والوعي على قوة الإرادة والرغبة في الاحتفاظ بالقدرات المدة اللازمة لتذكرها وفي خلال هذه المدة لابد أن نتجنب تزاحم الخبرات اللازمة بحيث لا يحدث النسيان بسبب إحلال بعض الخبرات مكان الخبرات السابقة. ويعبر عن ذلك بعملية التعطيل الرجعي "النسيان" أي أن أحد الخبرات تعطل الاحتفاظ به بخبرة أخرى، ومما يساعد على الحفظ الجيد إعادة المذاكرة، وتثبيت عملية الإدراك والمعرفة، أي أن عملية التسميع وتصحيح الأخطاء تساعد على حل مشكلة النسيان، والمعروف أن انشغال

العقل بأمور مهمة أخرى من شأنه أن يؤدي إلى نسيان المواد المراد تذكرها مما يستوجب ضرورة تصفية الذهن من المشاغل الأخرى غير المرتبطة بالمعلومات المراد تذكرها.

وعملية التذكر نفسها تعتبر النتيجة النهائية للخطوات كلها، وبعض الأشخاص ينجحون في الخطوة الأولى والثانية، ولكن يصعب التذكر واسترجاع المعلومات المناسبة في الوقت المناسب، وهذا يتوقف على الحالة العقلية والمزاجية للشخص وقت عملية التذكر ذاتها، ولهذا تتأثر عملية الاسترجاع والتذكر في حالات التعب والانفعالات الشديدة كالخوف والقلق، ويشتد الانتباه وغير ذلك مما يلاحظ في بعض حالات التلاميذ أيام الامتحان بسبب ما يتعرضون له من إرهاق وقلق في أيام الامتحان ذاتها- وهذا ما جعل وزارة التربية والتعليم بصدد إلغاء الامتحانات وجعل التقويم مستمراً طوال العام- حتى يزيل عن الطالب التوتر والقلق الذي كان يشعر به، ويؤثر عليه. وهناك نوعان من الذاكرة بحسب الزمن الذي يمضي بين عملية الإدراك والمعرفة، وعملية التذكر، ولذلك تقسم الذاكرة إلى نوعين:

- الذاكرة المباشرة وهي تذكر الخبرات بعد إدراكها مثل: أن يمر عليها وقت طويل.

- الذاكرة المؤجلة أو غير المباشرة.. وهي تذكر الخبرات بعد مدة كافية من الزمن.

وقد تبين أن الأطفال عندهم ذاكرة قوية في الناحية المباشرة، وأن كبار السن عندهم ذاكرة مؤجلة أقوى من الذاكرة المباشرة.

وتتنوع الذاكرة أيضاً بحسب الحواس التي تعتمد عليها- فهناك الذاكرة البصرية، والذاكرة السمعية والذاكرة الحركية.. وهكذا. كما تختلف الذاكرة بحسب موضوعات التذكر حيث نجد ذاكرة لكل من اللغة ولغيرها.

والمعروف أن الذاكرة ليست قدرة معرفية عقلية فقط، بل إنـــها أيضـــاً تتوقف على عوامل أخرى كثيرة أهمـــها الحـــالات المزاجيـــة، والظـــروف الاجتماعية، والشخصية، ويمكن أن نعطي قوائم بعدد من الكلمات تقرأ مـــرة أو مرتين ثم تعيد تذكرها بعد مدة. أو نقرأ قصة أو عبارة، ونعيـــد ذكرهـــا كتابة.. وهناك الكثير مما يركز على وسيلة اللغة كتابة، ومعظمها يعتمد على ورقة وقلم، ومن يعمل في وظائف كتابية لابد أن تكون لديه القـــدرة علـــى التنظيم والتلخيص، والقدرة على الكمبيوتر ومعرفته والكتابة عليه، والمهارة في استخدامه، والدقة في النقل وإعادة الكتابة، وكذلك الصبر على العمل لمدة طويلة.

وهناك وسيلة أخرى يعتمد فيها الفرد على كتابة أكبر عدد ممكن مـــن المعاني لكل كلمة موجودة في قائمة من الكلمات الشائعة مثل: فصل، رقيـــق، نفي، رفيع، فمثلاً قد يحمل اللفظ "فصل" معنى الكلمات الآتيـــة: جـــزء مـــن كتاب، جزء من مسرحية، مجموعة من تلاميذ فرقة دراســـية، طـــرد مـــن عمل.. الخ.

وتعتمد الدرجة على عدد الكلمات المختلفة التي كتبت، وعلـــى عـــدد المعاني التي تذكرنا تلك الكلمات، وهكذا، نستطيع أن نحكم علـــى "الطلاقـــة الفكرية، وهي سرعة استدعاء الأفكار، بغض النظر عن نوعها"..

وأيضاً يسأل الفرد أن يذكر أكبر عدد ممكن من الاســـتعمالات لعـــدة أشياء لها عادة وظائف شائعة معروفة مثل:

قالب طوب: يستخدم في البناء (الاستعمال المعروف) تثبيت البـــاب- ثقالة- صنجة ميزان- التدفئة.. الخ.

وتعتمد الدرجة على عدد الاستعمالات المختلفة، فإن تنوعها يعبر عـــن "المرونة التلقائية". أما إذا ذكرت استعمالات نادرة غير معروفة لـــدى بقيـــة الأفراد، فإن ذلك يعبر عن "الأصالة"..

ويمكن أن نطلب كتابة أحسن قصة شائقة، وأكثرها إثارة حول موضوعات الساعة، والأحداث المعاصرة، وهذا المستوى من مستويات التفكير الإبداعي الذي يقوم على نظام مفصل، وتعليمات محددة، تراعي فيها "الأصالة" و"الحساسية" و"البصيرة السيكولوجية"، وغيرها من العوامل. ويعتبر "التخيل الإبداعي" سهولة تنظيم المادة في تصورات وتكوينات جمالية، أي أنه هو العملية العقلية للتعرف على أوجه التجانس بين المواد الداخلة في خبرة الفرد، ثم وضعها في إطار ما يكون تعبيراً مناسباً بطرق واضحة، ويمكن أيضاً سرد بعض الحكم والأمثال العربية، ومحاولة ذكر مثيلاتها أو أن نذكر بعض المواقف والمشاهد، ونسترجع الحكم، أو الأمثال التي تنطبق على هذه المواقف والمشاهد وأمثالهما.. ويمكن كذلك استغلال الكلمات المتقاطعة في تنمية الحصول اللغوي لدى الأفراد، كأن ينظر الفرد إلى المربعات في الشكل المرسوم أمامه، ثم يقوم بتجميع الحروف في الفراغات التي أمامه بحيث يكون كل عدد من المربعات كلمة أو معنى أو تضاد أو تشابه وهكذا.. فهي طريقة معروفة لدى الجميع.

نقف على مجموعة من الكلمات متفرقة أو موضوعة في جمل مفيدة، ونحاول الإتيان بما يماثلها أو يشابهها في المعنى، أو يفسرها من الكلمات أو العبارات عن طريق الاسترجاع أو البحث أو ترى مجموعة من الكلمات متفرقة، أو موضوعة، في جمل تامة، ثم تبحث عن ألفاظ مشابهة لها مثل فول، غول، نور، طور، ثور- جوز، لوز- فرقع ، برقع - صلصال، خلخال - مزمار، محفار - بارع ، فارع..

وكما أشرنا إلى المسابقات في الإتيان بكلمات مختلفة في أصواتها أو حروفهخا الأولى، ثم نأتي بكلمات مماثلة لها من حيث بداياتها، فإذا جئت بكلمة مثل "فول" فإنه يستوجب الإتيان بما يماثلها فتقول: فول، فروسية، فلك،

فرح، فراسة، فجوة، فلاة، فذ، فيصل، فسيلة.. وهكذا، ويقابل هذه الوسيلة، وسيلة فيها الكلمات منتهية بحرف واحد مثل: موز، لوز، جوز- ثور، طور، حور، ويمكن استخدام هذه الوسيلة نطقاً وكتابة، وقد أجريت المسابقات نطقاً على غرار هذه الكلمات المنتهية بحرف واحد وهي ما نسميه بـ "القافية" فيذكر الأول بيتاً من الشعر ينتهي بحرف معين كالعين أو الراء أو الهاء.. وينافسه الآخر في بيت من الشعر على نفس القافية، وهكذا..

وهناك وسائل يرجع فيها الفرد إلى المعاجم مثل كتاب الصحاح للجوهري، ومختار الصحاح للرازي، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، وتاج العروس للزبيدي.. وتلك تتطلب أن يكون الفرد قادراً على استخدام مثل هذه المعاجم.

وقد نلجأ إلى كلمات يتحد فيها حرف يميزها مثل: درع، صدغ، مداعبة، فرقد، زمردة، فالحرف المحدد المشترك هنا هو "الدال".

إن الفائدة من هذه الوسائل هو الربط بين أشكال الكلمات، فهو يساعد على تثبيت الكلمات في الذهن، لأن الذهن كما يتبين من قول العالم اللغوي، فندريس "يميل إلى أن يصل بين الكلمات تبعاً لشكلها الخارجي" فإذا اقترنت هذه الكلمات بمعانيها تضاعفت الفائدة، إلى جانب أن عملية الربط والمقارنة من شأنها أن توسع من آفاق الفرد الذهنية، وقدراته الخيالية، وتعوده على الربط بين الأشياء، وعلى المقارنة بينها.

شيء آخر يمكن استخدامه من مثل ذكر أسماء بعض الحيوانات والطيور وذكر بعض الأصوات المميزة لما نصادفه ونمر به ونسمعه أحياناً مثل زئير الأسد، ونباح صوت الكلب- وشقشقة العصافير، ونهيق للحمار- وتغريد للبلابل- وهدير الماء، وكذلك خرير- وصوصوة الكتاكيت- وصوت

البقر خوار – والغنم ثغاء، والإبل رغاء، والقط مواء، والأقلام صرير، والسيوف صليل، وحفيف الشجر – وفحيح للأفعى – وصهيل للفرسّ – وهديل للحمام – وصوت الطائرة أزيز – وصوت الرعد هزيم – وصوت الغراب نعيب – وللحلي وسوسة، وللقوافل حواء.. وهكذا.

ويمكن التدريب على ألفاظ تدل على السرور أو الغضب أو الفرح أو الحزن، أو ألفاظ تدل على الخضروات والفواكه أو تتعلق بالمأكولات، والأطعمة العامة، وقد نحتاج للمساعدة، فنستعين بالمعاجم الموضوعية مثل: كتاب "فقه اللغة" للثعالبي، "متخير الألفاظ" لأحمد بن فارس، "جواهر الألفاظ" لقدامة بن جعفر، كتاب "الألفاظ الكتابية" لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني، "الإفصاح في فقه اللغة" لحسن يوسف موسى، وعبد الفتاح الصعيدي، و"الرافد" لأمين ناصر الدين.

ويمكن التدريب على المعاني والمفردات والتضاد والمفرد والجمع وكل ما أشرنا إليه حول الكلمات والمفردات بأن نكتب الكلمات في عمودين متقابلين، ونصل بين ما نريد منه الربط بينه بخط يرسمه، ويمكن استخدام هذا التدريب في حالة الربط الموحد، وفي حالة الربط المزدوج، أو الربط المتعدد، فإذا كان الغرض هو الربط بين الكلمات المترادفة مثلاً، فتوضع الكلمة في مربع، ويرسم مربع آخر مماثل فارغ إلى جانب هذا المربع وتطلب اختيار الكلمة المرادفة لها من القائمة المعطاة ووضعها فيه، وهكذا يمكن استخدام هذا التدريب في الكلمات المترادفة والمتضادة والمتشابهة.

أما ملء الفراغات، بحيث تعطي مجموعة من الجمل، تتخللها فراغات تحتاج إلى أن تملأ بكلمات معينة ليستقيم المعنى، على ألا نبدأ بفراغ، وألا نكثر من الفراغات ويمكن أن نأتي بكلمات يختار منها ما يملأ به الفراغات،

أما عملية الإكمال فتكون في نهاية العبارة المسجلة وتكتب العبارة، على أن يترك جزء منها في آخرها يقوم بكتابته الفرد.

ولا نغفل أهمية إجراء المسابقات الأدبية، والثقافية التي تعنى باللغة العربية، وبتراكيبها، وبالأدب شعراً ونثراً وبقضاياه المختلفة، فهذا الاتجاه من خير الوسائل وأقومها في النهضة باللغة كتابة، ومن ثم نطقاً.. حيث تقوم المؤسسات الأدبية، والمراكز الثقافية بحفز المشتركين في هذه المسابقات وتخصيص جوائز مالية وأدبية لتشجيعهم على ارتياد هذا المجال، وليحققوا للغة مكانتها وأصالتها.

هذه الوسائل التي أشرت إلى بعض منها، قادرة على أن تحيي اللغة وتعمل على تطويرها، إذا استخدمت الاستخدام الأمثل، فهي محاولة لإثراء اللغة لدى الفرد ومن ثم لنهضة اللغة نطقاً وكتابة.

ونظراً لأهمية الحاسب الآلي ، وسهولة استخدامه فإنه يمكن الاستعانة به لتنفيذ هذه الوسائل، والنشاطات التي أشرنا إليها، وإن لم يكن كلها، فتعد هذه النشاطات على شكل برامج متعددة المستويات، ومتنوعة الأشكال، ويمكن أن تسجل على أشرطة تسجيل أو الأقراص المدمجة (سي. دي) وهي تستخدم أيضاً في برامج مختبرات اللغة، أو التليفزيون التعليمي، فهي تساعد على النطق السليم للكلمات، وزيادة فهم معانيها وهي إلى جانب أنها مصدر تعليمي وتدريبي، فإنها تبعث المتعة وتشجع على طلب المزيد وتدفع إلى البحث، وإثبات أو إبراز مهاراته، ومن مميزات هذه النشاطات أنها قد تؤدي فرادى أو جماعات، كما أنها لا تغني عن ممارسة بعض الوسائل أو الإجراءات الأخرى التي تساعد على تثبيت المفردات اللغوية في الذاكرة، وتضاعف من حضور هذه المفردات مع ما ترتبط به من مفاهيم في ذهن الفرد، تساعد على تذكره إياها عند الحاجة إليها، وهذه الاعتمادات تنصب

على إعطاء بعض النصوص الأدبية الجيدة التي تعين على النطـــق الســليم، ومنها تكتسب المفردات والألفاظ والكلمات الجديدة ويتعرف علـــى معناهـــا، ويستطيع الفرد أن يعود نفسه على تلخيص ما يقرأ من نصوص شـــعرية أو نثرية، وأن يقيم حوارات ومناقشات ومناظرات بين أفراد مجموعته أو أترابه أو أسرته المتقاربين في مستوياتهم العقلية، كما يشجع على التعليق والحديـث شفهياً على ما يقرأ، أو يسمع ممن هم أوسع منه خبرة، ومـــن خـــلال ذلـك تنهض لغتنا نطقاً وكتابة.

الكلمة واللفظ

فرق بعض الباحثين بين "الكلمة" و"اللفظ"، ويمكن الأخذ بالرأي القائل بأن "اللفظ" هو الصيغة الخارجية "للكلمة" ، فهو يقرب بين مختلف التصورات، وهناك عدد من المشكلات في التفكير وفي المخاطبة، لها صلة وارتباط بمعاني الكلمات، ولعلنا ننظر أولاً فيما نريد من الكلمات أن تؤديه لنا، فنحن نستعمل الكلمات في التفكير وفي المخاطبة على السواء، من أجل الإعراب عن أغراض مختلفة، كأن نصف مثلاً الحقيقة الماثلة خارج أنظارنا وإحساساتنا، وكذلك من أجل توجيه أعمالنا أو أعمال غيرنا توجيهات معينة، ولكي نتمكن من إبلاغ أفكارنا ورغباتنا إلى أناس آخرين، فمن الضروري بواضح الأمر أن يفهم هؤلاء الناس معاني الكلمات التي نستعملها في مخاطبتهم، والقواعد التي يجرى بموجبها نظم هذه الكلمات بعضها ببعض، وفهمهم لمعاني الكلمات التي نستعملها يكون أحياناً مضموناً بصورة كافية باستعمالنا كلمات ذات معان مفهومة لدى العموم، وقد نضطر في بعض الأحيان إلى استعمال وسيلة معينة من التفسير، لكي نضمن أن يكون كلامنا مفهوماً، حتى يفهم الناس ما نقول، ويفي بالغرض المقصود منها، ويكون هناك تطابق بين الكلمات، والأمور الواقعية التي نحاول وصفها.

وينجم الخطر من استعمال الكلمات بمعان مبهمة غير محددة، أو بمعان متقلبة وعادة استعمال الكلمات التي لها معنيان أو أكثر، وليس من السهل التمييز بينها، قد يؤدي إلى كثير من الخطأ، أو استعمال كلمة ليس لها معنى واضح، وإنما لها، في دلالتها، ميل عام في اتجاه معين، ويمكن للتخلص من هذا الغموض أن نرجع إلى تعريف الكلمات في القاموس، والرجوع إلى القاموس كعادة متأصلة عند الوقوع على كلمة جديدة علينا لمعرفة معناها بالضبط، قبل أن ندرجها في عداد مفرداتنا اللغوية عادة مفيدة لأنها تساعفنا

ضد تنامي الكلمات عندنا دون أن يكون لها معان محددة في مفرداتنا اللغوية. ومع أن استعمال تعريف القاموس للكلمات هو وقاء من استعمال كلمات لها معان متحولة ومتباينة، إلا أن ذلك لا يؤدي بالضرورة لأن تكون هذه الكلمات جزءاً نافعاً من عدتنا العقلية التي نستعين بها في التفكير السليم.

وإعطاء الشواهد وسيلة نافعة لإبقاء تفكير الإنسان على اتصال وثيق بالواقع: وثمة خطة سليمة تتبع أثناء القراءة أو الحديث أو التفكير، وهي أن نطالب أنفسنا على سبيل التحدي بأن نأتي بأمثلة معينة تكون شواهد العبارات العامة تزيدها إيضاحاً وتبياناً، وإلا فالمصطلحات المجردة التي نستعملها قد لا يكون لها معنى عندنا إلى حد أن تنقطع الصلة بسبب ذلك بين تفكيرنا والواقع. فإذا أردنا أن يكون تفكيرنا واضحاً، ونطقنا واضحاً فيما نبلغه للناس، وجب أن تكون لدينا طريقة تحدد بها معاني الكلمات التي نستعملها، فإذا استعملنا كلمة، وكان معناها غير مؤكد، جاز لسائل أن يسألنا تحديد تعريفها، والتعريف عملية يقصد بها توضيح ما نفكر فيه، وإفهام كلامنا للآخرين، ولكن استعمال التعريف واسطة للدلالة على الآراء الخاصة أو التقديرات الفردية لقيم الأشياء يؤدي إلى عكس المقصود، وإلى إفساد الغاية الصحيحة منه.

تعني اللغة العربية من خلال فروعها المختلفة، في جميع مراحل التعليم، بتزويد الطالب بالألفاظ الجديدة، وتنمية حصيلته اللغوية وثروته من المفردات، وبعض الفروع كالخط والإملاء والنحو والنصوص والبلاغة والأدب والنقد، يقوم بهذه المهمة عرضاً من خلال أساليبه المتميزة المنتقاة، ومن التوقف عند كيفية استخراج معاني الكلمات ومدلولاتها من المعجم، وكيف يستخدمه في جميع المواقف، وأصبح هذا المعجم لدى المدرسين غاية في ذاته، وهدفاً يسهرون عليه، يتناولونه بالشرح ويسألون عنه، ويدخلونه في

الاختبار، فنسمع دائماً ما معنى كذا؟ وما معنى كذا؟ وكيف تكشف في معجمك عن كذا؟ ويطغى ذلك على الدرس دون معرفة باستعمال القواميس، والاهتمام بها، ولذلك قام الطلاب بحفظ معاني المفردات واستظهارها كما يحفظون مفردات اللغة الأجنبية، ولكن من غير أن تدخل قاموسهم اللغوي، ومن دون التفاعل معها، والتمثل لها، والاهتمام بها والسيطرة عليها، وتظل بعيدة من تفكيرهم وألسنتهم، يدل على ذلك أننا لا نجد أثراً لهذه المفردات في لغة الطلاب وكتاباتهم، لأنها دخلت جافة، فتظل معزولة غريبة، وموضوعات التعبير، خير شاهد على هذه الحقيقة، فالطالب يتناول موضوعاته بصورة تقليدية رتيبة، يكاد يكون أول موضوع يبتدئ به، كآخر موضوع ينتهي إليه، وأن مادة الطالب لا تزيد على بضع مئات من الألفاظ والعبارات العادية، تتكرر في كل مناسبة، وتبدو في كل موضوع من غير تجديد، ولهذا يجب أن تُعتمد الطرائق الصحيحة التي تُدخل هذه الألفاظ في لغة الطلاب، وتفتح أمامهم المجال لاستعمالها.

إن اللفظ والمعنى في العربية صنوان، يرتبط أحدهما بالآخر، وأن العربي لم يفصل أحدهما عن صاحبه، بل اهتم بهما معاً، كما يرى ذلك أبو هلال العسكري، والعربية تصل بين اللفظ والمعنى بوشائج القربى، وتهتم بها، بل ربما كان المعنى هو الأشرف فيها، واللفظ موضوع على سمته، وشاهد بصحته، وخادم له، كما يرى ابن جنى ذلك، ويؤكد أن المعنى السامي يحتاج إلى لفظ جيد للتعبير عنه. "فقد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظ وسوء العبارة عنه"، وهو بذلك يؤكد أن العربي الذي اعتاد الفصاحة والبلاغة رسم للغته طريق قوة آدابها من الناحيتين اللفظية والمعنوية فهذب لفظها لتهذيب معناها.

ويعتقد عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" فصلاً يؤكد فيه بالشواهد بطلان كون الفصاحة في اللفظ وينسبها إلى المعنى. ويقول الجاحظ: "لكـل ضـرب مـن الحديث ضد من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسـماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح للإفصـاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضوع الاسترسال وقد قال: لكل مقام مقال"، وبهذا تحتفل الصور بما يتوارد على الخيال، ويرى بعـض اللغويين أن العرب عنيت باللفظ أكثر من المعنى، أو عنيت بموسيقى الكـلام أكثر من عنايتها بمضمونه، ويعلل لتلك العناية اللفظية بقوله: "إنا في ندائنا بهذا الرأي نعزوه إلى الظروف الاجتماعية التي نشأت فيها تلك الآداب مـن شيوع الأمية بين العرب، واعتمادهم على السمع، والمشافهة، في تلقي النصـوص وتـداولها". ودعـوى أن اللغة العربية تهتم باللفظ ولا تنظر إلى المعنى إلا قليلاً دعوى زائفة قام الدليل على نقضها، وقد أنحى الأستاذ عباس محمـود العقـاد باللائمة على المستشرقين الذين قالوا إن اللغة العربية تؤمن بـاللفظ أكثر من المعنى؛ أمثال جارسيا جوميز وعد حكمهم هذا خطأً ذريعاً، وفند مزاعمهم، فاللغة العربية لغة معنى، والصور المحسوسة فيها ترتفع إلى حـدود المعاني المجردة، فيستمع العربي إلى التشبيه فلا يشغل ذهنه بأشكاله المحسوسة إلا ريثما ينتقل منها إلى المقصود من معناه، فالقمر – عنده بهاء، والزهرة نضارة، والغصن اعتدال ورشاقة، والطود وقار وسكينة.

وقـد كـتب الدكتور عثمان أمين، فصلاً كاملاً من كتابه "فلسفة اللغة العربية" يؤكد فيه أن العربية تؤمن بالمعنى، وتختار له اللفظ المناسب، وعلى حـد تعبيـره: تؤثر الجوانية على البرانية، والتفكير الواعي يتصوره العرب صـادراً عـن هـذه الجوانـية، ألسـنا نـراهم يعبرون عنه بألفاظ القلب، واللـب والحجـا، والنهـي، أكثـر مما يعبرون عنه بألفاظ المخ و الدماغ،

والرأس. ويفرقون بين القرابة والقربى، وإحداهما لحمة الدم والأخرى رابطة الروح.

ومن المترادفات ألفاظ تبدو فيها خاصة لغوية رائعة هي إظهار ألوان المعاني وظلالها وهذه ميزة تكاد تنفرد بها اللغة العربية، وتعد من خصائصها التي تتجلى في ألفاظ مترادفة أحيانا، ويسميها الدكتور عثمان أمين "خاصية التلوين الداخلي" الذي كأنما يرسم للماهية الواحدة بالأطياف والظلال صورا ذهنية متعددة تغنينا باللفظ الواحد عن عبارات مطولة نحدد بها المعنى المقصود. وتظهر تلك الميزة في كثير من الألفاظ الدالة على الشيء منظورا إليه في مختلف درجاته، وأحواله، ومتفاوت صوره وألوانه، فالظمأ والصدى والأوام، والهيام، كلمات تدل على العطش، إلا أن كلا منها يصور درجة من درجاته فأنت تعطش إذا أحسست بحاجة إلى الماء، ثم يشتد بك العطش فتظمأ، ويشتد بك الظمأ فتصدى، ويشتد بك الصدى فتؤوم، ويشتد بك الأوام فتهيم، وإذا قلت إن فلانا عطشان فقد أردت إنه بحاجة إلى جرعات من الماء، لا يضيره أن تبطئ عليه، أما إذا قلت إنه هائم فقد علم السمع أن الظمأ برح به حتى كاد يقتل صاحبه، هذا إلى جانب أن في كلمات العربية إيجازا يجعل من الكلمة الواحدة جملة كاملة، وتلك خصيصة للعربية تفضل بها اللغات الأخرى، يقول المستشرق الفرنسي "لويس ماسنيون":

"إنه في حين أن اللغات الهندو أوروبية جعلت للتعبير عن نظام العالم الخارجي، نجد اللغة العربية وكأنها هي لغة التأمل الداخلي، ففيها- بفضل تركيبها الداخلي وطراز الخلوة الذي توحي به- قدرة خاصة على التجريد والنزوع إلى الكلية والشمول، ومن هنا كان للعرب الفضل في اكتشاف رموز الجبر، وصيغ الكيمياء، والمسلسلات الحسابية".

ومما ذكره المستشرق الفرنسي "كارادوفو" تفرقة العربية بين الكبر الداخلي والكبر الخارجي فالداخلي هو استعداد في النفس، والخارجي ناتج من

أفعال الجوارح، ولاحظ كارادوفو أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التي تحملها ألفـاظ اللغـة العـربية، لـيس من الميسور نقلها في لفظ واحد إلى اللغات الأخرى. وخلص من هذه الملاحظة إلى التنبؤيه بما تنطوي عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفي العميق "مادام أن إحداث تغيير طفيف في بنية اللفظ العربي يسمح لتلك اللغة أن تميز بين الحالة النفسية والعادة البدنية التي تطابقها"..

واللغة العربية في مقدمة اللغات جميعاً تعبيراً ودلالة وتصويراً للمجتمع الـذي لهـج- ويهلـج- بهـا، ففي ألفاظها- التي قطعت الأزمان التاريخية المتطاولة- ما يدل على أصل أصحابها وتاريخهم وعقليتهم، فالكتابة والشكل والرسـم والبلاغة والفصاحة والدلالة نفسها كلمات مستعارة من حياة العرب الأولى، فالكتابة والشكل بمعنى القيد والرسم: أثر خطو الإبل على الرمل في رسـيمها أو سـيرها على العموم، والبلاغة: من الوصول إلى غاية المسير، والفصـاحة: من اللبن الفصيح الذي زال رغوه، والدلالة للقافلة، كالدلالة في الكلام.

ويمكـن معـرفة أصالة الكلمات من التنوع والتغير الدلالي فإذا التبس علينـا أمر كلمة من الكلمات فلم نعلم في ظاهر الأمر أهي من ألفاظ العرب الأصـيلة، أم مـن الدخيل عليها، فلدينا هذا المقياس الحاضر نقيس به دلالة الكلمـة ونـردها إلى حياة العرب، وإلى المعهود من تعبيرها عن معالم تلك الحياة، فلا يطول بنا العناء في الرجوع إلى أصل معقول نطمئن إليه.. ولغة العـرب بها أصول وفروع تولدت من طرق عديدة تبعاً للحاجات الاجتماعية النامية كالاشتقاق والقياس والقلب والإبدال وغيرها، وهذا على طبيعة العرب في السخاء اللغوي كما هي عادتهم في سخائهم الطبيعي والمادي، ولذلك ترى ما تعجب له، فقد وضعوا لبعض المعاني أسماء تفوق التصور، فللسيف ألف

اســم، وللأســد خمســمائة، إلى غير ذلك مما يدل على قدرة العرب الفائقة وطواعية لغتهم لهم، علماً بأن تلك الأسماء هي أوصاف لذات المسمى.. فكل اسم فيه صفة لا نجدها في المسمى الآخر، وهذا دليل على دقة أوصافهم في أداء المعنى.

وتؤدي الصيغ في هذه اللغة دوراً مهماً في المعاني، فأنت تقول: قطع وكســر - بفــتح الطاء والسين- فيكون لهما معنى، ثم تضعف العين- الطاء والســين- للدلالــة على قوة الفعل فتقول: قطّع وكسّر، وفرق كبير بين قدر واقتدر، وكسب واكتسب.

وقــد حاولــت طائفــة من العلماء العرب والغربيين الكشف عن دلالة الألفاظ والقوانين التي تحكمها، ونشأ عن ذلك علم الدلالة، وعني بالبحث فيه من الغرب كثير، منهم بريال الفرنسي، ووتني الإنجليزي، وكروس الإيطالي، وفــونت الألماني.. وقد بذل هؤلاء وغيرهم من علماء الغرب مجهوداً كبيراً وصــلوا بعــده إلــى دراســات مجدية في هذا العلم على أساس من دراسة الأصوات واللهجات وعلم النفس اللغوي، بيد أن علماءنا العرب قد أدركوا- قبل الغربيين- مفهوم هذا العلم لما تمتعت به لغتهم من ثراء واسع، وتصرف معنوي لم تحظ به أية لغة في العالم، فهي تقف على رأس اللغات التي تمتاز بالدلالــة وأثــرها فيها، فليس من المبالغة أن يقال: "إن هذا البحث يجمع بين أغــراض التاريخ وأغراض البيان، وأغراض الدراسة النفسية والاجتماعية"، والدلالة هي قوام اللغة، ووظيفتها ومقياس كفايتها وارتقائها عند المقارنة بين اللغــات. ويثــبت تــاريخ الدراسة اللغوية أن علماء العرب تناولوا موضوع الدلالــة التــي "بلغوا من بحث مشكلاتها وقضاياها ما لم يبلغه علماء اللغات الأخــرى فــي العصور الحديثة".. وروادهم الأوائل- الذين جمعوا اللغة في رســائل خاصــة استمرت في التدرج حتى وصلت إلى صورتها المثلى في

المعجمـــات– هـــم الذين أرسوا دعائم هذا الفن في اللغة العربية، فالمعجمات تـــبحث الكلمـــات وتذكر معانيها، غير أنه يؤخذ على جامعيّها أنهم لم يبينوا تـــاريخ التغيـــرات اللغوية المعنوية وسابقها ولاحقها اللهم إلا كتاب "مقاييس اللغـــة" لأحمـــد بن فارس (ت ٣٩٥هـــ) فهو "مثل رائع للمعجات التي تعني بمعانـــي الألفـــاظ، ومحاولة الربط بينها، وإعادتها إلى أصول قليلة تفرعت عنها، وقد وفق في ذلك إلى حد بعيد"..

ومـــع هذا فالتسلسل التاريخي لا نحتاج إليه كثيراً في وضع معجماتنا الحديثة، لأن هذا التسلسل ضروري في اللغات التي يكثر فيها إهمال استعمال الكلمـــة فـــي معنى وسيرورتها في معنى آخر، ولكنه لا يبلغ هذا المبلغ من الضرورة حين توجد الكلمة مستعملة في جميع معانيها على السواء، أو على درجات متفاوتة.

وقـــد ألف أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي كتابه المسمى "الزينة في الكلمات الإسلامية والعربية" وهو مؤلف بارع في هذه الناحية، فقد عالج فيه مـــؤلفه عدداً من الألفاظ الإسلامية، ودرسها دراسة تطورية تاريخية، وتتبع معانـــيها من العصر الجاهلي حتى العصر الإسلامي. وعقد أحمد بن فارس– فـــي كـــتابه "الصـــاحبي" فصلاً بعنوان: "باب القول في حاجة أهل العلم إلى معـــرفة اللغـــة العـــربية" أوجب فيه العلم بالعربية على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا، حتى لا يخطئ في الأحكام، فلقد غلط أبو بكر بن داود أبـــا عبد الله محمد بن أدريس الشافعي في كلمات ذكر أنه أخطأ فيها طريق اللغـــة، وعقد أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـــ) في كتابه "الخصائص" فصلاً بعنوان: "باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية" طلب فيه مـــن علمـــاء الشـــريعة أن يفهموا الألفاظ العربية واستعمالاتها، وأن يعرفوا مجازاتها، لأن الجهل بها يؤدي إلى ضلال بعيد، وضرب أمثلة للجهل باللغة

الذي أوقع بعض المفسرين في الخطأ من تأويل بعض الآيـــات والأحـــاديث الشريفة.

وإن روعة اللغة العربية، ودقة الدراسة التي حظيت بها عند علمائنـــا كانت الأسس التي اعتمد عليها دارسو اللغات الإنسانية قديماً وحديثـــاً، بمـــا يؤكد أن ما يحاوله المستشرقون- وغيرهم- من نســـبة النظريـــات اللغويـــة إليهم، أمر يحتاج إلى مراجعة وتريث، فإن معظم هذه النظريات مستمدة مـــن أصول عربية سبقت ما قالوه بقرون عديدة- هذا وغيره كثير- يدل على قـــوة اللغة العربية، وصلاحيتها للتعبير عن المعاني والمصطلحات العلمية الجديـــدة في العلوم والفنون ويكشف أسرار نموها وسعتها.

جماليات اللغة:

ما أيسر على الإنسان أن يقف أمام الشيء فيقول: "الله ما أجمله"، يقول ذلك عن السماء لمعت أنجمها في الليلة الظلماء، ويقوله عن البحر اصطخب فــيه المـــاء أو سكن، وعن الشمس مشرقة وغاربه، وعن الجبل والزهر. ثم يقــوله عــن فاتــنات النساء وعن روائع الأدب، وبراعة الفن، وعن ألوف الألــوف مــن مخلــوقات الله، وعن مصنوعات الإنسان. نعم ما أيسر على الإنســان أن يقــول عــن هذه الأشياء كلها إنها "جميلة" تروعه بفتنتها، حتى إذاعــن لـــه- كما يعن للفلاسفة أحياناً- أن يسأل نفسه ماذا يكون في الشيء عندما يكون الشيء جميلاً؟ فعندئذ تراه في حيرة، ولا يدري من حقيقة الأمر شـــيئاً، إلا أن يطيل الوقوف، ويطيل التحليل، فما هو باليسير عليه ولا على الفلاســفة أنفسهم، أن يقع أو يقعوا على الصفة التي لابد من توافرها في هذه الألــوف مــن مختلف الأشياء التي يقال إنها جميلة، إذن ما دمنا نطلق هذه الكلمـــة الواحدة لتصف هذه الأشياء كلها بالجمال، فلابد أن يقابل تلك الكلمة الواحدة جانب واحد مشترك يدخل في طبيعة كل ما هو جميل، السماء البحر، والشــمس والجبل والزهر، والغادة الفاتنة، ولوحة المصور، وقصيدة الشاعر وكـــان أول ما لفت أنظار المتحاورين في هذه الحالة، هو ضرورة أن تكون هنالك حقيقة واحدة هي التي نراها متمثلة في هذه الأمثلة الكثيرة من الأشياء الجميلة، فمهما تعددت هذه الأشياء، فهي جميعها تشارك في فكرة واحدة، أو فـــي صفة واحدة، كأفراد الأسرة ينتمون جميعاً- على اختلاف أفرادهم- إلى أم واحـــدة فالفرس الجميلة، والقيثارة الجميلة، والإنسان الجميل، كلها- على بعـــد ما بينها من اختلاف- تنتمي إلى أسرة واحدة، هي أسرة "الجمال"، فهل يكـــون ذلك إلا أن تكون هذه الأشياء كلها مجسدة لفكرة واحدة، وإن اختلفت المادة المجسدة في كل حالة.

ولكن هل يكون معنى ذلك أن هذه الأشياء الجميلة كلها علـــى درجــة سواء من الجمال، ما دامت كلها تجسد فكرة بعينها؟ كلا، فنظرة سريعة تكفي للدلالة على أن الجمال فيها درجات تتفاوت بتفاوتها في قسطها من الحقيقـــة التي تجسدها، فما من شك في أن الفتاة الجميلة، والفرس الجميلة، لا تقـــاس إليها القيثارة والإناء في جمالهما، وعلى ذلك فأجمل القردة قبيـــح إذا قـــورن بالإنسان، وكذلك أجمل الأواني قبيح إذا قورن بفتاة جميلة..

ترى ما هو ذلك الشيء الذي تسهم فيه الأشياء الجميلة بأنصبة متفاوتـة أيكون مرد الأمر إلى نفاسه المادة التي هي قوام الشيء الجميـــل، وعندئـذ يكون ما صنع من ذهب "أجمل" مما صنع من نحاس أو من خشـــب أو مـــن حجر.. كلا، فنظرة سريعة أخرى يتبين أن حجر التمثال قد يكون أجمل مـــن أي شيء آخر صنع من الذهب. إن نفاسة المادة لا شأن لها بجمـــال الشـــيء المصنوع منها، إذن أيكون مرجع الجمال إلى ملاءمة المادة لما أريد منـها أن تؤديه؟ وبهذا تكون كل مادة جميلة إذا ما وضعت في موضعـــها الصحيـــح، فالذهب صحيح في موضعه الملائم فهو "جميل"، كما أن الحجر "جميل" فـــي موضعه الملائم.. وهكذا، ولو كان الأمر كذلك وكفى لكان جمال الشيء ليـس نابعا من طبيعته، بل كان جماله مرهونا بما ليس منه، كمـــا تكســـو الرجـــل بثياب جميلة. ثم تقول هاهو ذا قد أصبح رجلا جميلا ما دام محوطا بمحيـــط جميل، إن حقيقة الجمال لا تكمل إلا إذا كان الجميل جميلا مخبرا ومظـــهرا في آن معا.

نقول ذلك لندلل على كيفية استعمال اللغة، عند النطق بها أو كتابتـــها، فاستخدام الكلمة يجب أن تكون في موضعها، وأن تكون ملائمـــة لوضعـــها، وأن تكون منتقاة خالية من العيوب التي تسقطها، سليمة صحيحة، وهنا يشعر بها ناطقها أو كاتبها، ويحس بالثقة فـــي ذاتـــه، وبشـــخصيته، وأثـــره فـــي

الآخـــرين.. ويأخـــذنا هذا إلى أن نسأل أنفسنا: أيكون جمال الشيء كائنا في نفعه، وعندئذ يكون الجميل هو النافع، والنافع هو الجميل.. فالعين الجميلة لا تكون عمياء، أي أنه إذا ما عجزت العين عن أداء ما جاءت لتؤديه، استحال عليها في الوقت نفسه أن توصف بالجمال، وكذلك قل: إن الجسم الجميل، هو الجســم الخفيف الحركة، القوي القادر.. وكذلك الكلمة يجب أن تكون نافعة، رشــيقة، خفيفة، تؤدي غرضها، وتحقق ما تريد تحقيقه نطقاً وكتابة والكلمة فــي مجملها هي كل ما أشرنا إليه، حتى تشعرنا بالأداء الصحيح، والغرض المطلــوب فماذا يكون في الكلمة الجميلة، إلا أن تكون هي التي توافرت فيها الصــفات المطلوبة من صحة ودلالة، وقوة ومعنى، وحسن أدائها لوظيفتها، وتأديــتها إلــى الغايــة منها. فجمال الكلمة في نفعها، وملاءمتها لوظيفتها، وقــدرتها علــى شحن المعنى. ولكي تكون الكلمة جميلة، لابد من شرط مهم أيضــاً، وهــو أن تكــون الكلمة في استخدامها قادرة على توصيل المعلومة المراد توصيلها ونقلها إلى المتلقي، عندئذ تستحق أن توصف بالجمال.

ويجــب ألا نــتجاهل عنصـــراً مهماً في استخدام الكلمة الجميلة، وهو المــتعة الحســية التي يستمتع بها المتلقي، وكذلك صاحب الكلمة، فهو يشعر بحالـــة من الزهو في الموقف الذي يتحدث فيه، أو يكتبه، وإلا فهل يجوز أن أتجاهــل اســتمتاع الأذن "بالصـــوت" وفـــي الموســيقى، والعين باللون في التصـــوير؟ هل يجوز أن أغض النظر عن متعة "الحواس" بالشعر المنظوم، وبالقصص يروي فيفتن؟

ولننظر إلى أبي العلاء المعري، في قصيدته:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح – باك ولا ترنم شاد

كـــيف أتـــذوقها؟ .. نبدأ بالمركب الصوتي الذي تتلقاه الأذن من تلاوة القصيدة بصوت مسموع، فأنصت إلى كل نبرة صوتية، تأتينا من كل حرف

منطوق- وهنا أهمية النبر- حتى نملأ السمع بالنبأ الصوتي كله، كيف تتشابك نبراته على تأليف مركب موسيقي واحد، حتى إذا فرغنا من هذه المرحلة الحسية، كنا بمثابة من جاوز عتبة الدار لا ليقف عندها، بل ليوغل صاعداً في طبقاتها العليا، وهنا نصعد من مستوى "المعقول" أعني أن نحاول إدراك الفكرة التي جاءت هذه القصيدة لتجسدها، فكأنما هذه القصيدة أداة من أدوات كثيرة غيرها، مهمتها أن توصلنا إلى إدراك فكرة بعينها.

وأحسب أن الفكرة التي نصل إليها وراء السطح الصوتي في هذه القصيدة، هي حيادية الحقيقة الكونية الكبرى حيال عواطف الإنسان على اختلافها، فبكاء الباكي، وترنيم الشادي، كلاهما عند الحقيقة الكونية- وإن شئت فقل عند العلم الطبيعي- موجات من الصوت، تقاس أطوالها، وترسم مساراتها، وتحسب سرعاتها، وإما أن يكون بعضها متبطناً بحزن، وبعضها الآخر متبطناً بسرور، فذلك شيء يرد في حياة الإنسان الخاصة، ولا يرد في الحقيقة الكونية الموضوعية الخارجية التي في خضمها تنطمس معالم الأفراد، وإن القصة لتؤكد هذه الفكرة في صور متلاحقة، فصوت النعي، وصوت البشير، في قوله: "وشبيه صوت النعي بصوت البشير.. " فكلاهما "صوت" لا أكثر ولا أقل، وهديل الحمامة على غصنها "صوت" .. أبكت تلكم الحمامة أم غنت .. وربما سمعت أنت هذا الصوت فخلعت عليه من عندك بطانة عاطفية، فتقول: إنه بكاء، أو إنه غناء.. وأما عند الحقيقة الكونية، فلا هو هذا، ولا ذاك، ولكنه "صوت" وكفى، والصوت من ظواهر الطبيعة التي يضبط العلم قوانينها.

وصلنا إذاً إلى مستوى "فكري" بعد المستوى "الحسي" في نظرتنا لقصيدة أبي العلاء.. ثم نمضي في الطريق نفسها، فلا نترك الفكرة التي بلغناها متوحدة. معزولة كأنما هي صخرة في فلاة، بل ننظر في صلاتها

بغيرها من الأفكار، صاعدين من تخصيص إلى تعميم، حتى نبلغ آخر الشوط وهو دائماً حالة الكمال التي يسعى إليها الكون بكل ما فيه من متناقضات ظاهرة، ومن جزئيات ماضية عابرة.

إننا بهذا الصعود من المستوى الحسي أولاً، إلى المستوى العقلي ثانيا، ثم إلى المستوى الخلقي ثالثا، نكون قد اعتصرنا كل ما نستطيع أن نعتصره من جمال في الشيء الجليل الذي ننظر إليه نظرة متفوقة عميقة، نهتدي فيها بالفكرة عن حقيقة الجمال.

وإني لأعلم أنني بمحاولة التطبيق، ربما أكون قد بعدت قليلاً أو كثيراً عن الواقع، لكن شفيعي في ذلك هو أن أزيد القدرة على "تذوق الجمال في الكلمة عند المتلقي، إلى جانب الزيادة من الحصيلة اللغوية، بمفرداتها، وتراكيبها، وصيغها..

إن النص الأدبي يمثل لوناً من ألوان التعبير اللغوي الذي يهدف إلى تحقيق اتصال لغوي ناجح لا يقتصر على ذلك اللون الذي تنتقل فيه الأفكار إلى الآخرين، ولكن يتعدى ذلك إلى تحقيق اتصال فيه المتعة لكل من المرسل والمستقبل، وفيه الشعور باللذة، والإحساس بالجمال عند المتلقي. وهو لون من ألوان الأدب ينعكس على المتلقي في صياغة من التعبير الجميل، تتوفر فيها كل أسباب الصنعة والجمال الفني، ذلك أن الأدب من شعر يعرضه الأديب في صورة نابضة بحيوية الكلمة، متدفقة بالمشاعر والإحساس والوجدان، إنه ذلك الفن اللغوي الذي يعرض صورة الحياة، واقعها وفنها، جمالها وبهجتها، عواطف أفرادها ومشاعرهم في تعبير فني، يرقى فكراً، أو يعلو أسلوباً ويسمو معنى.. واللغة ليست في جانبها الوظيفي مقصورة على الجانب العقلي في التعبير، فهناك الجانب الآخر من وظيفة اللغة الذي يرتبط بتقديم الخبرة الإنسانية في صورة نقية مهذبة.

إن فهمنا لقصيدة- كالقصيدة التي مرت بنا- لا يعتمد على مجرد فهمنا للمعانـــي العاديـــة للمفردات فحسب، بل على فهمنا حياة المجتمع بأسره كما تعكســها أو توحـــي بها تلك المفردات أيضاً، وحتى أشكال الإدراك البسيطة نســبياً تظل تحت رحمة الأنماط الاجتماعية أكثر كثيراً مما نعتقد.. فنحن لا نرى أو نسمع أو نمر بالتجارب المختلفة بالطريقة التي تفعلها إلا أن العادات اللغوية لمجتمعنا تفرض علينا مسبقاً خيارات معينة لتأويل معنى ما نرى وما نسمع وما نمر به. وهذا يعني، بشكل مبسط، أننا نرى الكون من خلال لغتنا، ولا نســتطيع إلا أن نفعــل ذلك، وقد أعطي "سابير" وغيره أمثلة عديدة على ذلك، ولكن هل يعني أن فكر فرد من أفراد مجتمع ما ينحصر فيما هو متوفر فـــي لغته فقط، وأنه يظل أسيراً لها لا يستطيع من أسرها فكاكاً؟ ف "وورف" طور ما أعطاه "سابير" في نظريته بحيث تشمل لا مفردات اللغة فحسب، بل وأبنيـــتها الصـــرفية والـــنحوية أيضاً، فقواعد اللغة تحمل الفكر أيضاً، يقول "ليست أنظمة اللغة، أي قواعدها، مجرد أداة للتعبير عن الأفكار، بل هي في الواقع تكون وتشكل تلك الأفكار، وهي البرنامج والدليل لنشاط الفرد الفكري، ولتحلـــيله للانطـــباعات التـــي يحصل عليها، ولتجميع أفكاره، فليست عملية صياغة الأفكار عملية مستقلة.. بل جزء من قواعد لغوية معينة، وهذه تختلف قليلاً أو كثيراً بحسب اختلاف القواعد اللغوية.

إنـــنا نقســـم الطبـــيعة على هدى الخطوط التي ترسمها لنا لغاتنا.. إن مشـــاهدتنا الوقائـــع المحسوسة نفسها لا تقودنا إلى تكوين نفس الصورة عن الكون إلا إذا كانت خلفياتنا اللغوية واحدة"، فالفكر هو الذي يشكل اللغة، وأن كـــل لغـــة قادرة على التعبير عن الفكر بمختلف أشكاله، وأن اختلفت طريقة التعبيـــر من لغة إلى أخرى، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أمكن ترجمة الفكر، أو نقلـــه من مجتمع إلى آخر، ومن عصر إلى آخر، ويمكن القول بأن الفكر واللغـــة همـــا أهم عنصرين من عناصر الحضارة الإنسانية، وأن كلاً منهما

مرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً بحيث يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به تـــأثراً كبيراً.

ولما كانت اللغة هي أهم عنصر من عناصر الحضارة، وهي الوســـيلة الرئيسية التي يتعامل بها أفراد كل مجتمع، فإنها تتأثر بجوانب عديدة من تلك الحضارة، وتصبح سجلاً لها، وتفرض على الفرد أن يراعي عند اســـتخدامها جميع تلك الأمور الحضارية التي تكون قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تفكير كل عضو من أعضاء مجتمع معين، بل جزءاً من شـــخصيته العامـــة التـــي يتشابه بها مع غيره من الأعضاء، على الرغم من احتفاظه بشخصيته.

الفصل الثاني

أسرار اللغة

إن قضية اللغة لا تكمن في المادة التدريسية فحسب، ولا في المدرس فحسب، ولا في طريقة التدريس فحسب، ولا في الطالب فحسب، ولا في ظروف التعليم فحسب، ولا في اللغة نفسها فحسب، ولا في المحيط الاجتماعي الذي تجرى فيه العملية التعليمية فحسب، ولكنها نتيجة لوضع تترابط فيه هذه العوامل جميعها، وتتشابك تشابكاً شديداً لا يمكن فكه بالنظر في الأمور الحسية الظاهرية فقط، بل إن ذلك يستدعي سبر الأغوار، سواء أكانت أغوار اللغة نفسها، أم أغوار العقل البشري، أم النفس الإنسانية، أم العمليات العقلية والنفسية المختلفة، أم أغوار المجتمع الإنساني الذي تجرى فيه عمليتا التعلم والتعليم..

فلابد إذن أن ننظر في اللغة ذاتها، وأن نعرف شيئاً عنها، لا على أنها مادة علمية تعليمية فحسب، كما لا يجوز النظر إليها كما لو كانت واحدة من العدد الكبير من العادات التي يكتسبها الطفل والحدث في سنوات أعمارهم المختلفة.

لابد من النظر إليها على أنها شيء مختلف تماماً عن المواد العلمية التعليمية الأخرى وعلى أنها أكثر تعقيداً بمراحل من هذه المواد، فاللغة من ناحية هي الوسيلة الأساسية الأولى للتواصل والتفاهم بين البشر، وهي وعاء الفكر، والصفة الأساسية التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى، ووجه الاختلاف بين لغة البشر ووسائل التفاهم عند الحيوان ليس اختلافاً عددياً، بمعنى أن يكون عدد الأصوات التي تتكون منها، أو عدد المفردات فيها يزيد عما لدى الحيوان، بل إن الاختلاف نوعي وجذري يتعلق بكنه اللغة

ذاتها، كما يتعلق بالأنظمة التي تتألف منها، وبالطريقة التي يتفاعل كل نظام منها مع سائر الأنظمة الأخرى، وبالحصيلة النهائية التي تنتج عن ذلك التفاعل.

إن اللغات التي يكتسبها جميع الأطفال في العالم دون عناء كبير، هي ذاتها التي أمضى لغويو العالم القرون الطويلة في دراستها وتحليلها، وفي محاولة التوصل إلى آلية عملها دون نجاح كبير، وها هم يواصلون محاولاتهم، ويخرجون علينا، كل بضع سنوات بنظرية أو نظريات جديدة، يبغون من ورائها أن يسبروا أغوار ذلك النظام المعقد الذي تنطوي عليه كل لغة من لغات الأرض، ويعتقدون أنهم قد وجدوا الجواب الشافي على تساؤلاتهم، وعلى انبهارهم بهذه الظاهرة المعجزة. ثم ما يلبث غيرهم أن يكتشفوا نقاط ضعف رئيسية في تلك النظريات، فيقومون بتعديلها، أو يقوضون أركانها تقويضاً كاملاً، ويأتون بمنهج مختلف يعتقدون أنه أفضل من غيره للتعامل مع تلك الظاهرة ويمضون السنوات الطوال في تطوير ذلك المنهج الجديد إلى أن يخرجوا بنظرية جديدة تعيش ردحاً من الزمان، يطول أو يقصر، ثم ما يلبث غيرهم أن يفعلوا ما فعلوه.

لقد التفت معظم لغويي العالم، منذ بداية اللغة البشرية كما نعرفها، إلى الشكل الظاهري للغة، وبذلوا جهوداً جبارة في وصف أنظمتها المختلفة في محاولة للتوصل إلى معرفة طبيعتها. ذلك أن المرء لا يستطيع التعامل مع مادة لا يعرف العناصر التي تتألف منها، صحيح أننا نأخذ لغاتنا القومية كشيء مسلم به، ونستخدمها أفضل استخدام، إلا أن استخدامنا للغتنا القومية شيء، ومحاولة تعليمها لمن لا يعرفها شيء آخر، فإذا أردنا أن نفعل هذا فعلينا أولاً وقبل كل شيء أن نفهم مقومات هذه المادة. فهل اللغة مادة؟ هي كذلك في أحد مظاهرها، إذا تسامحنا واعتبرنا الصوت الصادر عن الجهاز

الصوتي الإنساني مادة– فاللغة في الأساس، وعند كافة شعوب الأرض، مجموعة من الأصوات، وهذه الأصوات، وإن كانت المظهر الأخير والظاهر من مظاهر اللغة، إلا أنها اللبنات الأولى التي تتكون منها الوحدات الكبرى، كالكلمات والجمل، ولقد قدم لنا اللغويون في كثير من البلدان المختلفة، بمن فيهم اللغويون العرب، خدمات جليلة جداً في حصر الأصوات التي تتألف منها اللغات المختلفة، بل إن بعضهم قدم لنا وصفاً شاملاً لكافة الأصوات التي تستخدمها جميع لغات العالم، وقاموا بدراسة تلك الأصوات دراسة تفصيلية، وخصوصاً ما يتعلق بطريقة نطقها، وبالمميزات التي تفرق بين كل منها وسائر الأصوات الأخرى. وبالقواعد التي تحكم اتصال تلك الأصوات المنفردة بعضها ببعض، وبما يمكن أن يحدث لكل منها، عندما تتم عملية الاتصال هذه، إلى آخر تلك الدراسات التي أثرت معرفتنا بطبيعة هذا النظام الصوتي أثراً كبيراً.

وبما أن الأصوات المفردة بذاتها، خلافاً لطريقة التواصل بين الحيوان، لا تعني شيئاً في لغات البشر، فقد كان لزاماً على الباحثين أن ينظروا في كيفية اتصال هذه الأصوات بعضها ببعض، بحيث تكون جذور الكلمات، ثم ما يطرأ على تلك الجذور من تغيرات ذلك أن الكلمة في لغات البشر هي أصغر وحدة أسبغ عليها المجتمع دلالة أو معنى. ولذلك فلقد كان من الطبيعي أن ينشغل علماء اللغة بمن فيهم من اختص بصناعة المعاجم، بدراسة هذه الوحدة من جوانبها المتعددة كالأصوات التي تتألف منها الجذور، والطرائق المختلفة التي يتم بها تأليف الكلمات في لغة معينة، لكي تصبح قادرة، لا على حمل الدلالات والمعاني المختلفة فحسب، بل على التصرف والتبدل أيضاً إزاء ما يواكبها من الكلمات الأخرى في الجملة، كما أننا لابد أن نعرف تلك الطرائق معرفة تامة لكي نتمكن من الاستمرار في خلق الكلمات الجديدة التي

لابد من أن نحتاج إليها مع التطورات المختلفة التي طرأت وستظل تطرأ على حياتنا في مجتمعنا الصغير، وتأثراً بما يحصل في العالم الكبير أيضاً. إن البحث في الكلمة من جوانبها المختلفة، تأخذنا إلى نهضة اللغة نطقاً وكتابة.

وبطبيعة الحال فإننا لا نتكلم بمفردات اللغة منفصلة، كما يفعل الطفل، في أول عهده باللغة، بل إن المفردات ينتظم بعضها مع بعض بموجب قواعد معينة- بعضها عام ومشترك بين لغات الأرض كافة، وبعض آخر خاص بكل لغة على انفراد- لكي تكون وحدة مهمة أخرى، هي الجملة- التي يعتبرها الكثيرون وحدة التواصل الرئيسية- وهذه القواعد هي ما نطلق عليها اسم النظام النحوي، وهي قواعد في غاية التعقيد، أفنى اللغويون أعمارهم، ومازالوا، في محاولة التوصل إلى معرفة جوانبها المختلفة.

ولابد من النظر في دلالات المفردات، ومعاني الجمل واستخداماتها المختلفة، وهذا يتطلب جهداً كبيراً، وعلى أية حال فاللغة أداة للتعامل والتواصل الفعلي بين البشر على اختلاف أنواعهم وأعمارهم وشخصياتهم وأوضاعهم الاجتماعية، لذلك فإن من الطبيعي أن تختلف وظائف اللغة بين موقف وآخر، وبين موضوع وآخر، وبين مكان وآخر، وزمان وآخر، وإنسان وآخر، كما لابد من أن تكون هناك قواعد وأصول تضبط الاستخدامات المختلفة بين أفراد المجتمع، وإلا انقلب التواصل إلى فوضى أو إلى سوء تفاهم متواصل. كما لابد أن تحكم تلك القواعد أو الضوابط ما يمكن أن يقال، وما لا يجوز أن يقال، وأن تحكم أصول التخاطب بين الأفراد المختلفين سناً، ومركزاً اجتماعياً، وعلاقة اجتماعية، وعلاقة عاطفية، إلى غير ذلك من العوامل المتوفرة في كل مجتمع، ومن الطبيعي أن تكون بعض

تلك الضوابط مشتركة بين مجتمعات مختلفة، إلا أن كثيراً منها، بل ومعظمها في حالات كثيرة، يختص بمجتمع معين، ويختلف اختلافاً كبيراً أو قليلاً من مجتمع لآخر.

اللغة في زمانها الجميل:

ولابد من العودة للغة في زمانها الجميل، حيث كانت للكلمة رَصانتــها، وللفظ معناه، وصارت العبارة سيلاً هادراً على الألسنة، تعيها العقول، وتفطن لها القلوب، وتتداول بين الناس في سهولة ويسر، حتى أصبح للكلمة معارض يؤمها جميع المحبين، وأصبحت في الأسواق تردد على الألسنة ويتبارى بها، فسوق عكاظ والمربد والمجن قد شهدوا المباريات اللغوية بين عمالقة اللغـــة بالسليقة والفطرة، ونحن نشعر بالوجل عندما نعود لهذا القديم، الجديد من كـل عصر، نشعر وكأننا أمام مارد لا نستطيع قهره، ذلك لأنه لم تكن لدينا الجرأة في اقتحامه، ولأننا توهمنا أنه صعب عسير فاستصعبناه، ولو كـــانت لدينـــا مفاتيح اللغة لاقتحمناه في يسر وسهولة، ولوجدنا فيـــه بغيتنـــا، ولأصبحنـــا نتداوله كما كان القدماء يتداولونه، بل لأمكننا أن نضيف إليه ما قد نحتاجــه- كما قال الدكتور طه حسين- عن اللغة بأنها يسر لا عسر، ونحـــن نملكـــها كما كان القدماء يملكونها، ولنا أن نضيف إليها ما لم يكـــن مســتعملاً فـــي العصر القديم.

من أجل ذلك آثرت أن أضم لهذا الكتاب نماذج من الشعر القديم، فـــي صور كلية ولوحات متكاملة، لأبين للقارئ أن هذه اللغة بجمالياتها وفنونـــها، كانت مستعملة في العصر القديم، استعمالنا للعامية اليوم، فكيـــف لا نربـــي أبناءنا على تذوق اللغة الأصيلة، والكشف عما فيها مـــن صـــور وعمـــق، وإثراء لغوي، لنا أن نستفيد منه لو أردنا ذلك، ولو هيأنا أنفسنا على تقبلـــه، واستخدامه في حياتنا اليومية.

إن اللغة كلها كامنة في هذا التراث، وليس له مغاليق سوى أننا بعدنـــا عنه ونفرنا منه، وقدمنا عليه لغات أجنبية أخرى، فساءت أحوالنا تجاه اللغـــة الأم، وأصبحت تشعر بأنها غريبة وسط أهلها، لذلك أضع بين يدي القـــارئ

هذه النماذج التي وقع اختياري عليها من دواوين شعر الشـــعراء الســـابقين، ليدرك إلى أي مدى نحن انحرفنا عن الطريق، وأضعنا شبابنا، وألقينا به فـــي مهاوى الردى، حتى شعر بأنه عيي، لا يكاد يبين، ففقد شخصيته، وتحطمـــت ذاتيته، فلنحاول أن نأخذ به إلى هذه الواحة، ونطلعه على ما فيها من كنـــوز، وما فيها من أمن وأمان، وجمال وبهاء تضفي على المرء ســـعادة غـــامرة، وكلي ثقة في أنه سيستجيب.

الفصل الثالث

اللغة في زمانها الجميل

(١)

لوحة الصحراء

عرفت الصحراء برياحها ورمالها، وأمطارها وسيولها، وعلى الرغم مما يحيط بشبه الجزيرة من محيطات وبحار، فإن الرياح الموسمية التى تدخل إلى أرض الجزيرة فى مواعيد محددة، لا تسمح إلا بالقليل من الأمطار، وعلى الرغم من الجفاف والحرارة، فإن المطر قد يسقط فى شكل سيول، ولقد أشار المؤرخون لهذه السيول، ومنهم " البلاذرى " فى كتابه " فتوح البلدان" الذى خصص فيه فصلا عن سيول مكة، وكانت هذه السيول كثيرا ما تسمح بانتشار المراعى، والكلأ فى بعض الأماكن من شبه الجزيرة.

وتتأثر النباتات بهذا الجو المناخى الصحراوى، فوجدنا الأشجار بأنواعها التى ذكرها الشعراء فى قصائدهم، إلى جانب ما تنبته هذه الصحراء من نباتات كالتمر والشعير .. وقد استعان العربى بالرحلة وراء الماء والظل، تماما كما استعان بها وراء الحبيبة، وهنا وجدنا أهمية الحيوان فى هذا المكان، وكان الجمل والحصان لهما علاقة بالعربى، فالناقة صديقته، والفرس فخره وزهوه . وسنتناول العوامل التى أثرت على الشاعر فى هذه البيئة، وما أحاط به فى هذه الطبيعة الصحراوية، حتى جعلت منه فنانا نحوم حوله، ونسجل انطباعاته التى تكون هى انطباعاتنا دون أن ندرى.

والصحراء تمثل البيئة المعيشة للجاهليين فى العصر القديم، ليس فيها هاد ولا دليل ولا سند . كل ما فيها ينزع الأمان من النفس، ويذعر ويروع، فتحدق نذر الخطر بالشاعر، وينقلب صفو العيش كدرا . فلا يجد سوى

ناقته يجد فى وصفها ليسرى بذلك عن نفسه، ولكنها تظل فى أعماقه لا تغيب عـنه، ومـن ثم لا تفارقه ودیانها ومياه أمطارها، وسواد ظلامها، ووعورة طـرقاتها ورمالها . ونرى الأعشى يكثر من وصفها على عادة الجاهليين، فيصـور الأوديـة ومـا يجرى فيها من ظلام أو سموم أو مياه أمطار، كما يصـور طـرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشتها وعزيف الجن ليلا بها، يقول فى معلقته :

وبلـدة مثل ظهر الترس موحشة   للجـن باللـيل فى حافاتها زجل
لا يتنمـى لهـا بالقـيظ يركبها   إلا الـذين لهـم فـيما أتوا مهل
جاوزتهـا بطلـيح جسـرة سرح   فـى مرفقيها إذا استعرضتها فتل

ويقول أيضا :

وفـلاة كأنهـا ظهـر تـرس   لـيس إلا الـرجيع فـيها علاق
قـد تجاوزتهـا وتحتـى مروح   عنتـريس نعابـة معـناق
عـرمس تـرجم الإكـام بأخفـا   ـف صلاب منها الحصى أفلاق
وكـأن القـتود والعجلـة الوفـ   راء لمـا تواهـق السـواق
فـوق مسـتبقل أضر به الصيـ   ـف وزر الفحـول والتـنهاق
أو فـريد طـاو تضـيف أرطا   ة علـيه مـن الغصـون رواق
أخـرجته شـهباء مسـبلة الـود   ق رجـوس قـدامها فـراق
وتعـادى عـنه الـنهار تواريـ   ـه عـراض الرمال والدرداق
وتلته غـضف طـوارد كانحـ   ـل مغاريث همهـن اللحاق

وهـو يصـور فـيها فـلاة مقفـرة، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار، ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة شديدة، كانت ترجم المرتفعات بأخفافها الصلبة، فتشق ما فيها من حصى شقا، وسرعان ما يشبهها فـى سرعتها بحمار وحشى، يقاسى من لظى الصيف وعض أمثاله وتناهقها

عليه، فهو يسرع لا يلوى . ولا يمضى طويلا مع هذا الحمار، بل يتركه إلى ثـور وحشى يشبه به ناقته، ويصوره طاويا فى ليلة من ليالى الشتاء القاسية، وقد بات مستظلا بأغصان أرطاة، والمطر يسقط من حوله والفزع يأخذه من كل جانب، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه، فخرج يتوارى فى عراض الرمال وكثبانها، ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به، وأسرع يحاول فوتها . والأعشى يشبه ناقته به وهى تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شيء يطلبها .

اللـوحة الأولـى : فـلاة مقفرة، لا نبات فيها ولا زرع، وهاد ونجاد ورمـال وصـخور لا تجـد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار، فهى هزيلة تنتظر ما يقيم أودها.

اللوحة الثانية : ناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة، وهى السفينة وسـط هـذه الصـحراء، تطأ المرتفعات باخفافها الصلبة، فتشق ما فيها من حصـى شـقا، وهى شبيهة بحمار وحشي، يقاسى من لظى الصيف وعض أمثاله وتنهاقها عليه، فهو يسرع لا يلوى.

اللـوحة الثالثة: يشبه ناقته بثور وحشي، ويصوره طاويا فى ليلة من ليالـى الشـتاء القاسية، وقد بات مستظلا بأغصان أرطاة، ومن حوله المطر يسـقط والفزع يأخذه من كل جانب، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج مـن كناسـه، فخـرج يتوارى فى عراض الرمال وكثبانها، ولم تلبث كلاب الصيد أن رأته فأسرعت تحاول اللحاق به، وأسرع يحاول الانفلات منها .

وتتكـرر مـثل هـذه اللـوحات لا عند الأعشى وحده، بل عند جميع الشعراء فى هذا العصر، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة وخاصة حين يناضل كلاب الصيد.

والمـرقش الأكبـر يصور رحلته فى الصحراء الموحشة، وقد قطعها علـى ناقته التى أضناها السرى، وتتعدد المشاهد بدلالاتها المخيفة على رهبة

الليل، فيظهر مشهد الإبل فى الظلمة، وموقد النار الذى خلفه حيث نزل للراحة، وأصوات البوم التى كثر ترددها فكانت أشبه مّا تكون بصوت النواقيس، ويصور الشاعر مشاهد الجبال وقد غطاها السراب، فرآها كأنها غارقة فى بحر ممتد فوق رمالها، وتكاد الصحراء تذكره بناقته، فيعود إلى وصفها، ويمضى فيه حتى يتداخل مشهد الصحراء مع صورة الناقة. وفى حديث الشاعر عن ناقته دلالات فنية ونفسية على حياته، وعلاقته بالناقة، فيقول:

ودوية غبراء قد طال عهدها ... تهالك فيها الورد والمرء ناعس
قطعت إلى معروفها منكراتها ... بعيهامة تنسل والليل دامس
تركت بها ليلا طويلا ومنزلا ... وموقد نار لم ترمه القوابس
وتسمع تزقاء من البوم حولنا ... كما ضربت بعد الهدوء النواقس
فيصبح ملقى رحلها حيث عرست ... من الأرض قد دبت عليه الروامس
وتصبح كالدوداة ناط زمامها ... إلى شعب فيها الجوارى العوانس
وقد ترى سمط الرجال عيالها ... له .. لها قيم سهل الخليقة آنس
ضحوك إذا ما الصحب لم يجتووا ... ولا هو مضباب على الزاد عابس
ولما أضأنا النار عند شوائنا ... عرانا عليها أطلس اللون يائس
نبذت إليه حزة من شوائنا ... حياء وما فحشى على من أجالس
فآب بها جذلان ينفض رأسه ... كما آب بالنهب الكمى المحالس
وأعرض أعلام كأن رءوسها ... رءوس جبال فى خليج تغامس
إذا علم خلفته يهدى به ... بدا علم فى الآل أغبر طامس

صحراء تهوى الريح فيها، طال عهدها بمن يقطعها، وكاد طلاب الماء يهلكون فيها ظمأ، وقد أصاب حواسهم فتور من العطش ونصب السفر ووعثاء الطريق، وشدة القيظ.

صـــورة للـــيل الصـــحراء الطويل، فيه مسافر على ناقة قوية سريعة، يجهـــده السير، فينزل للراحة، ويوقد النار علها تؤنسه من صوت البوم الذى يسمعه خلال هذا الهدوء والسكون، كأنه قرع النواقيس.

وفى الصباح لا يوجد للرحل أثرا، فالرياح الطوامس قد طمسته وعفت علـــيه، وأصـــبحت الـــناقة كأنها أرجوحة نصب حبالها الجوارى، العوانس وربطنها فى شعب، وذلك أحكم لها لفراغهن وعدم انشغال بالهن إذ يئسن من الـــزواج، ولذلك نرى الناقة كثيرة الاهتزاز غير متماسكة لشدة ما عانت فى ليلها.

وحين أضيئت النار، جذبت رائحة الشواء ذئبًا أغبر اللون يائسا فسعى يـــبغى طعامـــا، فأكرمته بقطعة من شواء، فرجع جزلان فرحا ينفض رأسه ويهزها نشوة، كما يعود الفارس بالغنيمة.

وفـــى هـــذا المكـــان جبال لها رءوس تظهر وتختفى كرءوس رجال يســـتحمون فـــى خلـــيج يغمسونها فى الماء ويظهرونها، وأخذت هذه الجبال تتراءى جيلا بعد جيل خلال المسيرة.

لوحة كاملة للصحراء بجبالها ورمالها وما فيها من طير ووحش وليل ومطـــر وبـــرق ورعـــد، يرســـمها لـــنا المرقش الأكبر فى صور متلاحقة متعددة،ليضـــم كـــل صورة إلى مثيلتها، مكونا بذلك الورة الكلية لهذا المشهد الذى يلقاه العربى صباح مساء.

أمـــا زهير بن أبى سلمى، فقد كانت طريقته فى التصوير تمثل تطورا فـــى الشـــعر الجاهلى حيث حققت الصورة الشعرية على يديه من تعقد فنى تتشـــابك فيه خيوط الصورة بعناصرها الموروثة والجديدة تشابكا يخلق منها صـــورا ذوات علاقـــات جديـــدة . وقد تلقى زهير هذا الموروث من الشعر الجـــاهلى، وأجـــاد فهمه، وأفاد من ظواهره الفنية، واستطاع أن يشخص فى

قصائده المختلفة هذه الصورة أو تلك من التطور فى أقصى ما انتهت إليه فى عصره.

وزهيــر يحقق فى شعره غاية فنية عالية عن طريق صور كلية كانت تنحل فى أشعاره إلى صور جزئية عديدة تأخذ بالمعنى من جميع جوانبه وفى أبعــاده المخــتلفة. وعــن طريق الصور الجزئية لهذه الجوانب المختلفة من المعنـــى. وهـــى صور تتجمع وتتواصل لتكون فى آخر الأمر هذه الصورة الكلية الجامعة.

وقــد أدخــل فـــى بناء الصورة وقع الزمان و المكان وإشاعة الحياة والحركة وتلوين الصورة لتبدو طبيعية، إلى جانب أن له نزعة أخلاقية تتمثل فى تأملاته فى الحياة والموت ودعوته إلى السلام، وبعده عن الحروب.

وقــد استطاع زهير أن يعرض علينا فى بيت واحد لوحة متكاملة عن البقر والظباء فى بعض مواضع البادية، يقول من معلقته:

بهـــا العــين والآرام يمشين خلفة ... وأطلاؤهـــا ينهضـــن من كل مجثم
وقفــت إلـــيها بعـــد عشرين حجة ... فلأيــا عـــرفت الـــدار بعـــد توهم
أثافـــى ســـفعا فـــى معرس مرجل ... ونـــؤيا كجـــذم الحـــوض لم يتهدم
فلمـــا عـــرفت الدار قلت لرابعها ... ألا أنعـــم صـــباحا أيها الربع واسلم

فـــبهذه الـــدار بقـــر وحشي واسعات العيون، وظباء بيض يمشين بها خالفات بعضها بعضا، وتنهض أولادها من مرابضها لترضعها أمهاتها.

والصـــورة تعتمد على التفاصيل وإعطاء كل جزء حقه ومن هنا يعتبر هـــذا الشـــاعر باحثا محققا من الشعراء المصورين الذين يعرضون المناظر بكـــل أجـــزائها وتفاصيلها، وقد ذكر الأثافى والنؤى حتى تتم الصورة بجميع دقائقها.

إن الصـــورة تظهر فى استخدام الألفاظ والعبارات التى تجعل المنظر بـــارزا ناطقا من مثل " الوحش اتخذت دارصاحبته مقاما تمشى أمامك خلفة أى فـــى جهات متضادة، وقد نهضت أطلاؤها الصغار وانتثرت هنا وهناك، فاســتعان على الحركة فى المنظر باستخدام كلمة " خلفة" ومن مثل استخدام الأفعال المضارعة للدلالة على الأحوال المنظورة فى رؤية الحوادث الماضية كأنها أمامنا كما قام بتحديد الزمان حتى يؤثر فى أنفسنا".

وهكذا نرى أن الشاعر الجاهلى أصبح يتمثل ماضيه فى الوقوف على الأطلال، وتصوير ديار الحبيبة، وما صارت إليه بعد أن رحلوا عنها، ذاكرا الأمكـــنة التى يتمثل فيها هذا الماضى، ويستعرض معالمها بأسمائها المعينة، ومـــن أبرز الأمثلة على ذلك ما قاله زهير فى أبياته من معلقته التى أشرت إليها.

إن المـــتأمل فى هذه الصورة يفترض أن حزن الشاعر على الفراق قد غشـــى على بصره، فلم يعد يرى إلا القليل، أو يفترض أن حزن هذه المرأة وفـــى هذا الموقف على الفراق لا يشجعها على أن تظهر أمام الشاعر، وإن حدث فلم تدع الشاعر يكشف إلا جزءا ضئيلا من صورتها.

وهاهو يصور ناقته بظليم فى بيتين فى وصف دقيق، يعرض فيه هيئته وسرعته وحركته وذعره الدائم، وانطلاقه المستمر فى الصحراء :

كـــأن الـــرحل مـــنها فوق صعل   مـــن الظلمـــان جؤجـــؤه هـــواء
أصـــك مصـــلم الأذنـــين أجنـــى   لـــــه بالســـــى تـــــنوم وآء

صـــورة كاملة للظليم، صغير الرأس، متقارب العرقوبين، ليس لأذنيه حجم.

صورة للسرعة والحركة فى قوله:"جؤجؤه هواء" فصدره فارغ يسرع فى العدو، فالصورة دقيقة فى وصف الجسم والنفس.

ثم ينتقل بصور ناقته في سرعتها بحمار وحش، يقول:

كـأن سـحيله فـي كل فجر ... علـى أحسـاء يمـثود دعـاء

يرسم صورة عشيرة تتبع شيخها حين يدعوها.

أمـا تأبط شرا، فيصور حياته تستمد خطوطها من الواقع الذي يعيشه صعلوك مغامر متشرد في أعماق الصحراء حتى ألفته وحوشها، يقول:

قلـيل غـرار الـنوم أكبر همه ... دم الـثأر أو يلقـى كمـيا مقـنعا
قلـيل ادخـار الـزاد إلا تعلـة ... فقـد نشـز الشرسـوف والتصـق المعـى
يبـيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ... ويصـبح لا يحمـى لهـا الدهـر مـرتعا
رأيـن فتى لا صيد وحش يهمه ... فلـو صـافحت إنسـا لصـافحنه معـا
ولكـن أربـاب المخاض يشقهم ... إذا افـتقدوه أو رأوه مشـيعا
وإنـى -ولا علـم- لأعلـم أننى ... سـألقى سـنان المـوت يرشـق اضـلعا
علـى غـرة أو جهرة من مكاثر ... أطـال نـزال المـوت حتـى تسعسـعا
وكـنت أظـن الموت في الحى ... أو أرى ألـد وأكـرى أو أمـوت مقـنعا
ولسـت أبيت الدهر إلا على فتى ... أسـلبه أو أذعـر السـرب أجمعـا
ومـن يضـرب الأبطال لابد أنه ... سـيلقى بهـم مـن مصرع الموت مصرعا

يصف نفسه بأنه قليل النوم لأنه مشغول بمعركة الثأر من مجتمعه التى وهـب حياته لها، كما وهبها له رفاقه الصعاليك، ويقول إنه ضامر نحيل لقلة ما يبقيه لنفسه من طعام لأنه يؤثر غيره من الفقراء الجياع،ومقامه حيث تقيم الوحش في أعماق الصحراء، ولا يمنعها من الرعى فهى لا تخاف منه لأنها ألفته واطمأنت إليه، وأدركت أنه لم ينزل معها في مراعيها لصيدها، فأنست إليه حتى أنها لو صافحت أحدا من البشر لصافحته.

إن أصحاب النوق العشار يؤرقهم ويسبب لهم العنـــاء والمشـــقة فـــى المحافظة على إبلهم، وهم يخشونه فى غيابه وحضوره، وأنه فزع دائم لــــهم يتتبعون أثره فرادى أو جماعات، أو يتتبعون أثره وحيدا أو مع رفاقه، وهـــو لا يعلم الغيب ولا يدرى متى يحين أجله،فســـنان المــوت مصقــول مجلــو لامع،من أجل ذلك هو مهئ دائما للعمل، وفى هذه الصورة تـــأكيد علـــى أن الموت سيلقاه على حين غرة منه وغفلة عنه، أو سيلقاه مواجهة صريحة، ولا يرى فى ذلك غرابة لأنه وهب حياته للموت، وعاش عمره فى صراع معـه، حتى انتهت حياته، وأدركه الفناء. ويرى صاحبنا أن الموت الحقيقى فى البقاء فى الحى ذليلا، لا فى الخروج للغارة والعدو المتصل حتى الموت فى ســاحة الكفاح بطلا مسلحا فى سبيل المبادئ والأهداف.إنه لا يريد أن ينتظر أجلـــه وهو قانع بحياة الذل والهوان على هامش القبيلة،وإنما يريد أن يخـــرج إليــه ليلقاه فى ساحة الكفاح المسلح من أجل الحرية والكرامة،وما مات من مـــات فى سبيل مبادئه وأهدافه، من أجل ذلك فهو لا يهدأ ولا يستقر حتـــى يحقــق أهدافه فى الغزو والغارة على الأفراد والجماعات للســلب والنــهب وقطــع الطريق، فمن يجعل حياته صراعا مستمرا لابد أن يلقى فى ساحة الصـــراع مصرعا من مصارع الموت المتعددة.

لوحة تستمد خطوطها من أعماق الصحراء، حيث الوحوش المنتشـــرة فى كل مكان، وحيث لا ماء ولا زرع ولا طعام، بل رمال وأطلال، ووهـــاد ونجاد، لاتسمع فيها صوت أنيس،ولا نداء رفيق إلا صفير الرياح، وأصــوات الحيوانات، فهى قفر موحشة، والموت لهم بالمرصاد. لكنه لا يثنيـــهم عــن أهدافهم لتستمر حياتهم.

وقد ذكر الشعراء الجاهليون، أنواع الحيوانات والطيور فى أشـــعارهم، ورمزوا بذلك إلى القوة والسرعة والاندفاعة التى أرادوا أن يصـــوروا بـــها خيولهم أو نوقهم ليدللوا بذلك على صفاتها من الواقع المعاش فـــى بيئتـــهم،

ومثل الشاعر فى تصوره لذلك كمثل الذى يحلم بموقف أو مشهد ما، فإنه لا يتجاوز الوسط الذى يحيا فيه، لأن العقل لا يختزن إلا ما يراه أو ما مر به، وللخيال فى هذا حدود لا يتجاوزها إلا بقدر، فإن رأى شيئا غريبا، فسره أيضا بما يكون قد وقع عليه بصره، ومن هنا تكون واقعية الصورة، وواقعية الرمز.

فهذا عبيد بن الأبرص، يصف العقاب فوق رابية عالية، قد بلغ اليأس منها لشدة الشيخوخة، ووفرة الآلام والأحزان، ويعرض للمطاردة بين عقاب وبين ثعلب فى لوحة جميلة، تصور الثعلب فى خوفه، والعقاب فى انقضاضها عليه فى شيخوختها، يقول:

كأنها لقوة طلوب	تيبس فى وكرها القلوب
باتت على إرم عذوبا	كأنها شيخة رقوب
فأصبحت فى غداة قر	يسقط عن ريشها الضريب
فأبصرت ثعلبا سريعا	ودونه سبسب جديب
فنفضت ريشها وولت	وهى من نهضة قريب
فاشتال وارتاع من حسيس	وفعله يفعل المذؤوب
فنهضت نحوه حثيثا	وحردت حرده تسيب
فدب من خافها دبيبا	والعين حملاقها مقلوب
فأدركته فطرحته	والصيد من تحتها مكروب
فجدلته فطرحته	فكدحت وجهه الجبوب
فعاودته فرفعته	فأرسلته وهو مكروب
يضغو ومخلبها فى دفه	لابد حيزومه منقوب
أقفر من أهله ملحوب	فالقطبيات فالذنوب
فراكس فثعيلبات	فذات فرقين فالقليب

فعـــردة فقفــا حـــبر ليـس بـها منــهم عريـب
وبدلـت منــهم وحوشـا وغـيرت حالــها الخطـوب
أرض توارثــها الخـدوب فكـل مـن حلـها محـروب
إمـا قتيـلا وإمـا هلكـا والشـيب شـين لمـن يشـيب
عينـاك دمعـهما سـروب كـأن شـأنيهما شـعيب
واهيــة أو معيـن معـن مـن هضبـة دونـها لـهوب
أو فلـج واد ببطـن أرض للمـاء مـن تحتـه قسـيب
أو جـدول فـى ظـلال نخـل للمـاء مـن تحتـها سـكوب
تصبـو وأنـى لـك التصـابى أنـى وقـد راعـك المشـيب
فـإن يكـن حـال اجمعـها فـلا بـدى ولا عجيـب
أو يـك أقفـر منـها جوهـا وعادهـا المحـل والجـدوب
فكـل ذى نعمـة مخلـوس وكـل ذى أمـل مكـذوب
وكـل ذى إبـل مـوروث وكـل ذى سـلب مسـلوب
وكـل ذى غيبـة يـؤوب وغـائب المـوت لا يـؤوب
أعـاقر مثـل ذات رحـم أو غـانم مثـل مـن يخيـب
مـن يسـأل النـاس يحرمـوه وسـائل الله لا يخيـب
بـالله يـدرك كـل خـير والقـول فـى بعضـه تلغيـب
والله ليـس لـه شـريك عـلام مـا أخفـت القلـوب
أفلح بما شئت قد يبلغ بـالضعف وقـد يخـدع الأريـب
لايعظ الناس من لا يعظ الدهـر ولا ينفـع التلبيـب
إلا سـجيات مـا القلـوب وكـم يصـيرن شـائنا حبيـب
ساعد بـأرض إن كنـت فيـها ولا تقـل إننـى غريـب
قد يوصل النـازح النـائى وقـد يقطـع ذو السـهمة القريـب

والمــرء مــا عــاش فى تكذيب ... طــول الحــياة لــه تعــذيب
يــارب مــاء وردت آجــن ... ســبيله خائــف جــديب
ريــش الحمــام علــى أرجائــه ... للقلــب مــن خــوفه وجــيب
قطعــته غــدوة مشــيحا ... وصــاحبى بــادن خــبوب
عيــرانة مــوجد فقارهــا ... كــأن حاركهــا كثــيب
أخلــف بــازلا ســديس ... لا خفــة ولا نــيوب
كأنهــا مــن حميــر غــاب ... جــون بصــفحته نــدوب
أو شــبب يرتعــى الرخامــى ... تلطــه شــمال هــبوب
فــذاك عصــر وقــد أرانــى ... تحملنــى نهــدة ســرحوب
مضــبر خلقهــا تضــبيرا ... ينشــق عــن وجههــا الســبيب
زيتــية نــائم عــروقها ... ولــين أســرها رطــيب

لقــد صــارت هــذه العقاب عجوزا شمطاء مرزأة، وقد اكتسبت هذه العجــوز بعض ملامح هذه العقاب أو صفاتها، ولعل أبرز هذه الصفات حدة البصــر والقــدرة على التأمل البعيد. وقد ضربت العرب المثل بالعقاب فى صــحة البصر، فقالت :" أبصر من عقاب "، ولهذا السبب شبه الشاعر فرسه بهــا. ولئن كانت هذه العقاب فاجعة اليوم إنها ستكون كهذه العجوز مفجوعة غدا أو غداة غد، وسيحل بها ما حل بأهل الديار ووحوشها من قبل.

كأنهــا لقــوب طلــوب ... تخــر فــى وكــرها القلــوب
باتــت علــى أرم عــذوبا ... كأنهــا شــيخة رقــوب

كمــا وصــف الجاهلــيون كــل مــا وقع عليه بصرهم من حيوانات الصــحراء، فالــذئب مثلا وصفوه طريدا شريدا جائعا يائسا بائسا، يرى فيها الشــنفرى حيوانا تتقاذفه الفلوات، وتتهاداه المفاوز ... والمرقش الأكبر يقص

علينا أنه أوقد النار لشوائه فنزل به ضيف، فرمى إليه بقطعة من الشواء، مما يصــور نفس العربى فى الكرم والسخاء. يقول المرقش الأكبر، من الأبيات التى سقناها فى تصوير مشاهد الصحراء :

ولمــا أضــأنا الــنار عند شوائنا	عــرانا عليها أطلس اللون بائس
نــبذت إلــيه حــزة مــن شوائنا	حياء وما فحشى على من أجالس
فــآض بهــا جذلان ينفض رأسه	كمــا آب بالنهب الكمى المحالس
وأعــرض أعــلام كأن رءوسها	رءوس جــبال فى حليج تغامس

أمــا الشنفرى فيقول فى حديثه عن "المراقب" وهى المرتفعات العالية التــى كانوا يصعدون إليها، ليتربصوا فوقها بضحاياهم، مصورا واديا بعيدا فى أعماق الصحراء، تلتقى عنده مجموعة من الأودية الضيقة، وتتخذه الجن والأسود مكانا تألفه وتأوى إليه :

وواد بعــيد العمق ضنك جماعة	بواطــنه للجــن والأســد مألف

وقــد عمد الشعراء أيضا إلى وصف الحية أو الثعبان والأسد، ورسموا الخوف منها، والذعر لمنظرها.

ولعلــنا نلاحــظ الألفاظ الجزلة، والكلمات القوية الضخمة فى وصفهم للحيوان، فلما تغزلوا أو وصفوا أحاسيسهم وعواطفهم رقت تعابيرهم، وخفت حدة الألفاظ.

وإذا كــنت قد أشرت إلى صور الحيوانات والطيور فى شعر الشعراء الجاهليــين وبيــنت أهميتها عندهم فى هذه البيئة، ونظرتهم إليها، فقد فسرت أيضــا ظاهــرة الــرياح والبــرق والأمطار والسيول التى يتعرض لها ابن الصحراء، وما لها من أثر فى حياته، وفى نظرته إلى ما حوله، وفلسفته فى حياته.

(٢)

لوحة السيل

لـــم يـــدع العربـــي شيئاً في الصحراء بيئته التي عاش فيها إلا وصفه بنظـــرة فاحصــــة نافـــذة وبإحساس مرهف بكل ما يحيط به وصف الحيوان والإبـــل، وافتن في ذلك افتتانا عجيباً لأنها عونهم في حياتهم، ووصفوا كذلك الخـــيل والأسد والضبع والذئب والأوعال والحمر والبقر، ومن الطير الحمائم والعقـــبان والنسور، ومن الهوام الحيات والأفاعي والصلال، ووصف النبات والســـحاب المتـــراكم والأمطار الغزيرة، والرياح والبرق والرعد والسراب، والسيل المتدفق، والسماء والنجوم، والشمس والقمر وصور الكواكب.

صور لذلك كله في إتقان وإبداع وصدق وهم في صورهم يلجأون إلى الطبـــيعة يستمدون منها ما يلح على حواسهم صباح مساء، حتى تشبعت بها مخيلـــتهم، ومـــن أجـــل ذلك لابد أن نفسر ظاهرة الرياح والبرق والأمطار والســـيول، التي يتعرض لها ابن الصحراء، وما لها من أثر في حياته، وفي نظرته إلى ما حوله، وفلسفته في حياته.

فالنابغة الذبياني يصور من بيئته حركة الرياح، وحياة الحيوان، ونزول الأمطـــار، يقـــوكل في تصوير الثور يساق ويدفع عليه مطر فيه برد جامد، وخص الشمال لشدة بردها، فيصف أن الثور بات مبيت سوء:

أســـرت عليه من الجوزاء سارية   تزجـــي الشمال عليه جامد البرد

ســـحب متراكمة من نوء الجوزاء ويصف ريحاً أخرى شمالية، وهي أشد الرياح برداً وأقلها خيراً، يقول:

وهـــبت الريح من تلقاء ذي أزل   تزجي مع الليل من صرادها صرماً

صورة للرياح مرة تاتى من الشمال، ومرة من نوء الجوزاء، أو من بين الجبال وأعاليها، فترسم لوحة للصحراء بما فيها من رمال وجبال وسحب وأمطار، وترسم صورة لحياة الحيوانات فى هذه البيئة.

ويعـــرف قـــراء الشعر الجاهلى أن هذا المعنى الذى يذكره الشاعر يتكرر فى قصة الثور الوحشى، فما يعرف بالبرد الذى تحصب الريح الشآمية الثور به، مكرور فى تصوير مثل هذا الموقف عند الشعراء.

وهـــذه صـــورة أخرى للسحاب الذى تعلوه بيوتهم، وكأنه رمز للعلو والارتفـــاع نحســـه عندما يأتى بصورة لجبل عال يصنعه النابغة الذبيانى فى إيجاز معجز، ومقدرة فائقة، حيث يقول :

وحلـــت بيوتـــى فـــى يفاع ممنع　　يخال به راعى الحمولة طـــائـــرا
تـــزل الوعول العصم عن قذفاته　　ويضـــحى ذراه بالسحاب كوافرا

صـــورة لعلو الجبل الذى تحط عليه بيوته، يخال به راعى الإبل كأنه طائر لصغر حجمه، وشموخ هذا الجبل.

وصورة للوعول العصم تزل عن قذفات الجبل لعلوه ووعورته، لأنه يفوق السحب، وينفذ منها فترى قننه مغطاة بها.

وهذه صورة تقوم على المماثلة بين حركة الريح التى تمر من ناحية إلى أخرى، وحركة الذين يصنعون من الجريد حصيرا، ويعملون على تنميقه حتى يبدو للعين فى صورة كاملة من الإتقان، يقول:

كـــأن مجـــر الرامســـات ذيولها　　علـــيه قضـــيم نمقـــته الصوانع

وأما قوله:

تعاورها الأرواح ينسفن تربها   وكل ملث ذى أهاضيب راعد

صورة للرياح المتلاحقة، وصورة للرعد المخيف، ثم صورة للمطر الدائم مما يزيد إحساسنا بتكامل الصورة لما فيها من عنصر الحركة والصوت التى نشاهدها فى البيئة الصحراوية .

وأيضا يقول النابغة:

أربت بها الأرواح حتى كأنما   تهادين أعلى تربها المناخل
وكل ملث مكفهر سحابه   كميش التوالى مرثعن الأسافل
إذا رجفت فيه رحا مرجحنة   تبعج ثجاجا غزير الحوافل

صورة للرياح "كأنما تهادين" كأن الرياح أهدى إلى بعض ترابا منخولا دقيقا، حركات تقوم بها تلك الصور، وتتم هذه الحركة فى الصورة الأخيرة التى تبرز لنا المنازل وقد تغير رسمها وذهبت معالمها وفى ذلك لون من ألوان التخييل يتمثل فى تلك الصور المتحركة .

أما البرق فيصوره لنا النابغة بقوله:

أصاح ترى برقا أريك وميضه   يضئ سناه عن ركام منضد
أجش سماكيا كأن ربابه   أراعيل شتى من قلائص أبد
تكركره ريح يجور بصوتها   وتعدله أخرى شمال فيهتدى

صورة للبرق الذى يخطف الأبصار خلال الغيوم المتراكمة، والرعد الأجش الصوت عبر سحاب كقطعان النياق .

هذه هى الصحراء برياحها الهوجاء وأمطارها الغزيرة وسيولها ورعدها المخيف وجبالها العالية.

إن الشاعر الجاهلى مولع بهذه الظواهر الكونية، فهى شغله الشاغل، ومبعثه للتأمل والتدبر والتبصر، فلا شيء يشغله عنها، ينظر إليها فيسجل خواطره، ويفتن فى وصفها حتى ليخيل إليك أنك أمام عالم من علماء الكون والطبيعة، والأرصاد الجوية وهو أيضا لا يخطئ فى القوانين العلمية التى تحكم هذه الظواهر،فيعلم أيهما يسبق الآخر، الضوء أم الصوت، وأيهما أسرع من الآخر، ومتى ستسقط الأمطار، ومدى شدتها، وكذلك متى تثار الأتربة، إلى غير ذلك مما ينسج حياتهم، وكل ذلك بفطرته وسليقته .

ولننظر إلى الحادرة وهو يقيم صلة تشبيهية بين ريق صاحبته فى صفائه وطيبه، وعذوبة الماء الذى تدره السحابة الطرية ليلا فى مستنقع دقيق الحصى يطيب فيه الماء ويصفو، يقول:

وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنا تبسمها لذيذ المكرع
بغريض سارية أدرته الصبا من ماء أسجر طيب المستنقع
ظلم البطاح له انهلال حريصة فصفا النطاف له بعيد المقلع
لعب السيول به فأصبح ماؤه غللا تقطع فى أصول الخروع

ويقدم لنا امرؤ القيس لوحة نرى فيها صورة دقيقة للمطر، وما فعله على الجبال والسفوح والأودية من تحطيم ودمار، واجتاح سيله الأشجار الضخمة، والسباع والوحوش، يقول :

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين فى حبى مكلل
يضئ سناه أو مصابيح راهب أمال السليط فى الذبال المفتل
قعدت له وصحبتى بين حامر وبين إكام بعد ما متأمل
علا قطنا بالشيم أيمن صوبه وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء من كل تلعة يكب على الأذقان دوح الكنهبل

وتـيماء لـم يترك بها جذع نخلة ولا أجمـــا إلا مشـيدا بجنـدل
كـــأن طمية المجيـمر غـدوة مـن السـيل والأغثاء فلكة مغزل
كـــأن ثبيرا فى عـرانين وبله كبـيـر أنــاس فى بجاد مزمـل
وألقـى بصـحراء الغبيط بعاعه نـزول اليمانى ذى العباب المحمل
كـأن سـباعا فـيه غرقى عشية بأرجائـه القصوى أنابيش عنصل
ألقـى ببسـيان مع الليل بركـه فأنزل منه العصم من كل مـنزل

لوحة كاملة لوميض البرق وتألقه فى سحاب متراكم ولمعانه كحركة الـيدين إذا أشـير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوؤها بما يمدها من زيـت كثيـر، ويصـف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام، والسـحاب يسح سحا حتى لتقتلع سيوله كل ما فى طريقها من أشجار عظيمة وتلك تيماء لم تترك بها نخلا ولا بيتا إلا ما شيد بالصخر، فقد اجتثت كل ما مـرت به وأتت عليه من قواعده وأصوله وهذا طمية جبل المجيمر التفت به السـيول وما تحمل من غثاء، حتى لكأنه فلكة مغزل وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغثاء يشبه شيخا ملتفا فى كساء مخطط وقد ألقى بصحراء الغبيط ثقلـه فنشر به من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التـى ينشرها التاجر اليمانى حين يعرضها للشراء وما زالت السيول تفيض حتـى علـت آجـام السباع فغرقت فى لججها وتراءت رؤوسها للعين كأنها جـذور البصـل البـرى وقد تراكم السحاب وملأ أقطار السماء حتى ليظن مبصـره أن أيمنه على قطن جبل بنى أسد، وأيسره على الستار ويذبل- مما يلى بلاد البحرين، وعم المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التى كانت مستقرة به.

هـذا هـو الغمـوض البواح المتدثر بالحزن والجزع، رؤية قاتمة سوداء، وإحساس مروع بالفناء، ومصير فاجع مأساوى يحاول الشاعر اتقاءه

والاحـــتماء مـــنه بالصـــم الصـــلاب، دعوة إلى التأمل والتفكير،إلى الرؤية المستيقنة.

"أصـــاح تـــرى برقا أريك وميضه" ولن يلبث هذا الصاحب أن يغدو أصـــحابا "قعـــدت لـــه وصـــحبتى" وارتباط البروق فى الشعر العربى القديم بالأحاسيس المختلطة والمشاعر والأشواق الغامضة أمر شائع مالوف.

إن امـــرأ القـــيس يستضـــئ بوميض البرق وقد اقترن بنار مصابيح الـــرهبان، وينتحـــى امرؤ القيس وأصحابه فيما يشبه العزلة و"العزلة" شرط جوهرى من شروط الإبداع والتأمل والتفكير – يتأملون هذا البرق، ويسرفون فـــى الـــتأويل إســـرافا يبعث الدهشة والعجب فى النفس، فقد امتد تأملهم إلى الآفـــاق البعيدة القصية، فانكشف لهم حقيقة الوجود، وما كانت لتنكشف لولا هذا البرق والعزلة والتأمل، وقد عدل الشاعر عدولا صريحا عن "الرؤية" إلى "الـــتأمل"، وإذا كانت الرؤية البصرية هى البارزة والمقصودة بفعل "الرؤية" فـــى النص، وكانت الرؤية القلبية أو العقلية التى تجتافه – من حيث هو فعل للـــرؤية – مضـــمرة، فـــإن كلمة "التأمل" تكاد تخلص خلوصا كاملا للرؤية العقلية، وقد تأمل امرؤ القيس وأصحابه، فأحسنوا التأمل إحسانا يثير العجب ويستحق التقدير.

مـــا حقـــيقة هذا البرق الذى يصرف هؤلاء الأصحاب عن شواغلهم كلها، فيعتزلون الناس، ويقعدون له يتأملونه:

قعـــدت له وصحبتى بين ضارج وبين العـــذيب بعـــد مـــا متأمـــل

هـــو الـــتأمل والتبصـــر والتدبر والتفكر، الذى ذكره الشاعر "بعد ما متأمل". قال صاحب الخزانة :" ومعناه : يا بعد ما تأملت، على التعجب".

وقال: "على أن (بعد) فيه للمدح والتعجب".

لقد انتهى بهم التأمل إلى رؤية "الوجود الإنسانى" رؤية أشمل وأعمق وأنفـذ وهـى رؤية قاتمة حالكة السواد لأن الفناء يحاصرها من كل جانب، ويكشف لها عن تفاهة "الوجود الإنسانى" وعقمه وضآلة شأنه وحقارته، وليس ثمة ما يستعصم به المرء للنجاة من "المصير الإنسانى" الفاجع، ولم يكن هذا الشـاعر الجاهلـى يقـوى على أن يسمو بروحه ليحلق فى آفاق عالم آخر مفـارق، فقـد كانت صبوة الروح جامحة، ولكن آفاقها كانت ضيقة متقاربة الأطراف

يقـول د شـكرى عياد :" فكل وصف شعرى هو نوع من التصوير فالشاعر إذا وصف رعدا أو برقا ليشعرك بالرهبة فهو يصور معنى الرهبة، وإذا وصف روضة زاهية معطارا فهو يصور معنى البهجة "

ومـا أكثـر ما يكون وميض البرق هاديا ودليلا للشاعر فى الظلمة النفسـية الحالكـة، فيسـتنير به للخروج مما هو فيه، أو لرؤيته رؤية أعمق وأنفـذ. والشعراء يهتدون بالضوء سواء أكان ضوء النجوم والكواكب أم سنا النار أو وميض البروق

ولامرئ القيس مقطوعة فى الغيث والسيل أخرى، يقول فيها :

ديمـة هطـلاء فيهـا وطـف ... طـبـق الأرض تحـرى وتدر
تخـرج الود إذا ما أشجـذت ... وتـواريه إذا مـا تشـتكـر
وتـرى الضب خفيفا مـاهرا ... ثانـيا بـرثنه مـا ينعفـر
وتـرى الشجراء فى ريقـه كـ ... رءوس قطعـت فـيها الخمـر
سـاعة ثـم انتحـاهـا وابـل ... سـاقط الأكـناف واه منهمـر
راح تمـر بـه الصبا ثـم انتحى ... فـيه شـؤبوب جـنوبا منفـجر
ثـج حتـى ضـاق عـن آذيـه ... عـرض خـيم فخفاف فـيسر
قـد غـدا يحملنـى فى أنفـه ... لاحـق الأيطلـين محـبوك ممر

فالمطـــر منهمر حتى غم الأرض من حوله، وهو يدر لها ويدنو منها بأهدابه، وحينا يقلع فتبدد الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتـــتوارى عن الأنظار، وتترع القيعان فيخرج الضب من جحره يعدو عدوا ســريعا لمـــا يـــرى مـــن كثرة المطر، وما زالت السيول تتدفق حتى تغمر الأشـــجار، بـــل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها، فتتراءى كأنها رءوس معممة قطعـــت فى ساحة حرب عنيفة، وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء، فقد ألقت السحب بوبلها وأثقالها تستدرها ريح الصبا الشـــمالية، ولم تلبث ريح الجنوب أن هبت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خيم وخفاف ويسر.

إنـــنا لا يمكـــن أن نـــدرك أبعاد المطر الحقيقية كسياق دلالى إلا إذا تصـــورنا عـــالم الجفـــاف فى تلك الصحراء المهلكة، فهو الحياة فى تجددها واســـتقرارها، ويتصـــل المطر بالأطلال لتكون معه ثنائية تكاملية، فإذا كان الطلـــل رمـــزا للعفاء والتحلل، فإن المطر يؤكد ذلك، بل يساعد عليه عندما ينهمر مدمرا محطما الديار، وما تبقى منها

ديـــار لسلمى عافيات بذى الخال   ألـــح علـــيها كـــل أســـحم هطال

وأصـــبح المطر عند امرئ القيس مرتبطا بسكب الدموع على رحيل المحـــبوبة، كمـــا كان له ارتباط بمظاهر العفاء والتحلل الطللى، يقول بصدد ذلك:

أمـــن ذكـــر نبهانية حل أهلهـــا   بجـــزع المـــلا عيـــناك تبـــتدران
فـــدمعهما ســـح وســـكب وديمة   ورش وتـــــوكاف وتـــــنهملان

غير أن المطر يكسب الطبيعة جمالا حين يكف عن السقوط، ويصفو الجو، ويرق النسيم، وتغرد العصافير مغنية بالطبيعة، صادحةً بجمالها، سكرى من حلاوة ما تحس فى هذا الجو الندى الرطيب، اسمع لقول امرئ القيس:

كأن مكاكى الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل

تشبيهات متراكمة، ولم تستوف الصورة عناصرها المتشعبة فى مثل هذا اللفظ القصير بمثل ما استوفته هنا.

وليس من شك فى أن المطر مصدر خير وبركة، فهو يجدد الحياة ويغسل ما أصاب النفوس من كرب وهم، وهو مبعث النماء والعطاء، فى الكون فيه تربو الأرض وتحيا، وفيه تزهر كل الأشياء، من أجل ذلك أصبح الحديث عن المطر علامة يقف عندها الشعراء فى هذا العصر، فى صور تتدرج فى الإبداع والخلق من واحد لآخر.

وإذا كان السحاب والمطر يرى فيهما امرؤ القيس - فيما يرى- حياة للأرض فقد استحدث فى ذلك أشياء لم تكن مألوفة من قبل، وتفسرها لنا صوره فى هذا المجال، فهو عليم بدقائق الحركة والاتجاهات، ومن ثم متى ينهمر المطر ويكون السيل.

أما الأعشى فيصور البرق يلتمع ثم يخبو كشعلة تومض وتنطفى، وهو حين يصف المطر، يقول:

بل هل ترى عارضا قد بت أرمقه كأنما البرق فى حافاته شعل
له رداف وجوز مفأم عمل منطق بسجال الماء متصل
لم يلهنى اللهو عنه حين أرقبه ولا اللذاذة فى كأس ولا شغل

فقلت للشرب فى درنا وقد ثـــملوا شيموا وكيف يشيم الشارب الثمـــل
قالوا نمار فبطن الخـــال جادهمـــا فالعسجدية فالأبـــلاء فالرجـــل
فالسفح يجـــرى فخـــنزير فبرقتـــه حتى تدافع منه الربـــو فالـــحبل
حتى تحمـــل منـــه المـــاء تكلفـــة روض القطا فكثيب الغينة السهـــل
يسقى ديارا لها قد أصبحت غرضا زورا تجانف عنها القود والـــرسل

إنها دعوة للتأمل، لحظة الدهشة حين أخذ يرمق هذا المطـــر، وهـــذا البرق الذى يكاد يخطف الأبصار، والذى يحيطه من كل جـــانب فـــى هـــذا الفضاء العريض لحظة تأمل فى هذا الكون ونواميسه وما قد يتراءى للفـــرد من أفكار حول الطبيعة والحياة، فالسماء ذات السحب المحملة بالماء، تبـــدو عن لون ينبئ بثورة فى الطبيعة، تدعو إلى النظر والتبصر والتدبر، حتـى أن المنغمس فى مجلس شراب لم تلهه لذته ولهوه عن هذه الرؤية، بـــل يدعـــو ندماءه وجلساءه الذين شاركوه شرابه حتى ثملوا إلى التطلـــع لـــهذا الســـيل المنهمر من السحب الثقال، وحولهم هذا الضوء الذى يتخذونه رمزا للهدايـــة، ثم لا يلبث أن يزول، وكيف لثمل أن يتمثل هذه الظواهر التى تحيط به، ومـــا فلسفتها وغايتها عنده، فهل يهرب من هذه التساؤلات فيعيـــش فـــى حـــاضر اللذات، بعيدا عما يشغله من قضايا الزمان والمكان، فلا حاجة للنظر فى هـــذا الماء المتدفق والمنتشر فى كل بقعة وعلى كل أرض وما يحمله من معنـــى سواء للدمار أو للتجديد والطهر والنماء للأرض والزرع والحيوان لابـــد أن تعود الحياة لطبيعتها من جديد، وما هذه الظواهر التى يراها المرء إلا دعـــوة للتأمل فى المصير الإنسانى.

ويصف الأعشى حركة المرأة الهادئة بمرور السحاب فـــى هـــدوء، يقول:

كأن مشيتها مــن بيــت جارتــها مر السحابة لا ريـــث ولا عجــل

ويقف أوس بن حجر أمام البرق الذى نفى النوم عن عينيـــه يرصـــده ويراقبه، ويصف السحاب الذى أخذ يتدفق بالمطر، ويطيــل الوقــوف أمــام المطر الذى تحولت معه الصحراء إلى رياض مخضرة وأوديـــة ممرعـــة، يقول:

إنى أرقت ولم تأرق معـــى صـــاح لمستكف بعيد النـــــوم لـــواح
قد نمت عنى وبات البرق يســهرنى كما استضاء يـــهودى بمصبـــاح
يامن لبرق أبـــيت الليــل أرقبـــه فى عارض كمضئ الصبح لمـــاح
دان مسف فويق الأرض هيدبــــه يكاد يدفعه من قــــام بـــالراح
كأن ريقه لما عــــلا شطبـــا أقراب أبلق ينفى الخيــل رمـــاح
هبت جنوب بـــأعلاه ومـــال بــه أعجاز مزن يســح المـــاء دلاح
فالتج أعلاه ثم ارتـــج أسفـلـــه وضاق ذرعا بحمل الماء منصـــاح
كأنما بين أعـــلاه وأسفــــلـــه ربط منشرة أو ضـــوء مصبـــاح
ينزع جلد الحصى أجش مبـــترك كأنه فاحص أو لاعـــب داحـــى
فمــن بنجوتـــه كمــن بمحفلـــه والمستكن كمن يمشـــى بقــرواح

ينكر أوس بن حجر على صاحبه أن ينام دونه ويتركه لأرقـــه مـــع البرق والمطر، وكأنه يعجب من صاحبه أن تفلت منه هذه المتعـــة الرائعـــة وهذا المنظر الخلاب، إنه يشبه لمعان البرق بمصباح اليـــهودى يوقـــده فـــى الليل، يقصد أحبار اليهود وهم يتعبدون بالليل فى معابدهم، وهـــى صـــورة مألوفة فى الشعر الجاهلى، وإن تكن فى أكثر مواضعه تتحدث عـــن رهبـــان النصارى، على نحو ما رأينا فى معلقة امرئ القيس "أو مصابيح راهب".

ويقف عند صورة البرق فيشبهه وهو يومض فى الســـحاب بنـــور الصباح يغمر الأفق بالضياء، وصورة البرق مكرورة أيضـــا فـــى الشـــعر

الجاهلـــى لما لها من دلالة نفسية عند الشاعر، فهو يهتدى بها فى الظلمات، وتعيـــنه علـــى تأملاته الكونية، وتسوقه إلى تجديد الحياة التى يكون مصير الإنسان فيها الفناء. إن البرق يلمع فيبدو ما أضاء من السحاب أبيض، ويظل الباقـــى أسود، فيتراءى كأنه جواد أبلق يشتد فى عدوه، فيبدو بياض أقرابه، وباقـــى جسمه أسود، أما صوت الرعد وهو الملازم للبرق فبدأ صوته يرتفع فى أعالى السحاب، وأخذت أدانيه تهتز بالماء الذى انشقت عنه، فأخذ ينهمر بغـــزارة، وقد انتشر السحاب فى السماء كأنه ملاءات منشورة، والبرق يلمع من خلاله كأنه ضوء مصباح يتوهج، وأخذ المطر يجرف كل شىء يعترض طريقه على وجه الأرض، فقد غطاها كلها، فمن كان فى مرتفع من الأرض أدركـــه المـــاء كمن كان فى منخفض منها، ومن كان فى بيته كمن كان فى العراء.

فـــإذا نظـــرنا إلى هذه اللوحة،وجدناها مليئة بالتشبيهات بأشياء مادية كلها تحس بالسمع، أو البصر، فحين يقول :

يـــامن لبـــرق أبيت الليل أرقبـــه　　فـــى عارض كمضئ الصبح لماح

تشبيه البرق بالصبح المضئ، استعمال لفظ لماح الذى يمثل خطف البرق تمثيلا حسنا كأنه استعمل هذا اللفظ ليصلح من هذا التشبيه وليحتاط فيه بعـــض الاحتـــياط فلـــيس ضـــوء الصبح لمحا، وليس ضوء البرق مستمرا إنما يريد أوس أن يصور لك قوة ضوء البرق حين يومض حتى لكأنه الصبح ولكـــنه يـــريد فـــى الـــوقت نفســـه أن يقول إن هذا الضوء لماح لا يقيم ثم يقـــول أوس هـــذا البيت الذى رأى فيه النقاد القدماء أنه أحسن ما وصف به السحاب.

دان مســـف فويق الأرض هيدبه　　يكـــاد يدفعـــه مـــن قـــام بالراح

أضـــاف الهيدب إلى السحاب وقارب بينه وبين الأرض ويقول " يكاد يدفعـــه مـــن قام بالراح " صورة تبين قوة حظ الشاعر من الماديّة التى تمثل السـحاب قريبا من الأرض حتى لتستطيع أن تمسه بيدك وتدفعه إذا قمت – وهذه صورة – للبرق الذى رآه يضئ كالصبح فى لمعانه، وصورة السحاب وهـــو يدنو من الأرض حتى ليحس الإنسان أنه يمس خطوطه بيديه أو يدفعه بكفيه ثم يقول أوس بعد ذلك :

كأنمـــا بـــين أعـــلاه وأســـفله ريــط منشــرة أو ضوء مصباح

فالسحاب قد انتشر فى السماء كأنه ملاءات منشورة، والبرق يلمع من خلالـــه كأنه ضوء مصباح يتوهج، وهما تشبيهان ماديان محسوسان بالبصر، ثم يقول :

ينـــزع جلد الحصى أجش مبترك كأنـــه فـــاحص أو لاعـــب داحى

فالمطـــر يجرف كل شيء يعترض طريقه على وجه الأرض، وفى ذلك صورة

ثـــم يقول إن البرق يلمع فيبدو ما أضاءه من السحاب أبيض، ويظل الباقى أسود فيتراءى كأنه جواد أبلق يشتد فى عدوه :

كأن ريقه لما عـــــلا شـــطبـــا أقـــراب أبلـــق ينفـــى الخيـــل رماح
كـــأن فـــيه عشارا جـــلة شـــرفا شـــعثا لهاميم قد همـــت بـــإرشاح
بحا حناجرها هدلا مشـــــافرها تزجى مرابيعها فى صحصح ضاحى
هـــبت جنوب بأعلاه ومـــــال به أعجـــاز مزن يســـح المـــاء دلاح
فأصبح الروض والقيعان ممرعة مـــن بـــين مـــرتفق منها ومنطـــاح

تشبيه بالنخيل مرة، وبالإبل مرة، وصور شعرية تحس حينا بالبصر، وحينا بالسمع، وما كان أهل البادية يتمثلون به فى تصوير السحاب، ووصف العارض على ما نجده فى كتب الأغانى، وطبقات الشعراء، والكامل.

فـأوس يصف الرعد، وما يحدثه من أصوات عالية، شبهها بأصوات نوق ضخمة، تحن إلى أولادها.

ويصـف النوق التى شبه الرعد بأصواتها بأنها تسوق صغارها نحو المرعى.

ويقول :إن الأرض اخضرت بعد المطر،وأصبحت رياضها وأوديتها ممـرعة خصبة، بعضها استقر فيه الماء وركد، وبعضها تدفق فيه وانساب، فالريح تهب من الجنوب، وتأتى بمطر غزير.

ولـنجمع خيوط هذه اللوحة من تلك الصور التى احتشدت فيها لنقف على دقائقها من أول قوله :

إنى أرقت ولم تأرق مـعى صاح   لمسـتكف بعـيد الـنوم لـواح
قد نمت عنى وبات البرق يسهدنى   كمـا استضـاء يهودى بمصباح

إنه ينكر على صاحبه أن ينام دونه ويتركه لأرقه مع البرق والمطر، وكأنـه يعجـب مـن صاحبه أن تفلت منه هذه المتعة الرائعة وهذا المنظر الخـلاب، فهـو يشبه لمعان البرق بمصباح اليهودى يوقده فى الليل، يقصد أحـبار الـيهود وهم يتعبدون فى الليل فى معابدهم. إن البرق يسبق السحاب بلمعـان شديد، ويشبهه بنور الصباح يغمر الأفق بالضياء، وحين يلمع البرق يـبدو ما أضاءه من السحاب أبيض، ويظل الباقى أسود، فيتراءى كأنه جواد أبلق يشتد فى عدوه، فيبدو بياض أقرابه، وباقى جسمه أسود، ويرتفع صوت الـرعد فـى أعالـى السـحاب، وتأخذ أدانيه تهتز بالماء الذى انشقت عنه

فينهمر فى غزارة، وينتشر السحاب فى السماء كأنه ملاءات منشورة والبرق من خلاله يلمع كأنه ضوء مصباح يتوهج، ويسقط المطر ويجرف كل شىء يعتــرض طــريقه على وجه الأرض، حتى لكأنه يغطيها كلها، فمن كان فى مــرتفع مــن الأرض أدركه الماء كمن كان فى منخفض منها، ومن كان فى بيته كمن كان فى العراء.

فــيض مــن الصور يحشدها عبيد بن الأبرص، فى وصف المطر، ولعلــه يرمــز مــن خلال ذلك إلى التقابل بين البقاء والفناء، بين الإحساس العمــيق بمأســاة الإنسان الذى تنتهى حياته بالموت، وكأنه لم يأخذ من متاع الدنيا شيئا، وبين الإحساس بالثقة والأمل فى استمرار الحياة ودوامها وتجددها كما يجدد السحاب وما يحمله من مطرخصب الحياة على الأرض، كما ينبغى أن نلتفت إلى هذه العناصر المتقابلة التى يجمع بينها الشاعر فى هذه الصور المركزة والمتراكمة: عناصر البقاء والفناء، وما يتصل بها من صور الصيد والضوء والمطر إلى غير ذلك.

حول القصيدة خلاف بين الرواة فبعضهم ينسبها إلى أوس، وبعضهم ينســبها إلــى عبــيد بن الأبرص، ولكن أسلوب القصيدة والعناية الواضحة بصياغتها، والحرص على تجويدها وإحكامها، والاهتمام بالجانب التصويرى فــيها، تجعلــنا نرجح نسبتها إلى أوس رأس مدرسة الصنعة الجاهلية، وأحد روادهــا الأوائل، ويؤكد هذا الترجيح أن الأصمعى الثقة كان يرويها لأوس، ووافقــه علــى ذلــك طائفة من رواة الكوفة، وعلى رأسهم المفضل الضبى، ورواة الكوفة أعلم رواة الشعر العربى بالشعر القديم، وكذلك فعل الجاحظ فى كتابه "لحيوان".

وقــد عرضت للقصيدتين لكل من الشاعرين، وأبرزت لوحة كل منهما عن السيل والبرق من خلال شخصية الشاعر ونظرته لما حوله وتأثره بالبيئة فخرجت

اللوحتان - إلى حد ما - بنظرة واحدة ومفهوم مشترك نحو هذه الظاهرة، وأخذ التفسـير شـكلا مغايرا من لوحة إلى أخرى، فقد عرضت للوحة أوس، وأتبعتها بلوحة عبيد بن الأبرص الذى يقول فى غناء حزين، يرد فيه لوم زوجه إياه على إتلافـه مالـه فـى شرب الخمر، واصفا مشاعره من خلال وصفه للسحاب، وما يحملـه مـن مطر ينشر الحياة والخصب فى هذه الأرض القاحلة من حوله، فى صور متراكمة يستمد مادتها من الحياة الطبيعية من حوله، فيقول:

هـبت تلوم وليست ساعة اللاحى ... هـلا انتظرت بهذا اللوم اصباحى
قاتلـهـا الله تلحانى وقد علـمت ... أن لنفسى إفسادى وإصلاحـى
كان الشـباب يـلهينا ويعجبنـا ... فما وهبـنـا ولا بعنا بأربـاح
أن أشرب الخمر أو أرزأ لها ثمنا ... فـلا محالة يوما أننى ضاحـى
ولا محالـة مـن قـبر بـمحنية ... وكفن كسراة الـثور وضـاح
يـامن لبرق أبيت اللـيل أرقبـه ... من عارض كبياض الصـبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيدبـه ... يكاد يدفعه من قـام بالـراح
ينـزع جلد الحصى أجش مبترك ... كأنه فـاحص أو لاعـب داح
كـأن ريقه لـما عـلا شطبا ... أقراب أبلق ينفى الخـيل رماح
فالـتج أعلاه ثم ارتج أسـفله ... وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
كأنمـا بـين أعـلاه وأسفلـه ... ريط منشرة أو ضوء مصـبـاح
كـان فـيه عشـاراً جلـة شرفاً ... شـعثا لهـاميم قد هـمت بإرشاح

فـإذا كان عبيد بن الأبرص قد آثر شرب الخمر واللهو واللذاذة، ولا يرضـى اللوم فى ذلك من أحد، فقد لجأ إلى ذلك لعلمه بالفناء الذى يطارده، فماذا بعد الشباب ولذة العيش، سوى القبر الذى سيضمه بمحنية وكفن كسراة الثور وضاح، وهو فى هذا الفعل يجارى أترابه من الشعراء أمثال طرفة بن

العـــبد وغير الذين سلكوا مسلك المتأملين فى نهاية المصير الإنسانى، وحقيقة الحـــياة والفناء، فخرجت نظرتهم ذات فلسفة عميقة فى تعاملهم مع ما يحيط بهـــم، فليـــنفق المرء ما وسعه الإنفاق، وليقبل على مجالس الخمر، وليمض الأيـام فى اللهو واللذاذة، غير عابئ بشىء سوى سعادة اللحظة التى يحياها، فكـــل شـــىء لا محالة منته إلى دمار وفناء ولن يبقى سوى أن تعاود الحياة حـــركتها مـــن جديـــد، ليواصل الآخرون تأملاتهم فى الكون وفى ظواهره المتمثلة فى السيول والأمطار والبروق والرعود، وما يكون لها من تأثير فى مفاهـــيمهم وأفكـــارهم ودلالاتهـــم التى يفسرون من خلالها هذا الواقع الذى يصـــطدمون به فى حياتهم، من أجل ذلك اندفعوا إلى عالم "الخمرة" يضيعون فـــيه، ويـــتوغلون فـــى مجاهله، لعله يخفف من وطأة الوعى وعناء التفكير، ويعمق إحساسهم بواقعهم المعيش.

ومـــن المـــدهش أن نجـــد نوعا من التراسل بين المطر والخمر عند الشـــعراء، فكلاهمـــا يـــرفد الآخر بالانسياب والصفاء، ومن ثم يكون التآلف بينهما صالحا لأن يعمل به برد أنياب المحبوبة، يقول امرؤ القيس:

كـــأن المـــدام وصـــوب الغمـــام وريـــح الخزامى وذوب العسل
يعـــل بـــــــه بـــرد أنيابهـــا إذا الـــنجم وســـط السمـــاء استقل

بـــل إن هـــذا التراســـل قـــد يتحول فى بعض السياقات إلى طبيعة واحـــدة، بحـــيث يصـــبح ماء المطر عنصرا من الخمر، فتمتزج به لتطيب للشاربين:

كأن التجار أصعدوا بسبيئة من الخـــص حتـــــــى أنزلوها على يسر
فلما استطابوا صب فى الصحن نصفه وشـــجت بماء غير طرق ولا كدر
بماء سحاب زل عـــن متن صخرة إلى بطـــن أخـــرى طيب ماؤها خصر

فالماء الذى مزجوا به الخمر من ماء السحاب، انحدر على صخـــرة متسربا إلى بطن صخرة أخرى لم يمس التراب ولم يلوثه شيء، فهو رائـــق صاف بارد، فهم يختارون الماء صافيا نقيا كصفاء الخمر ونقائها.

(٣)

لوحة الصيد

فـــى هذا العصر نجد عند شعرائه لوحات متكاملة فى وصف السيل والصحراء والمرأة، وهى لوحات تضج بالحركة والحياة والصراع.

ولعـــل مـــن أبرز هذه اللوحات لوحة الصيد، وهى لوحة تكاد تكون دائمة فى القصائد الجاهلية الكاملة.

إن لـــوحة الصـــيد محكومة بتقاليد فنية وموضوعية لا تخرج عليها، وخصوصـــا حـــين يكون" الثور" هو الصيد المطلوب، فالصائد مجد فى تتبع الـــثور الـــذى يظهر دائما على مسرح الأحداث وحيدا، قلقا، ضامرا، جائعا، وهـــو لذلك يطلق عليه كلابه فى موعد بزوغ الشمس فى مطاردة عنيفة تلح فـــيها هـــذه الكلاب على إيذائه ومطاردته إلحاحا غريبا، ولكن هذه المطاردة العنيفة محكومة فى كل القصائد بنهاية محتومة هى قتل الكلاب، ونجاة الثور قـــبل مغـــيب الشـــمس. وهذا الثور المنتصر ينفرد دائما بنفسه تحت شجرة الأرطاة يفكر فى مصيره، ويتطهر بماء المطر بعد تلك المعركة الشرسة التى خاضها فى مواجهة قوى الشر وهو يجلس وكأنه يصلى، والمهم أنه لم يحدث ولـــو مـــرة واحدة أن قتل الصائد ثورا فى شعر الجاهليين القصصب إلا فى شعر صدر الإسلام.

يقـــول الجـــاحظ:"من عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكـــون الكـــلاب هـــى التـــى تقـــتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحا وقـــال كـــأن ناقتى بقرة من صفاتها كذا وكذا أن تكون الكلاب هى المقتولة. لـــيس علـــى أن ذلـــك حكاية عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربما حرصت

الكـــلاب، وربما قتلتها، وأما فى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة، والكلاب هى السالمة والظافرة، وصاحبها الغانم.

فانظـــر إلـــى لـــوحة زهير، الذى يصور فيها معركة تشترك فيها بقرته الوحشية، يشبه بها ناقته فى سرعتها وعدوها، فوصفها ومضى يستكمل وصفها مستطردا إلى مطاردة الصائد لها، بينما تفترس السّباع أحد أفلاذ كبدها، يقول :

كخنســـاء سفعاء الملاطم حـــرة إلـــى جذر مدلوك الكـــعوب محـــدد
غـــدت بسلاح مثله يتقى بـــــه كأنهـــمـــا مكـــحولـــتـــان بإثمــــد
وســـامعتين تعرف العتق فيهـــما إلـــيه الســـباع فـــى كناس ومرقـــد
وناظـــرتين تطحران قذاهمــــــا فلاقـــت بـــيانا عـــند آخـــر معهـــد
طباها ضحاء أو خلاء فخالفـــت وبضـــع لحـــام فـــى إهـــاب مقـــدد
أضـــاعت فلم تغفر لها غفلاتـــها وتخشى رماة الغوث من كـــل مرصد
ومـــا عند شلو تحجل الطير حوله مســـربلـــة فـــى رازقـــــى معضد
وتـــنفض عنها غيب كل خميلـــة وقـــد قعـــدوا أنفاقهـــا كـــل مقعـــد
فجالـــت علـــى وحشـــيها وكأنها وجالـــت وإن يجشمنهـــا الشد تجهد
ولـــم تدر وشك البين حتى رأتهم وإن تـــتقدمهـــا السوابـــق تصطـــد
وثـــاروا بها من جانبيها كليهـــما رأت أنهـــــا إن تنظر النبـــل تقصد
تـــبذ الآلـــي يأتيـــنها من ورائها وتذبيـــبهـــا عـــنهـــا بأسحـــ مـــذود
فأنقـــذها من غمرة الموت أنهـــا غبـــارا كما فـــارت دواخن غـــرقد
نجـــاء مجد ليس فيـــــه وتيرة إلـــى جوشن خـــاظى الطريقة مسند
وجـــدت فألقت بيـــــنهن وبينها أطـــبة صـــرف فـــي قضـــيم مسرد
بملتـــئمات كالخذاريف قوبـــلـــت مســــــافرة مــــــزود أم فـــــرقد
كـــان دمـــاء المؤسسات بنحرها ويـــؤمن جـــأش الخائف الـــمتوحد

وصــف جســدى ونفســى، فهى خنساء، فى خدودها حمرة مشربة بسواد، وهذه صورة مفصلة لجسدها ولون خديها وعينيها، يعتمد فى إخراجها علــى الحواس، ويتخذ من الأسلوب الشعرى طريقا إلى وصف المعانى، فى أناة وحرص.

فحــين صــور ناقــته وصفها بالسرعة كعادة الشعراء، وربما كانت صورة لنفسه يصور فيها مواجهة بين ظروف الحياة.

لقد كانت الصورة وسيلة زهير إلى الوصف، فلا نجد فيها هذا الحشد مــن التشبيهات التى نراها عند امرئ القيس، وغيره من شعراء هذه المرحلة المبكــرة مــن حــياة الشعر الجاهلى، فصوره تتضامن وتتكامل لتكون هذه الصــورة الكبيــرة، ويــتم هذا البناء الشعرى المتكون من الصور الجزئية المتزاحمة فى قصائده.

وهــو يــبث الحــركة والحياة فى صوره، ويميزها باللون والمكان والزمان، وهو هنا فى هذه اللوحة يعرض للصور الآتية:

اللوحة الأولى: البقرة فى هيئتها الجسدية والنفسية لمواجهة الأحداث

إن بقــرة زهيــر خنســاء فى خدودها حمرة مشربة بسواد، وهى طليقة فى الصــحراء، وتنتقل من مكان إلى مكان مذعورة فقد خلفت ولد لها فى كناس وهــى تخشى عليه من السبع والإنسان وإنها لشاكية السلاح، كأنها معدة خلقة لكفــاح أعدائها ونزالهم، فقد برز لها قرنان وإنهما حريان بأن يقياها الخطر ويؤمــنا وحدتها وخوفها، فهما محددان أملسان كأنهما السيوف القاطعة، ومن ورائهما أذنان ترهف بهما السمع خشية العدو المفاجئ، وباصرتان سوداوان كأنهما مكحولتان تحد بهما النظر إلى ما حولها.

إن بقرة زهير خرجت تطلب الرى والرعى، وعاودها الحنين إلى ولدها فعادت.

اللوحة الثانية : ذعر البقرة لما أصاب وليدها . لقد رأت بقرة زهير بقايا ابنها من أشلاء وجلود ودماء، والطير تحجل حوله، فحزنت حزنا عميقا وفقدت أملها فى الحياة.

اللوحة الثالثة : وصف معركة الصيد عادت بقرة زهير تجرى فى الصحراء مذعورة تتلفت يمينا وشمالا، وقد أخذها الذعر، فهى تخشى رماة عشيرة الغوث الذين تعودوا أن يطاردوها بسهامهم وكلابهم من كل مرصد، ومرت على جانبها الأيمن، كأنها تظنه أكثر أمنا، وهى تتراءى فى لونها الأبيض وقوائمها المخططة كأنها الثوب الناصع الجميل، ولم تكن تدرى أن الموت لها بالمرصاد، حتى رأت الرماة وقد أرسلوا عليها كلاب الصيد، فولت مسرعة، والكلاب تلاحقها، وما زالت تعدو حتى أفلتت من غمرة الموت يسعفها قرنها الأسود وما أثارته بينها وبين الكلاب من غبار، ويصور زهير سرعة قوائمها وخفة حركتها بخذاريف الصبيان التى يديرونها دورانا سريعا بخيوط يشدونها إلى أيديهم، وقد سبقه امرؤ القيس إلى هذه الصورة فى وصف سرعة فرسه، إذ قال فيه:

درير كخذروف الوليد أمره   تقلب كفيه بخيط موصل

لكن زهيرا جدد فى هذه الصورة فجعل القوائم ملتئمات متناسقات كما جعلها متقابلات، فهى كخذاريف لا كخذروف واحد، يقابل بعضها بعضا.

وهكذا نرى صورا يلى بعضها بعضا فى قالب قصصى يروى فيه خير ما روى الجاهليون أمثال النابغة ولبيد والأعشى من وصف الصيد.

ويقدم لنا زهير صورة في وصف النبات والمطر والفرس، والصيد، تنبض بالحياة والحركة، كأنك تشاهدها، مبينا معنى التدرج الذي يلازم صوره المتحركة، إلى جانب اهتمامه بإبراز اللون، يقول:

وغيث من الوسمي حو تلاعه أجابت روابيه النجا وهواطله
هبطت بممسود النواشر سابح ممر أسيل الخد نهد مراكله
تميم فلوناه فأكمل صنعه فتم وعزته يداه وكاهله
أمين شظاه لم يخرق صفاقه بمنقبة ولم تقطع أباجله
إذا ما غدونا نبتغي الصيد مرة متى نره فإننا لا نخاتله
فبينا نبغي الصيد جاء غلامنا يدب ويخفي شخصه ويضائله
فقال: شياه راتعات بقفرة بمستأسد القريان حو مسائله
ثلاث كأقواس السراء ومسحل قد أخضر من لس الغمير جحافله
وقد خرم الطراد عنه جحاشه فلم تبق إلا نفسه وحلائله
فقال أميري ما ترى رأى ما نرى أنختله عن نفسه أم نصاوله
فبتنا عراة عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله
ونضربه حتى اطمأن قذاله ولم يطمئن قلبه وخصائله
سجمنا ما إن ينال قذاله ولا قدماه الأرض إلا أنامله
فلأيا بلأى ما حملنا وليدنا على ظهر محبوك ظماء مفاصله
فقلت له سدد وأبصر طريقه وما هو فيه عن وصاتي شاغله
وقلت تعلم أن للصيد غرة وإلا تضيعها فإنك قاتله
فتبع آثار الشيه وليدنا كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله
نظرت إليه نظرة فرأيته على كل حال مرة هو حامله
يثرن الحصا في وجهه وهو لاحق سراع تواليه صياب أوائله
فرد علينا العير من دون إلفه على رغمه يدمى نساه وفائله

اللـــوحة الأولى : مطر يتساقط على بعض المرتفعات والوهاد، وقد انتشر فيها النبات بلونه الضارب إلى السواد، وهو يقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق أشد ما يكون قوة.

اللوحة الثانية : صورة للغلام الذى ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية فـــى الصـــحراء،وقد جـــاء يدب ويخفى شخصه ويضائله، وقد رسم الشاعر حركته وسيره وأنه كان يحاول أن يخفى شخصه حتى لا تفزع الوحوش، ثم يخبـــرهم أنه رأى ثلاث أتن وحشية ضامرة كأقواس السراء، ومعها حمارها وقد أقبل على الطعام من النبات حتى اخضرت مشافره.

اللوحة الثالثة : أقبل الصباح فألجم الغلام الجواد وهو لا يكاد يطوله لضخامته وهم حريصون على طلب الصيد حتى أحس الجواد ما هم فيه وهم يجاهدونـــه ويضـــربونه، حتى اطمأن وأمكنهم منه، غير أنه لايزال يستحوذ علـــيه الفـــزع والخـــوف الشـــديد، والغلام يطارد الصيد وهو فى شغل عنه بمخاوفـــه وما ينتظره فى تلك المعركة، وتأتى مطاردة الغلام للأتن وحمارها وكيف انصب عليها كأنه شؤبوب أو صاعقة من السماء، وهى تثير الحصى فى وجه فرسه، والفرس لا ينثنى عنها حتى أفرد الحمار من دون صواحبه، وصاده الغلام، وجئ به جريحا تنزف دماؤه.

وصف لسقوط المطر على المرتفعات والوهاد وقد انتشر فيها النبات الضـــارب إلـــى السواد ويصف فرسه المحكم الخلق القوى وزهير من خلال ذلك يصور أحاسيسه وهواجسه فتكتمل صورتيه الجسدية والنفسية.

ثـــم يصف الصيد فيرسم الغلام رسما دقيقا فى حركته وسيره محاولا إخفاء نفسه حتى لا تفزع الحيوانات.

ثــلاث أتن وحشية ضامرة كأقواس السراء ومعها حمارها اخضرت مشـــافره من النبات وفى هذا دقة فى التصوير حيث يعطى من ألوان الأشياء مع التفاصيل باتوا يروضون الجواد حتى الصباح فألجمه برغم ضخامته.

يبدع زهير فى الوصف فهم مفزعون من حرصهم على طلب الصيد وقد أحس الجواد ما هم فيه وما ينتظره من الصباح الباكر فأخذه الخوف.

إن زهيــرا مصـــور بـــارع حيث صور الهيئات الجسدية والأحوال النفســية فــيما يصـــفه من تصور مطاردة الغلام للأتن وحمارها عن طريق التشبيهات ومن حيث ملؤه بالحياة والحركة الجسدية والنفسية.

يقول الأستاذ الدكتور شوقى ضيف فى الصورة عند زهير:

"لا يكتفى بالتفصيل ولا باستعمال العبارات التى تجعل الأشياء كأنها منظورة بل هو يضيف " التدبيج " أى لون موصوفاته إلى تصويره حتى يأخذ الشكل، ويستتم الوصف".

ولزهيــر بـــن أبى سلمى، براعة ودقة فن فى التصوير وهو يصف الـــوحش والصيد، وقد طور زهير صوره ونماها بحيث يعد فى الطليعة من شـــعراء الجاهلية فى وصف الوحش والصيد، فجسم الصور، ومثل الحيوان بكل ما يتصل به من منظر وهيئة وحركة.

وقـــد وصف زهير رسوم دار صاحبته،وقد ألم بها بعد عشرين عاما فلم يجد بها إلا بقر الوحش والظباء، يقول:

بها العين والآرام يمشين خلفة   وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

إنها لوحة يعرض فيها منظر البقر والظباء فى بعض مواضع البادية عرضا كاملا إذ نتمثلها وهى تمشى فى جهات متضادة، وأطلاؤها أو أولادها تنتثر هنا وهناك، ناهضة من كل موضع.

ولوحة أخرى يصور فيها ناقته بظليم وصفا دقيقا حين يعرض هيئته وســرعة حركته وذعره الدائم وانطلاقه المستمر فى الصحراء لا يلوى على شيء، يقول:

كـأن الـرحل مـنها فوق صعل مـن الظلمـان جؤجـؤه هـواء
أصـك مصـلم الأذنـين أجنـى لـــه بالســى تـــنوم وآء

اللوحة الأولى : ظليم صغير الرأس، متقارب العرقوبين، ليس لأذنيه حجـم، يرعى فى السى بعض أشجار البادية، سريع فى حركة دائبة، صدره فــارغ كأنما لا قلب له ولا عقل، فهو يعتسف الصحراء اعتساف من يسرع فى العدو هربا من شيء مخيف فلا يكاد يقف.

اللــوحة الثانية : ناقة سريعة شبيهة بحمار وحشى يسوق أتنه سوقا عنيفا ليرد بها ماء، وهو لا يغفل عنها، خاضعة لمشيئته، يدعوها فى كل فجر فتجيب، وصور هذا الدعاء تصويرا بديعا، فقال :

كـأن سـحيله فـى كـل فجـر علـى أحســاء يمـئود دعـــاء

فهو ينادى أتنه كل صباح كى يرد بها الحياض والمناهل، وهى تلبيه.

كـذا نرى أن الصورة تطورت عند زهير بن أبى سلمى بحيث يعد فى الطليعة من شعراء الجاهليين فى وصف الوحش والصيد، فبخياله الدقيق جسم الصــور، ومــثل الحــيوان بكل ما يتصل به من منظر وهيئة وحركة، فى لوحات متكاملة.

وهذا امرؤ القيس، يرى قطيعا من بقر الوحش أبيض اللون، فينـــادى بعضهم على بعض من أجل الصيد، ويستعد الفرس للمطاردة، وكان تناديــهم مرتبطا بعقد عذار الفرس، كناية عن الســرعة، وعنـف الجـواد ونشـاطه وامتناعه عن الركوب وكان المطر شديدا، ورغم ذلك كان الحصان يجـــرى فى سرعة كأنه ملتهب بنار، وحين يزجر يجرى كالمجنون المنعب أى الـذى يستعين بعنقه فى الجرى، وقد أدرك صيده دون تعب ولم يثن شأوه أى أنــه أدركها فى شوط واحد ولقد ألهب الحصان ظهر الأرض بجريه حتى تظـــن الفئران أن المطر قد نزل فيخرجن من قاع الأرض إلى ظهرها.

بعد معركة الصيد صرع بعض الثيران، ودافع بعضها الآخر عن نفسه بقرون حادة كحد المخراز، وبعد أن فرغوا من صيدهم أقـــاموا بيوتـــا مـــن أسلحتهم، وبعد إنتهاء الرحلة وضعوا ما تبقى من اللحم فى حقائب بين معتدلة وغير معتدلة، يقول :

فبينـــا نعـــاج يرتعيـــن خميلـــة ... كمشى العذارى فى الملاء المـــهدب

فكـــان تنادينـــا وعقـــد عـــذاره ... وقال صحابى قد شأونك فاطـــلب

فلأيا بـــلأى مـــا حملنـــا وليدنـــا ... على ظهر محبوك السراة محنـــب

وولى كشؤبوب العشـــى بوابـــل ... ويخرجن من جعد ثراه مـــنصـــب

فللســـاق ألـــهوب وللســـوط درة ... وللزجر منه وقـــع أهوج منعـــب

فأدرك لم يجهد ولم يثن شـــأوه ... يمر كخذروف الـــوليد المثقـــب

ترى الفأر فى مستنقع القاع لاحبـا ... على جدد الصحراء من شد ملـــهب

خفاهن من أنفاقهـــن كأنمـــا ... خفاهن ودق من عشى مـــجاب

فعادى عداء بين ثور ونـــعجـــة ... وبين شبـــوب كالقضيمة قرهـــب

وظل لثيران الصريـــم غمـــاغم ... يداعـــسها بالسمهرى المـــعلـــب

فكاب على حر الجـــبيـــن ومتـــق ... بمدرية كأنهـــا ذلـــق مـــشـــعب

وقلنا لفتيان كـــرام ألا انزلـــوا فعالوا علـــينا فضـــل ثـــوب مطنـــب
وأوتــــــاده مازيـــة وعمــــاده ردينـــــية فيهـــــا أسنـــــة قعضـــب
وأطنابه أشطان خــوص نجـائب وصهوته من أتحمـــــى مــــشرعب
كأن عيون الوحش حول خبائنــــا وأرحلنا الجزع الـــــذى لــم يثقــب
نمش بأعراف الجيـــاد أكفنــــا إذا نحن قمنا عـــن شـــواء مضـــهب
ورحنا كأنا من جؤاشـــى عشـــية نعالى النعاج بيـــن عـــدل ومحــــقب
وراح كتيس الربل ينغض رأســه أذاة به من صــائـــــك متــــحلب
كأن دمـــــاء الـــهاديات بنحـــره عصارة حـــــناء بشـــيب مخضـــب
وأنت إذا استدبرته سد فرجــــه بضاف فويق الأرض ليس بأصهب

وفى لوحة الصيد عند امرئ القيس نراه يعتز بفرسه المستعد للمعركة، وهو حين أراد أن يقرب لنا الصورة جعلها شبيهة بعقاب فـــى الانقضـــاض والسرعة والقوة والجرأة، يقول:

قد أشهد الغارة الشعواء تحملنـــى جرداء معروفـــة اللحييـــن ســـرحوب
كأن صاحبــــها إذ قـــام يلجمــــها مفد على بكـــــرة زوراء مـــــنصوب
إذا تبصرهـــا الـــراؤون مقبلــــة لاحت لهم غـــرة منهـــــا وتجبيـــب
وقاقها ضــــــرر وجريـــها جـــذم ولحمـــها زيم والبطـــــن مــــقبـــــوب
واليد سابحة والرجـــل ضارحـــة والعين قادحــــة والمتـــن سلــــحوب
والماء منـــهمر والشـــد منحـــدر والقصب مضطمر واللـــون غربيـــب
كأنها حين فاض الماء واحتفلــت صقعاء لاح لهـــا بالقفـــــزة الذيـــب
فأبصرت شخصه من فوق مرقبـة ودون موقعهـــا منـــــــه شـــناخيب
فأقبلت نحوه فى الجـــو كاســـرة يـــحثها من هـــوى الريـــح تصويـــب
صبت عليه وما تنصب من أمـــم إن الشقاء علـــى الأشـــقين مصبـــوب

كالدلو ثبت عراهـا وهـى مثقلـة إذ خانـها وذم منهـا وتكـريب
لا كالتى فى هـواء الجـو طالبـة ولا كهذا الذى فى الأرض مطلـوب
كالبز والريح فى مرآهمـا عجـب مافى اجتهاد على الإصرار تعييـب
فأدركته فنالتـه مخالبـها فأنسـل مـن تحتـها والـدف معقـوب
يلوذ بالصخر منها بعد ما فـترت منها ومنه على الصخر الشـآبيب
ثم استغاثت بمـتن الأرض تعفيه وباللسان وبـالشدقين تتريـب
فأخطأته المنايا قـيس أنملـة ولا تحـرز إلا وهـو مكتـوب
يظل منحجـرا منـها يراقبـها ويرقب الليل إن الليل مـحجوب
والخير ما طلعت شمس وما غربت مطلب بنواصى الخيل معصوب

وامرؤ القيس كسويد اليشكرى نجد عنده صورة للناقة والرحل فوقـها كالحمار الوحشى، راسما هربه من كلاب الصيد تشد وراءه وهو يخلف فـى حربه سحابا من الغبار يكسو الكلاب ثياب الذل والخيبة.

وصورة للحمار وهو جائع ظامئ طاوى الحشا، خائف متوجس حـذر متربص، فهو كالضبع إذ يهيل التراب ليهيئ فراشا لنومه ساعة الظهيرة، ثـم يغفو كالأسير المقيد، وصورة للثور الوحشى الذى قصد الصائدان بكلابـهما إلى صيده بذى الرمث، وقد استمات الثور فى دفعهن عنه يوم أنفـس، يـوم ذهاب نفوس، فإما نفسه وإما نفوس الكلاب فقد أخذت الكلاب تعضـه لمـا أدركته وتجذبه من ساقه كما تجذب الأولاد ثوب الراهب الذى يـأتى بيـت المقدس حاجا، يتمسحون بها ويجذبونها تبركا بها، ويا حسن حظ من تخـرج فى يده قطعة من ثوبه، كذلك فعل الكلاب بالثور.

والطــريف فــى هــذه الصورة، أن الحمار الوحشى يتصور خاتمته، وقد أدركته الكلاب، وأمسكت به فمزقته تمزيقا، كما يمزق الغلمان ثياب الرهبان، وهم يتبركون بهم ويلتمسون منهم المغفرة يقول:

وأيقــن إن لاقــيــته أن يومــه بذى الرمث أن ما وتنه يوم أنفس
فأدركـــنه يأخـــذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقـــدس
وغورن فى ظل الغضى وتركنه كفحــل الهجان الغادر الــمتشمس

وصور سويد اليشكرى ثوره الوحشى مع كلابه، ومطاردة الصيادين للثور يجــرى أمـــامهم، وهم يلحقون به فى مشاهد تفصيلية تشعرك بواقعية الأحداث، يقول:

فكأنـــى إذ جـــرى الآل ضـــحى فــوق ذيـــال بـــخدبه ســفـــع
كـــف خـــداه علـــى دبـــياجة وعلـــى المتنـــين لون قد سطـــع
يبســـط المشـــى إذا هيجـــته مـــثل مـــا يبسط فى الخطو الذرع
راعـــه بـــين طيـــئ ذو أســـهم وضـــــراء كـــــن يبلين الشرع
فـــرآهن ولمـــــا يســـــتبـــن وكـــــلاب الصـــيد فيهن جشـــع
ثـــم ولـــى وجـــنابان لــــــه مـــــن غـــبـــار أكدرى واتـــدع
فتـــراهن علـــى مهلـــتـــــه يختلـــين الأرض والشـــاة يلـــــع
دانـــيات مـــا تلـــبســـن بـــــه واثقـــات بـــدماء إن رجـــــع

شبه ناقته بالثور الوحشى طويل الذنب فى لونه الأسود الضارب إلى الحمــرة، جمع وجهه يلف على ديباجة لسواده، ومتنه أبيض قد سطع، ووجه الــثور وقـــوائمه مخالف لسائر جسده لأن جسده أبيض وقوائمه ضاربة إلى الحمرة فى سواد ومتنه أبيض قد نصع وقد رأى الثور الكلاب ولم يستبنهن مـــع دنوهن منه، لم يخالطنه خوفا، عالمات أنه إذا رجع عليهن جرهن بقرنه ودماهن.

لقد وصف سويد الثور الوحشى أيضا مكملا صورته بأنـــه ضـــافى الذيل أسيل الخد أسود الفخذين فى حمرة تكسوهما جمالا وتكســبهما رونقـــا، ورسم صورة له حين يعرض له الصياد وكلابه فى حركة ونشاط .

أما ناقة عمرو بن قميئة فيشبهها بحمار وحشى ثم ينتقل إلى وصـــف منظر الصيد الذى يدور بين صياد فقير وقطيع من الأتن الوحشية يسوقها هذا الحمار، وينتهى بنجاة القطيع وعودة الصياد مخفقا إلى زوجته وأولاده الجياع المنتظرين عودته بطعامهم، يقول:

وكنت إذا الـــهموم تضيفتنـــى ... قريت الـــهم أهـــوج دوسريـــا
بويزيل عامه مـــــردى قـــذاف ... علـــى التـــأويب لا يشـــكو الونيـــا
يشيح علــــى الفـــلاة فيعتليهـــا ... وأذرع ما صدعت بــــه المطيـــا
كأنى حيـــن أزجـــره بصوتـــى ... زجـــرت بـــه مــــدلا أخدريـــا
تمهل عانـــة قـــد ذب عنهـــا ... يكون مصامــــه منهـــا قصبـــا
أطال الشـــد والتقريـــب حـــتى ... ذكـــرت بـــه ممـــرا أندريـــا
بها فى روضـــة شـــهرى ربيـــع ... فـــساف لـــــها أديمـــا أدلصيـــا
مشيحا هل يـــرى شـــبحا قريبـــا ... ويوفـــى دونـــها العلـــم العليـــا
إذا لاقـــى بظـــاهرة دحيـــقـــا ... أمـــــر عليـــهما يومـــا قسيـــا
فلما قلصـــت عنــــه البـــقايا ... وأعوز مـــن مراتــــعه اللويـــا
أرن فصكهـــا صخـــب دؤول ... يعب علـــى منـــاكبها الصبيـــا
فأوردها علــــى طمـــل يمـــان ... يهـــل إذا رأى لحمـــا طريـــا
لـــه شـــريانة شـــغلت يديـــه ... وكـــان علــــى تقـــلدها قويـــا
وزرق قـــد تنخلــــها لقضــــب ... يشـــد علـــى مناصبـــها النضيـــا
تـــردى بـــراة لمـــا بـــناهـــا ... تبـــوأ مـــقعـــدا منـــها خفيـــا

فلما لم يريـــن كثــير ذعــــــر ... وردن صـواديــا وردا كميـــــــا
فأرســل والمقـــاتل مـــــعورات ... لمــــــا لاقــت ذعافــا يثربيـــــا
فخــر النصـــل منقعصــا رثيمــا ... وطـــار القــدح أشــتاتا شظيــــا
وعض علـــى أنامـــلــــه لـــهيفا ... ولاقـــى يومـــه أســـفا وغيـــــا
وراح بحـــرة لهفـــا مصابـــــا ... ينبـــئ عرســه أمـــرا جليـــا
ولو لطمت هناك بـــذات خمــس ... لكانـــا عندهـــا حنتيـــن سيـــا
وكـــانوا واثـــقين إذا أتـــــاهم ... بلحــم إن صباحـــا أو مســـــيا

إن الهموم إذا نزلت ضيوفا عليه قدم لها حقوق ضيافتها رحلة علــى هذا الجمل القوى الجرى ينطلق فيها إلى أعماق الصحـــراء، وهــذا الجمــل صبور على مشقات السفر وأهوال الرحلة التى يسبق فيها الإبل الأخرى التى ترافقه، وهذا الجمل كالحمار الوحشى فى قوته وصبره وتحمله ويصف قطيع الأتن الوحشية بأن ذكرها يسوقها متمهلا ويدافع عنها، ويتخذ موقفـــه بعيــدا عنها، ليراقبها ويراقب الفضاء من حولها، حتى لا يفاجئها خطــــر مــن أى ناحية، فحماره الوحشى ضامر محكم الخلق موثق البنيان، وهو أسرع بإناثــه إلى روضة خصبة أخذ يتشمم أرضها التى أخذ نباتها ينمو، ليطمئن إلى جودة مرعاها وقد بدأ الصراع الشديد بين الذكرين للظفر بهذه الإناث فـــى بدايــة جفاف المرعى الذى نزل به هذا القطيع تمهيدا لرحلته عنه بحثا عن مرعـــى جديد إن هذا الحمار أخذ يسوق إناثه سوقا عنيفا، فمد صوته صائحــا بـــها، وراح يضربها ضربا شديدا، ويغمزها فى مناكبها، وهـــو يصـــور الصيـــاد المتربص بها، ويقول إنه صياد فقير من أهل اليمن ينتظر فى لهفـــة صيــدا سمينا، وتمتلئ نفسه بالفرحة كلما رآه، ويستمر فى وصفه للصياد وما أعـــده من قوس وسهام خرج بها ليضمن ظفره بالصيد الذى ســعى وراءه، وحيــن اطمأنت الأتن ولم تجد ما يخيفها مضت إلى ماء بعيــد خفــى فـــى جـــوف الصحراء لتطفئ ظمأها وقد أرسل الصياد سهما نحو القطيع لكنه أخفق فـــى

إصابته، وملأ الغيظ نفسه حين رأى سهامه تطيش فعاد خائبا إلـــى زوجتـــه، وكانت عودته بمثابة لطمة على وجهها، وهو يصور ضياع أمل أولاده فـــى عودة أبيهم بلحم الصيد الذى خرج من أجله، والذى كانوا على ثقة من عودته به فى أى وقت من الليل أو النهار .

ويصف ربيعة بن مقروم، ناقته السريعة مشبها إياها بعـــير يطـــرد إناثه، وقد تركهن عطاشا زمانا طويلا حتى إذا لحقن بالماء لم يقربنه حتـــى أرادهن الصائد فراحت من الذعر تغرى الأديما:

كـــأنى أوشـــح أنســـــاعها أقب مـــن الحقـــب جأبـــا شـــتيما
يحلـــئ مثـــل القنـــــا نبـــلا ثلاثا عن الـــورد قـــد كـــن هيمـــا

إلى قوله:

فأخطأهــــا فمضـــت كلـــــها تكاد من الذعر تفرى الأديمـــا

فهو يشبه ناقته بالعير الوحشى، وساق الحديـــث عنـــه وعـــن أتنـــه وسلطانه عليها، ووصف الصائد يتربص بها عند الماء، وكيف فـــرت منـــه، ليجعل ذلك شبها لسرعة ناقته

يقول الدكتور ابراهيم عبد الرحمن فى كتابـــه الشـــعر الجـــاهلى :" فالشاعر عند تشبيهه الناقة بالثور لابد أن يحافظ على حياة هذا الثـــور حتـــى تنقضى الرحلة، ويخرج من هذه الصحـــراء الموحشـــة،لأن رحلـــة الحيـــاة الموحشة تحتاج إلى القوة دائما، والخروج مـــن الصحـــراء ليـــس بـــالأمر اليسيروإذن لابد من صراع ما يرمز إلى الأهوال التى يواجهها الشاعر أثنـــاء رحلته، وتحديد لهذه الصعوبات والأفكار، والتغلب عليها، ومن ثـــم يصـــور الثور الوحشى فى صراعه لحظة التحدى التى تواجه كل من يروم غاية نبيلة أو مثلا أعلى وما أشبه حال الشاعر العربى فى صحرائه بذلك كله " .

ولبيد بن ربيعة يفصل فى وصف حال حمار الوحش تفصيلا يطلعك على نوع مما يجرى بقلبه من إنفعالات الغيرة والحرص على أنثاه، حرصا لا يقاربه فيه إلا الإنسان، وهو إذ يفعل ذلك يتتبع تلك الإنفعالات النفسية الطارئة على الذكر فى حالته هذه تتبعا دقيقا وافيا، ويصف من أحواله وأحوال أنثاه مالا مراء فى أن عناصره مستمدة من إحساسات صاحب الشعر نفسه، وتجاربه .

ولبيد لا يكتفى بهذه الصورة فى تشبيه راحلته، ولكنه يشبهها أيضا بالبقرة الوحشية التى فقدت ولدها بعد أن تركته تابعة قطيعها، فافترسته الذئاب الكواسر، فلما افتقدته عادت باحثة عنه، حيرى والهة، جازعة، تروح هنا وهناك، يتردد بغامها بين كثبان الرمال، تحاول أن تجد ابنها فلا تجده، ويمضى النهار، ويحط الليل، ويسيل المطر يروى الرياض ويتحدر على جانبى ظهرها، متواترا، لا ينقطع، فى الليل المظلم البهيم، الذى حجبت فيه النجوم الغيوم، فيشتد خوفها، وتأوى إلى جذع شجرة قالص، قد نبت فى أصل كثيب منعقد من كثبان الرمال بمبعدة عن مواطئ الأقدام والمخاوف، وتلبث هناك برهة، موزعة بين مطلب الحياة، ومطلب الأمومة، فى حيرة من أمرها، أتحمى نفسها، أم تبحث عن طفلها ؟ ولكن الأمومة غل لا يتحطم، فهى فى حيرة من أمر ابنها، أين تذهب به، وقد أودع فى ضرعها لبنها، حيرة لا تلبث معها أن تستجيب لدعاء الأمومة، فتبارح ملجأها، وتعود للتعرض لما تعرضت له من قبل، وتضئ البروق فى ظلمة الليل فتبدو البقرة تحت ضيائها بيضاء، تلتمع كأنها جمانة البحرى سل نظامها .

وتظل فى هذه الحيرة تتردد حول غدر صعائد سبع ليال كاملة وأيامها، حتى إذا دب اليأس إلى نفسها، وضمر ضرعها، وجف لبنها لما لم ترضع طفلها طول هذه المدة، فاجتمع عليها اليأس من لقاء ابنها، وقطعت

الطبـيعة بينها وبين ابنها القطع الذى يمثله جفاف لبنها، فى هذه اللحظة التى يـبلغ فـيها الضعف البشرى بالأم ذروته، وتكاد تتحطم عنده أعصاب أقوى الكائـنات، يبتليها القدر بالصياد وهى لا تعرف مكمنه، ولكنها تدرك إدراكا غريزيا أن هناك خطرا يتهددها، فهى ترهف السمع مرتاعة، تتحسس صوت الإنسان والإنسان سقامه يقول :

أفتلك أم وحشـية مسبوعـة	خذلت وهادية الصـوار قوامـها
خنساء ضيعت الفرير فلـم يـرم	عرض الشقائق طوفـها وبغامـها
لمعفر قهد تنـازع شلـوه	غبس كواسـب لا يمـن طعامـها
باتت وأسبل واكـف مـن ديمـة	إن المنـايا لا تطيـش سهامـها
صادفن منها غـرة فأصـبنها	يروى الخمائل دائمـا تسجامـها
يعـلو طريقة متنـها متـوات	فى ليلـة كفر النجـوم غمامـا
تجتاف أصـلا قالصـا متنبـذا	بعجـوب أنقاء يميـل هيـامها
وتضئ فى وجه الظـلام منـيرة	كجـمانة البحرى سـل نظامـها
حتى إذا أنحسر الظلام وأسـفرت	بكرت تزل عن الثرى أزلامهـا
علهت تردد فى نـهاء صعـائد	سبعا تؤاما كـاملا أيامـها
حتى إذا يئست وأسـحق خـالق	لم يبله إرضـاعها وفطامهـا
فتوجسـت رز الأنيـس فرعـها	عن ظهر غيب والأنيـس سـقامها
فغدت كلا الفرجين تحسـب أنـه	مولى المخافة خلفـها وأمامـها
حتى أذا يئس الرمـاة وأرسـلوا	غضفا دواجن قـافلا أعصامـها
فلحقن وأعتكرت لـها مدريـة	كالسـمهرية حدهـا وتمـامهـا
لتذودهن وأيـقنت إن لـم تـذد	أن قد أحم من الحتـوف حمامـها
فتقصدت منهاكسـاب فضرجـت	بدم وغودر فى المكـر سـخامها
فبتلك إذ رقص اللوامع بـالضحى	واجتاب أرديـة السـراب إكامـها

أقضى اللبانة لا أفرط ريبة ... أو أن يلوم بحاجة لوامها
أو لم تكن تدرى نوار بأننى ... وصال عقد حبائل جذامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو ... يعتلق بعض النفوس حمامها
بل أنت لا تدرين كم من ليلة ... طلق لذيذ لهوها وندامها

أناقتى تشبه تلك الأتان أو هذه البقرة التى خذلت ولدها وذهبت ترعى مع صواحبها وجعلت هادية الصوار قوام أمرها فافترست السباع ولدها فأسرعت فى السير طالبة لولدها، وصائحة فيما بين الرمال إنها تجد فى الطلب لأجل فقدها ولدا قد ألقى على أديم الأرض وافترسته كلاب أو ذئاب صوائد قد اعتادت الاصطياد، وبقر الوحش بيض ماخلا أوجهها وأكارعها.

لقد باتت البقرة بعد فقدها ولدها وقد أسبل مطر واكف من مطر دائم يروى الرمال المنبتة، والأرضين التى بها أشجار فى حال دوام سكبها الماء، أى باتت فى مطر دائم الهطلان، وواكف يجوز أن يكون صفة مطر ويجوز أن يكون صفة سحاب.

إن البقرة الوحشية تستتر من البرد والمطر بأغصان الشجر ولا تقيها البرد والمطر لتقلصها، وتنهال كثبان الرمل عليها مع ذلك وتضئ هذه البقرة فى أول ظلام الليل كدرة الصدف البحرى أو الرجل البحرى حين سل النظام منها، شبه البقرة فى تلألؤ لونها بالدرة وإنما خص ما يسل نظامها إشارة إلى أنها تعدو ولا تستقر كما تتحرك وتنتقل الدرة التى سل نظامها، وإنما شبهها بها لأنها بيضاء متلألئة ماخلا أكارعها ووجهها حتى إذا انكشف وانجلى ظلام الليل وأضاء بكرت البقرة من مأواها فتزل قوائمها عن التراب الندى لكثرة المطر الذى أصابه ليلا، فأمعنت فى الجزع وترددت متحيرة فى وهاد

هــذا الموضــع ومواضــع غدرانــه ســبع ليال تؤلم للأيام وقد كملت أيام تلــك الليالــى، أى تــرددت فــى طلــب ولــدها سبع ليال بأيامها، وجعل أيامهــا كاملــة إشــارة إلى أنها كانت من أيام الصيف وشهور الحر، حتى إذا يأســت البقــرة مــن ولــدها وصار ضرعها الممتلئ لبنا خلقا لانقطاع لبــنها "ولــم يــبل ضــرعها إرضــاعها ولدها ولا فطامها إياه وإنما أبلاء فقــدها إيــاه" إنهــا ســمعت صــوتا ولــم تر صاحبه فخافت ولا غرو أن تخــاف عــند ســماعها صــوت الــناس لأن الــناس يبيدونها ويهلكونها، والتقديــر فتســمعت رز الأنــيس عــن ظهر غيب فراعها والأنيس سقامها إنهــا لــم تقــف علــى أن صــاحب الــرز خلفهــا أم أمامها فغدت فزعة مذعــورة لا تعــرف مــنجاها مــن مهلكهــا أقــبلت البقــرة على الكلاب وطعنــتها بهــذا القــرن الــذى هــو كالــرماح عطفت البقرة وكرت لترد وتطــرد الكــلاب عــن نفســها وأيقــنت أنها إن لم تذدها قرب موتها من جملــة حــتوف الحــيوان، أى أيقــنت أنهــا إن لــم تطــرد الكلاب قتلتها الكــلاب فقــتلت البقــرة كساب من جملة تلك الكلاب فحمتها بالدم وتركت ســخاما فــى موضــع كــرها صريعة،أى قتلت هاتين الكلبتين فبتلك الناقة التــى أشــبهت البقــرة والأتــان أقضــى حوائجــى فى الهواجر، ورقص لوامــع الســراب ولــبس الإكــام أرديــته كناية عن احتدام الهواجر إنه لا يقصــر ولكــن لا يمكــنه الاحتــراز عــن لــوم اللــوام إياه إنى لا أترك الأمــاكن التــى أجــتويها وأقليها إلا أن أموت بل أنت تجهلين كثرة الليالى التى طابت لى واستلذت لهوى وندمائى فيها أو منادمتى الكرام فيها

أما الأعشى حين يتحدث عن الرحلة والناقة والصيد، يقول:

وعســير أدماء حــادرة العــيــــن خنــوف عيرانة شمــلال
مــن سراة الهجان صلبها العض ورعــى الحــمى وطــول الحيال

لم تعطف على حوار ولـــم يقـــ ... طع عبيـد عروقها مــن خمـــال
قد تعللتــها علـى نكـظ الميـط ... وقـد خـــب لامعـــات الآل
فوق ديمومة تـغول بـالسفـــ ... ـــر قفـار إلا مــن الآجـــال
وإذا ما الضلال خيف وكان الـــ ... ـــورد خمسا يرجونه عــن ليـال
واستحث المغيرون مــن القــوم ... وكان النطـــاف ما فى العزالـــى
مرحت حرة كقنطرة الرومــــى ... تفـــرى الـــهجير بالإرقـــال
تقطع الأمعز الـمكوكب وخــدا ... بنـــواج ســريعة الإيغـــال
عنتريس تعدو إذا مسها الســوط ... كعــدو المصـــلص الـــجوال
لاحه الصيف والصيال وإشـــفاق ... على صـــعدة كقوس الـــضال
ملمع لاعة الفؤاد إلـــى جحـــش ... فلاه عبـــها فبئـــس الفالـــى
ذو أذاة على الخليط خبـــــيث ... النفس يرمــــى مراغـه بالنســال
غادر الجحش فى الغبـار وعـدا ... ها حثيثـــا لصــــوة الأدحـــال
ذاك شبهت ناقتى عـــن يمـــين ... الرعن بعد الكـــلال والإعمـــال
وتراها تشــــكو إلـــى وقـــد ... آلت طليحا تحـذى صدور النعـال
نقب الحف للسرى فترى الأنـــــ ... ـساع من حـل ساعة وارتحـــال
أثرت فـى جناجن كـإران الـــ ... ـميت عولين فوق عوج رســـال
لا تشــكى إلـــى من ألم النســ ... ـــع ولا مــن حفى ولا من كلال

اللوحة الأولى : ناقة من اكرم الإبل، قوى عودها شد منـــه علفـــها ورعيها فى حمى القبيلة كيف تشاء، وعدم حملها، ويستمر فى رسم صـــورة الناقة وتصوير قوتها ونشاطها، فهى تستخرج أقصى ما عندها من السير .

اللوحة الثانية : وتأتى صورة أخرى فى وصف الصحراء المتراميـــة الأطراف والمليئة بقطعان البقر الوحشى، وهى متشابهة المعالم، يخشى فيـــها الضلال، وأنها مقفرة قليلة الماء، لا تشرب منها الإبل إلا كل خمس ليال .

اللوحة الثالثة : يصف بعد الرحلة ويصور مشقتها وقلة الماء بين أيدى المسافرين، والناقة تسرع منطلقة لا يقف فى طريقها شيء، ويشبهها بقنطرة الرومى فى العلو والضخامة فلا تخشى شدة الحر فى الصحراء فى وقت الظهيرة موضحا شدة اندفاعها فى السير والإبعاد فيه وهى شبيهة بحمار من حمر الوحش، ويصور الأتان ملتاعة القلب إلى صغيرها الذى أبعده عنها زوجها ليخلو له الجو معها، أو لأنه يغار عليها منه، وتلك صورة تتردد فى الشعر الجاهلى، ويعود ليصف الحمار بأنه " خبيث النفس " لأنه عزل عن أنثاه صغيرها وتركها تعانى أسفها عليه وحزنها ولوعتها، ووصفه بأنه " ذو أذاة على الخليط " لأنه لا يكف عن مصاولة غيره من الحمر، وعضه لها، ليطردها بعيدا عن أنثاه التى يريد أن يستأثر بها لنفسه.

ويستمر فى تشبيه ناقته فى قوتها وصلابتها وتحملها مشاق الرحلة بهذا الحمار الوحشى فيقول إنها تشبهه لا فى حالة نشاطها، ولكن فى حالة تعبها وإرهاقها وإعيائها، وقد ألبسوها أخفافا من الجلد تحمى أقدامها من وعورة الأرض وطول الرحلة، وكان العرب يفعلون ذلك بإبلهم فى أسفارهم الطويلة، ويستطرد قائلا : إن هذه الأنساع لكثرة ما شدت وحلت مع النزول والارتحال أثرت فى عظام صدر الناقة القوية لكنها لا تشتكى.

كما أننا نرى فى حكاية له عن الصيد مجالا للتفصيل، هيأت له سعة صوره المتلاحقة فى الوصف :

ففى اللوحة الأولى : يصف الأسد فى خدره " مخدر " وقد امتلأ مهابة " كأن جبينه يطلى بورس أو يطان بمجسد " ثم اجتمعت له أسباب الاستثارة، فقد " كسته بعوض القريتين قطيفة ".

تنال من جلده، حتى امتلأ حماسة وتحفزا " متى ما تنال مـــن جلـــده يتزيد "وقد نجد عند خدره مظاهر قوته المخيفة مثل " ثيـــاب القـــوم حـــول عرينه"، يقول:

فما مخـــدر ورد كـــأن جبينـــه يطلى بورس أو يطـــان بمـــجسد
كسته بعـــوض القريتيـــن قطيفـــة متى مـــا تنل مـــن جلـــده يـــتزيد
كأن ثياب القوم حـــول عرينـــه تبابين أنبـــاط إلى جنـــب محصـــد

أما اللوحة الثانية: فنجد مشهد مهاجمة الأسد لفريسته مـــن البشـــر، جعلها بعد إيقاد القوم لدارهم، وذلك أن الأسد احتاج لأن " يهتدى بها إليـــهم" يقول:

رأى ضوء نار بعدمـــا طاف طوفة يضئ سناها بيـــن أثـــل وفرقـــد
فيا فرحا بالنـــار إذ يـــهتدى بـــها إليهم وإضـــرام الســـعير الموقـــد

أما اللوحة الثالثة : فهى تصوير فعل الافتراس نفســـه، فقـــد بـــدأت الحركة عند الأعشى بهرب القوم الجماعى، فلما رأوا الأسد" دون ركابهم" لـــم يجدوا بدا من الهرب " فطاروا سراعا" رغم امتلاكـــهم " الســـلاح المعتـــد" وتوقف الشاعر هنا ليربط نفوسهم بالنفس البشرية عامة، إذ أن حبها للحيـــاة هو الدافع الأكبر لطلب النجاة " أتيح لهم حب الحياة فأدبروا" ورجاؤها انفراج الكربة، هو الدافع إلى أن تحتمى من الخطر إلى حين، حتى لو كـــان ذلـــك فرارا منه، " ومرجاة نفس المرء ما فى غدغد" أما المفترس، فواحد من القوم أخذه الأسد رهينة، ومزقه قبل أن يتمكن رفاقه من نجدته أو افتدائه وعبـــارة "بأصدق بأسا" التى قفل بها الأعشى تشبيهه، تبين أن صفة البأس، هى الصفة المشتركة بين الأسد، وهو المشبه به، وبين الممدوح وهو المشبه، وغالبا مـــا كانت نهاية التشبيه تقترن بزمن شرطى يعلى من قيمة الممدوح، ولهذا جعـــل الأعشى بأس الممدوح يبرز " إذا خافت الأبطال فى كل مشهد"، يقول:

فلما رأوه دون دنيا ركابهم وطـــا روا ومرجاة نفس المرء ما فى غـد
فلم يسبقوه أن يلاقى رهينـــــــة قليل المساك عنده غيـر مفتـــدى
فأسمع أولى الدعوتين صحا بـــه وكان التى لا يسمـعون لهـا قـد
بأصدق بأسا منك يومـــا ونجـدة إذا خافت الأبطـــال فى كـل مشهد

وصورة النهر كصورة الأسد فى تشكيل الشعراء لها، لقد حولوها إلـى حكاية تقع أحداثها داخل النهر الذى يشترك هو الآخر فى نسج هذه الأحداث. وتطوراتها من ذلك قول النابغة:

فما الفرات إذا جاشـت غواريـه ترمى أواذيه العبـــرين بالزبـــد
يمده كـل واد مترع لـــجــــب فيه ركام من الينبوت والخضـــض
يظل من خوفه الملاح معتصمـــا بالخـيزرانة بعد الأين والنجـــد
يوما بأجود منه ســيب ناقلـــة ولا يحـول عطاء اليوم دون غـد

الفرات هو باعث الخصـــب والحيـاة، وهــو أيضـا هــذا النــهر الغاضب الذى يجتث الحياة ويدمرهـــا، هـو الـذى ييسـر الحيـاة علـى الملاحين وهو الذى يعصف بهم ويلقى اللاعب فـى قلوبـهم حتـى يوشـك أن يطويهم إنه صورة حية أو رمزية لـهذا الممـدوح الـذى يتعـانق فـى كفه النقيضان "الموت والحياة".

اللوحة الأولى:

وصف عام للنهر فى هيجانه " جاشت غواريه" حتى أصبحت " ترمى أواذيه العبرين بالزبد" وكان يمد الفرات عنده " كل واد مترع لجـب" حتـى تجمع فيه " ركام من الينبوت والخضد" .

اللوحة الثانية:

وصف للملاح الخائف وسلوكه داخل هذا النهر الهائج، لقد ظل "معتصما بالخيزرانه"، "من خوفه" وذلك بعد مجاهدة عنيفة مرهقة فشلت فى السيطرة على الموج .

اللوحة الثالثة:

المشابهة بين النهر والممدوح فى الكرم "ولا يحول عطاء اليوم دون غد"

وهكذا فنحن أمام لوحة متكاملة، للنهر والملاح فى سفينة وسط الرياح والأمواج، فى مشهد يأخذ نياط القلوب.

إننا نقدم هذه الصورة فى كثير من المناسبات، حين نتعرض لتطور الصورة الفنية، وحين نصف كرم الممدوح، أو عندما نفخر بالقوة والسيادة والمنعة، من أجل ذلك تتكرر هذه الصورة عندنا .

ومن اللوحات المتكاملة، ما سجله النابغة الذبيانى فى منظر صيده حين صور صيد الثور الوحشى، وهو قوى سريع العدو، حاد القرنين، مستطردا فى وصف ناقته الجلدة الصبورة، يقول:

ومهمه نازح تعوى الذئاب به	نائى المياه عن الوراد مقفار
جاوزته بعلنداة منكرة وعر	الطريق على الأحزان مضمار
كأنما الرحل منها فوق ذى جدد	نب الرياد إلى الأشباح نظار
مطرد أفردت عنه حلائله من	وحش وجرة أو من وحش ذى قار
سراته ما خلا لباته لهق وفى	القوائم مثل الوشم بالقار
وبات ضيفا لأرطاة وألجأه مع	الظلام إليها وابل سار
حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته	وأسفر الصبح عنه أى إسفار

أهوى له قـــانص يســعى بأكلبـــه — عارى الأشاجع من قناص أنمـــار
محالف الصيد تبـــاع لـــه لـــحـــم — ما إن عليـــه ثياب غير أطمــــار
يسع بغضف براها وهـــى طاويـــة — طول ارتحـــال لهـــا منه وتســـيار
حتى إذا الثور بعد النفـــر أمكنـــه — أشلى وأرســل غضفا كلها ضـــار
فكر محمية من أن يفـــر كمــــاكر — المحامى حفاظـــا خشـــية العــــار
فشك بالرمح منها صــــدر أولهـــا — شك المشاغب أعشارا بأعشـــــار
ثم انثنى بعـــد للثـــانى فـــأقـــصده — بذات فرغ بعيـــد القعر نعــــار
وأثبت الثالث البــــاقى بنـــافـــذة — مـــن باسل عالم بالطعن كـــرار
وظل فى سبعة منـــها لحقـــن بـــه — يكر بالروق فيهـــا كـــر إســـوار
حتى إذا ما قضى منـــها لبانتــــه — وعــــــاث فيها بإقبال وإدبــــار
انقض كا كوكب الــدرى منصلتـــا — يهوى ويـــخلط تقريبا بإحضـــار
فذاك شبه قلوصى إذ أضر بها طول — الســرى والســرى مـــن بعد إيكار

لوحة متكاملة لمنظر صيد، ظلالها وألوانها وخطوطها مـــن البيئـــة، ويظهر التطور فى الصورة عند النابغة حيث نجول ببصرنا حول الآتى:

١- مفازة شاسعة يرتد فيها البصر وهو حســـير، جـــرداء ممحلـــة تشعرك بالوحشة والخوف، وتوحى لك بالوحدة .

٢- ناقة غليظة قوية، صبور على قطع الطرق الوعرة، قادرة علـــى احتمال الشدائد، كأنها ثور وحشى فى صلابة عودها، وسرعة إرقالها، وهـــى صديقته التى يعتز بها ويفخر بمصاحبتها .

٣- ثور أبيض ما عدا صدره وقوائمه فهى سوداء، فاجتماع اللونيـــن الأبيض والأسود يعطى انسجاما وتناسقا .

٤- مطـــر مفاجئ حين أذنت الشمس بالمغيب وأطبق الظلام، وللمطر مع الظلام إيحاء نفسى، يشعر به المتلقى.

٥- الأرطـــاة التـــى نزل بها الثور ضيفا يقضى ليلته الممطرة، وهى متكررة فى لوحات الصيد.

٦- قـــانص مع الصباح من أنمار ينحدر مع أكلبه إلى الثور، وقد سد أمامه السبل حتى تمكن منه، وهاجمه الكلاب الطويلة الآذان الضارية.

٧- ملحمة فى سبيل الحياة بين الثور والكلاب، فى كفاح ونضال، فشك بصـــدره قـــرن الأول وطعنه طعنات نافذة فى صدره، ثم هدد الثانى، بطعنة ذات ثغر بعيدة الغور ينبجس منها الدم ويتدفق، وألصق الثالث بالأرض على أثر طعنة أخرى نافذة صوبها إليه.

أمـــا الســـبعة الباقـــية، فظل يكر عليها بروقه الحاد الصلب كر القائد الفـــارس، حتـــى أعجزها أن تلحق به من كثرة الطعنات، فانقض يعدو كأنه الكـــوكب الدرى يهوى من علياء السماء أو السيف القاطع فى يد فارس قوى يهوى به على الأعداء.

وراح يجرى وينوع فى عدوه، فتارة يثب وثبا، وتارة يحضر إحضارا، حتى نجا من خطر داهم وعدو ظالم، منهوك القوى قد بلغ منه الأين والكلال والجهد مبلغه.

حتـــى أن الناقة القوية تعود منهكة القوى، من التعب وطول السرى، وسير الهاجرة، والحر اللافح وتذليل الحزون، واجتياز الفيافى، كأنها خاضت معـــركة صبرت فيها على الجهد والعطش والسير الطويل، والأرض الجاسية وانتصـــرت علـــيها وإن خرجت مجهدة نصبة، كما خاض هذا الثور معركة الحياة مع هذه الكلاب الضاربة، وأحرز النصر.

صور لمشاهد مختلفة، للصحراء والناقة والثور، والصياد والكلاب في لوحة متكاملة، مشاهدها كلها رائعة .

وتلك لوحة أخرى للنابغة، لا تختلف كثيرا عن سابقتها غير أن الثور هنا يضرب بقرنه كلبا من كلاب الصيد فينفذ قرنه في كتفه، وصار قرنه كأنه سفود شرب نسيه الندامى بعد أن لعبت بلبهم الراح أمام النار التي أوقدوها للشواء ويصور الكلب وقد اشتد به الألم وهو معلق بأعلى القرن، فانقبض وتجمع وأخذ يعض القرن الأسود الصلب الذي لا عوج فيه عض اليائس الجريح، يقول :

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها	طعن المبيطر إذ يشفي من العضد
كأنه خارجا من جنب صفحته	سفود شرب نسوه عند مفتأد
فظل يعجم أعلى الروق منقبضا	في حالك اللون صدق غير ذي أود
لما رأى واشق إقعاص صاحبه	ولا سبيل إلى عقل ولا قود
قالت له النفس إني لا أرى طمعا	وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

أتى النابغة في ألفاظ قليلة بهذه الصورة، وبصورة أخرى تزيدها وضوحا، وهي السفود عليها اللحم وقد نسيه الندامى عند النار بعد أن ثملوا، وفي ذلك تجديد للصورة لم نجده عند غيره من السابقين، ولنعد إلى قراءة ما قيل في هذه الأبيات السابقة، وهي من اعتذارياته فيما وشي به في أمر المتجردة، ولكنه أراد أن يطلعنا على فنيته وقدرته لنرى إلى أي حد يكون تكامل اللوحة عند النابغة، يقول:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا	يوم الجليل على مستأنس وحد
من وحش وجرة موشى أكارعه	طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد
أسرت عليه من الجوزاء سارية	تزجي الشمال عليه جامد البرد

فارتــاع من صوت كلاب فبات له طوع الشوامت من خوف ومن صرد
فبــثهن علـــيه واســتمر بــــه صمع الكعوب بــريئات من الــحرد
وكــان ضمران منه حيث يوزعه طعــن المعــارك عند المحجر النجد

إنها نوحة متكاملة تتكون من :

١- صورة الثور

٢- صورة الصراع بين الثور وخصمه

٣- صورة النهاية بقتل ضمران

وهكـــذا يصـــف الـــنابغة الذبيانــي ناقـــته، على عادة الشعراء من حـــوله، فصـــور قـــوة متـــنها، وســرعة ســيرها ومضائها ثم شبهها بثور وحشـــى، ويدفعـــه ذلـــك إلـــى وصـــف صائد وأكلبه، وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك.

وقدم لنا لوحة رسم فيها صورة هذا الثور، فقوائمه مزينة بما فيها من نقــط، وهو ضامر كالسيف المسلول، يجرى فى الصحراء خائفا متوجسا لما تســقط عليه السماء من برد لا ينقطع، ولم يلبث أن ذعر ذعرا شديدا إذ سمع صـــوت قـــانص يهتف بكلابه، فأسرع فى جريه، ولمحه القانص فبعث عليه كلابـــه، فأســـرع ولكـــن الكلاب لحقت به، وكان أول ما لقيه منها ضمران، ونشـــب بينهما صراع عنيف، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نافذة إلى ظاهر صدره، فترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه منقبضا متألما إلى أن لفظ أنفاسه ولما رأى واشق مـــا أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الـــثور إبقـــاء على نفسه، وقد أخذه اليأس من يصيد صاحبه كما كان يبغى، ودون بغيته الموت والهلاك.

ولننظر لصورة لبيد بن ربيعة،التي تناولتها والتي قلدها النابغة الذبياني، فقد رأينا كيف رسم ناقته فشبهها بالبقرة الوحشية في قوتها وضراوتها، ويذكر قصتها مع السبع الذي قتل ولدها حين كانت غائبة ترعى القطيع في صورة ممتعة، وهذه الصورة على إيجازها وبساطتها تشبه صورة في الشعر الغربي الفرنسي رسمها " الفريد فيني " لذئب أقبل عليه الصيادون في الليل، وأرسلوا كلابهم إليه، فأمسك بأجرأ كلب فيها ولم يحول عنه فكيه حتى فارق الكلب الحياة، فهذه الصورة التي فلسفها الغربي، سبقه إليه الشاعر العربي، وترك للنقد فلسفة هذه الصورة التي تظهر من خلال هذه الأبيات :

أفتلك أم وحشية مسبوعة ... خذلت وهادية الصوار قوامها
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم ... عرض الشقائق طوفها وبغامها
لمعفر قهد تنازع شلوه ... غبس كواسب لا يمن طعامها
صادفن منها غرة فأصبنها ... إن المنايا لا تطيش سهامها
باتت وأسبل واكف من ديمة ... يروي الخمائل دائما تسجامها
يعلو طريقة متنها متواتر في ... ليلة كفر النجوم غمامها

فسنرى أن هذه اللوحات يقصد بها إلى :

١- توضيح حالة بحالة، فهي صورة بيانية أخذت شكل هذه البنية الفنية .

٢- إثارة تلك اللذة الرائعة الناشئة عن وصف حياة هذا الحيوان في الصحراء من ناحية، وعن كونها إنعكاسا للإنفعالات البشرية، على مرآة من نفس الحيوان من ناحية ثانية .

إن الشاعر لا يستطيع أن يصف شيئا من الأشياء إلا إذا خبره خبرة تامة وعرفه معرفة تصل إلى حد التخصص الدقيق .

ويحـــدد قدامـــة الوصـــف بأنـــه: "ذكـــر الشيء بما فيه من الأحوال والهيـــئات" ويـــرى أنـــه" لمـــا كـــان أكثـــر وصف الشعراء إنما يقع على الأشـــياء المـــركبة مـــن ضـــروب المعانى، كان أحسنهم وصفا من أتى فى شـــعره بأكثـــر المعانـــى التـــى ركـــب مـــنها الموصوف، ثم بأظهرها فيه وأولاها، حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته".

والعسكرى يقول: " أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معانى

الموصوف، حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينك"

والآمدى يرى أن الشاعر هو من:" يصور لك الأشياء بصورها"

أما ابن رشيق فيروى أن:" أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا"

ويقـــول حـــازم القرطاجنـــى، متمشـــيا مـــع ابن سينا، وابن رشد، إلـــى أن الأقاويـــل الشـــعرية تهـــدف إلـــى: "تصوير الأشياء الحاصلة فى الوجـــود، وتمثـــيلها فـــى الأذهـــان علـــى ما هى عليه خارج الأذهان، من حســـن أو قـــبح حقـــيقة، أو علـــى غير ماهى عليه تمويها وإيهاما" ويذهب إلـــى أن وصـــف الشـــاعر لا يكمـــل إلا إذا حصـــل جمـــيع معانى الشيء الموصـــوف واستقصـــى عناصـــره، كمـــا أنـــه ينبغى على الشاعر ترتيب عناصـــر المحاكـــاة تـــبعا لتـــرتيبها فـــى العـــالم الخارجى ذلك أن الشاعر يجـــرى مجـــرى الرســـام، والمحاكـــاة بالمســـموعات تجـــرى من السمع مجرى المحاكاة بالمتلونات من البصر".

إن العـــرب قـــد ضـــمنت أشـــعارها من التشبيهات ما أدركه عيانها وحســـها، " فشـــبهت الشـــيء بمـــثله تشبيها صادقا، على ما ذهبت إليه فى معانيها التى أرادتها".

والتشبيه أوضح الأنواع البلاغية ارتباطا بفن الوصف، فهو يضع الشيء إزاء ما يقابله.

وذهب ابن سنان إلى أن الأصل في حسن التشبيه هو:" أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد، فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى، وبيان المراد" وهنا يكون تشبيه امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

فيه من الإيضاح والبيان، وهذا من التشبيه المقصود به إيضاح الشيء، لأن مشاهدة العناب والحشف البالي أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبا ويابسا.

وكذلك كان النابغة أوضح في تشبيهه عندما قال:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقد أوضح المقصود، وأبان المعنى فعلم الناس بأن الليل لابد من إدراكه له أظهر من علمهم بأن النعمان لابد من إدراكه له.

وهكذا نجد مهارة الشعراء الجاهليين في نقلهم للصور الكلية التي صوروا بها ما يحيط بهم، وما يشغل تفكيرهم في حياتهم، وكونوا منها لوحات متكاملة، ورأينا أن البعض منهم قد جاءت صوره في شيء من الغرابة والتجديد بعيدا عن محيط دائرته التي يعيش فيها، فأكسب بذلك الصورة لونا من الحضارة والثقافة التي تأثر بها، وإن كان في الوقت نفسه لا يخالف المسار الذي سار عليه أترابه من الشعراء الآخرين.

(٤)

لوحة المرأة

إن قارئ الشعر الجاهلى فى قصائده المختلفة يلاحظ أن الحديث عن المرأة يشكل العنصر الأصلى الذى تأتلف حوله وتخرج منه بقية عناصر القصيدة الأخرى فهى التى توقف الشاعر على الأطلال، وهى التى تحمله على ملاحظة ما أصاب هذه الديار من موات وخراب لرحيلها عنها، ورحيل هذه المحبوبة هو الذى يحمل الشاعر على رصد ذكرياته الماضية معها، وهذه الذكريات هى التى تضطره إذا ما تأزمت نفسيته، وأطبقت عليه هموم الحياة إلى الرحيل فى إثرها، واصفا الظعائن وصفا إنسانيا مؤثرا على راحلة يبالغ عادة فى تشخيص قوتها وشدتها وقدرتها على المضى به بعيدا عن هذه الأطلال التىتثير فى نفسه عناصر شتى من الخوف والقلق والحسرة،أو فلنقل الصراعات التى يشخصها تشخيصا بديعا فى قصص الصيد المعروفة حينا، ووصف مظاهر الطبيعة من الأمطار والسيول والحيوانات فى صورتها العنيفة حينا آخر،إلى جانب شعر الفروسية حين ينفك عن صورة المرأة انفكاكا كاملا، والشعر السياسى أو القبلى الذى يبتلع أطرافا واسعة من هذا الشعر، وفى قصائد الرثاء، وفى النموذج الذى يتحدث عنه بين المرأة وغرض المدح،أو بينها وبين غرض الاعتذار، أو بينها وبين وصف الحرب، وشعر الحكمة، ومعظم شعر الصعاليك.

وإذا كنا نجعل من المرأة محورا أو بؤرة تنبت منها أغراض القصيدة، فليس ذلك كابن قتيبة يقتصر على عدد من هذه الأغراض،أو يعلل البناء الموضوعى -أو الفرض على ما بين الغرض والموضوع من اختلاف فينبغى ألا ننسى للقصيدة الجاهلية تعليلا نفسيا قائما على ترابط الموضوعات أو تداعيها، ولكنه ترابط شكلى أو تداع قريب الغور، فليس يصدر عن أعماق النفس القصية .

ويراد بالصور الكلية توظيف الشعراء للغزل فى قصائد عن طريق الاحتفال بصفات معينة يبرزون بها جمال المرأة التى يتغزلون فيهاً متخذين من الصور العامة التى يرسمونها لهذه المرأة أو تلك مدخلا إلى أغراض القصيدة الأخرى، مما يؤلف، آخر الأمر، من الأغراض والصور ما يصح أن نسميه " مقولة" هذه القصيدة أو تلك.

ففى عينية "الحادرة" التى فتنت الرواة القدماء، ورواها المفضل رواية كاملة، إحساس بانشغاله بقضية معينة أخذ يتابع حديثه عنها من خلال غزله فى " سمية" فكيف أدار الشاعر حديثه مع صاحبته، يقول:

بكرت سمية بكرة فتمتع ... وغدت غدو مفارق لم يربع
وتزودت عينى غداة لقيتها ... بلوى البنينة نظرة لم تقلع
وتصدفت حتى استبتك بواضح ... صلت كمنتصب الغزال الأتلع
وبمقلتى حوراء تحسب طرفها ... وسنان حرة مستهل الأدمع
وإذا تنازعك الحديث رأيتها ... حسنا تبسمها لذيذ المكرع
بغريض سارية أدرته الصبا ... من ماء أسجر طيب المستنقع
لعب السيول به فأصبح ماؤه ... غللا تقطع فى أصول الخروع
أسمى ويحك هل سمعت بغدرة ... رفع اللواء لنا بها فى مجمع
إنا نعف فلا نريب حليفنا ... ونكف شح نفوسنا فى المطمع
ونقى بآمن مالنا أحسابنا ... ونجر فى الهيجا الرماح وندعى
ونخوض غمرة كل يوم كريهة ... تردى النفوس وغنمها للأشجع
ونقيم فى دار الحفاظ بيوتنا ... زمنا ويظعن غيرنا للأمرع
ومحل مجد لا يسرح أهله ... يوم الإقامة والحلول لمرتع
بسبيل ثغر لا يسرح أهله ... سقم يشار لقاؤه بالإصبع
فسمى ما يدريك أن رب فتية ... باكرت لذتهم بأدكن مترع

محمرة عقب الصبـــوح عيونـــهم	بمرى هناك من الحياة ومســـمع
متبطحين علـــى الكنيـــف كأنـــهم	يبكون حول جنـــازة لـــم ترفـــع
بكروا على بســـحرة فصبحتـــهم	من عاتق كدم الغـــزال مشعشـــع
ومعرض تغلى المراجـــل تحتـــه	عجلت طبختـــه لرهـــط جـــوع
ولـــدى أشـــعث باســـط ليمينـــه	قسما لقد أنضجـــت لـــم يتـــورع
ومسهدين مـــن الكـــلال بعثتـــهم	بعد الكلال إلـــى ســـواهم طلـــع
أودى الســـفار برمـــها فتخالـــها	هيمـــا مقطعـــة حبـــال الأذرع
تخد الفيـــافى بالرحـــال وكلـــها	يعدو بمنخرق القميـــص ســـميدع
ومطيـــة حملـــت رحـــل مطيـــة	حرج تنم مـــن العثـــار بدعـــدع
وتقى إذا مست مناسمها الحصـــى	وجعا وإن تزجر بـــه تـــترفع

نلاحظ إن الشاعر يدير معانى هذه القصيدة حول فكرة واحـــدة هـــى مناجاة " سمية" التى رحلت عنه، كما نلاحظ فيها، لوحـــة الغـــزل، ولوحـــة الفخر، ولوحة وصف مأساة هؤلاء القوم بعد رحيل " سمية".

أما اللوحة الأولى فقد راح الشاعر ينحت فيها ل" سمية" تمثالا نصفيـــا، يلح فيه على إبراز جمال وجهها ووضاءته، على نحو ما يشخصه لانتصـــاب جيدها، وحور عينيها وعذوبة، ريقها.

وأما الثانية فهى لوحة يقصد الشاعر فيها إلى البراءة من كل ما يشينه أو يشين سلوك قومه، على طريقة الجاهليين حين يعمدون إلى تصفية صفاتهم من كل ماتأباه تقاليد البيئة وتدينه أعرافها الدينية والخلقية والاجتماعية.

أما فى اللوحة الأخيرة، فقد أصاب الجدب ديارهم وأهـــزل دوابـــهم، وأضنى السفر ومتابعة السير شبابهم.

وقد كشف الشاعر فى هذه اللوحات عن حقيقة الرموز التى راح يبثـــها فى الصور والمعانى: فالشاعر حريص فى غزله على إبراز صبغة تمتاز بها صاحبته عن غيرها من النساء، هى عذوبـــة ريقـــها التـــى راح يشـــخصها

ويــؤكدها فــى صــورة ممتدة يقيم فيها صلة بين ريق صاحبته، فى صفائه وطيــبه، وعذوبــة المــاء الــذى تدره سحابة طرية ليلا، فى مستنقع دقيق الحصــى، يطــيب الماء فيه ويصفو، تماما كما يدر الحالب اللبن من ضرع الناقة. وهذا الماء الذى يشبه فى عذوبته ونقائه ريق صاحبته، يبلغ فى كثرته.

مــبلغ الســيل الــذى يــنحدر من كل ناحية فيجرى ماؤه فى أصول الأشجار جميعا.

ثــم نجد حوارا عنيفا فى اللوحة الثانية مع -(سمية)- ويلومها على موقفها من قومه، وسوء ظنها بهم، مقدما لها هؤلاء فى صورة أخرى تجتمع فــيها كــل المفاخــر القبلية من الوفاء بالوعد ورعاية الجار، والشجاعة فى الحــرب، والذود عن الأحساب، والصبر فى المكاره، ثم يعود فيرسم لهؤلاء القــوم أنفسهم صورة أخرى، تسجل معاناتهم وضياعهم بسبب ما حل بديارهم من الجدب، وأصاب دوابهم من هزال، وأضنى شبابهم من سير.

هــناك صلة بين ريق صاحبته، وبين الماء والسحاب والسيل، وهناك صــلة يقــيمها الشاعر بين رحيل هذه المرأة وجدب الديار وهزال الحيوانات وإضــناء القــوم، وما يتصل بذلك من حوار يختلط فيه لوحة " سمية" بدفاعه عن قومه وفخره بمآثرهم.

وقــد حشــد الحادرة فى وصف جمال صاحبته على صفة بعينها هى "عذوبة ريقها" عناصر الخصوبة من المطر والرياح والأشجار والسيول.

ونجــد صــورة فنــية للثــريا ربة الخصب ومانحة الغيث فى الديانة الجاهلية، يناجيها الحادرة متخذا إلى هذه المناجاة طريق التراتيل الدينية.

وقــد لفت نظرنا فى عينية الحادرة أو "كلمة الحويدرة"، على حد تعبير حســان بــن ثابت التى فتنت الرواة القدماء. فى هذا القسم الثالث أن معجمه اللغــوى يثيــر لونين من المشاعر متناقضين أحدهما قاتم كئيب تثيرها ألفاظ وصــور مختلفة كالبكاء والجنازة والجوع والكلال والسهاد والعطش، والآخر

مشرق وضاء كما فى هذه المفردات : الفتوة واللذة والخمرة والكرم والقطا ومباكرة اللذة والكرم، والفتيان والشجعان واعتساف الفلوات، والحياة وهى ملء السمع والبصر ...

وهذا التقابل بين هذه المفردات ليس تقابلا ضديا يحكمه التنافر، ولكنه تقابل تكاملى يرجح طرفا على طرف آخر، ويثبت معناه فى النفس، ويغذى أحدهما الآخر وينميه ويعمق صورته فى الوجدان . فهذا الجوع ينمى ويغذى فكرة الكرم، والعطش والكلال والسهاد تغذى فكرة الفتوة، والجنازة والبكاء يغذيان فكرتى الرئاسة والكرم، كما يعمقان مفهوم اللذة والإقبال الرائع على الحياة . وهذه الأفكار والمعانى والمشاعر تتآلف وتتكامل، لترسم صورة فنية،أو قناعا لشخصية الشاعر وحده .وبدهى أن تكون الصورة الفنية مطابقة للشخصية أو للواقع، فنحن أمام صورة مثالية لقبيلة الشاعر كما يحلم بها الشاعر نفسه، وكما يحلم بها المجتمع أيضا . وهذه الصورة الفنية هى ما يسميه الشارحون "الفخر"، وهذا الفخر ضربان : فخر قبلى نراه فى القسم الثانى من القصيدة، وفخر شخصى نراه فى قسمها الثالث . فالشاعر فى القسم الثانى يتحدث عن قومه جميعا دون تخصيص .

إن اللوحة الثالثة فى القصيدة لا تختلف فى دعواها وما تثيره من المشاعر والأحاسيس والمعانى عن اللوحة الثانية إلا فى أمر واحد هو أن اللوحة الثانية تدور فى رحاب الجماعة، أما اللوحة الثالثة فتدور فى رحاب الفرد، وهما لوحتان تتكاملان وتقدمان صورة مثالية للقبيلة وشاعرها .

ومن الملاحظ أن الشاعر فى اللوحة الثانية لم يستخدم ضمير المتكلم المفرد قط، بل استخدم ضمير الجماعة المتكلمين : لنا، إنا، نعف، نريب، حليفنا، نكف، نفوسنا، نقى، مالنا، أحسابنا، نجر، ندعى، نخوض، نقيم، بيوتنا، غيرنا...

أما فى اللوحة الثالثة فلم يستخدم الشاعر ضمير الجماعة المتكلمين قط، بل استخدم ضمير المتكلم المفرد : باكرت، على، صبحتهم، عجلت، لدى، بعثتهم، حملت، عرسته، رأسى، رفعت، منى...واستخدم ضمير المخاطب المفرد وهو عائد إليه :أنضجت . والضمير علامة نصية جديرة بالاهتمام والمتابعة، وهى قضية ذات خطر كبير، فعليها يتوقف فهم معانى الشعر، وعلى هذا الفهم يتأسس مذهب فى تفسير هذا الشعر.

أما لوحة غزل الأعشى فى المرأة فيعكس تهكمه بهذه المرأة الإلهية التى يتغزل فيها، وهو تهكم يغلب على صوره التى يرسمها للمرأة فى شعره، كما يغلب على قصص مغامراته معهن. يقول:

أوصلت صرم الحبل من ... سلمى لطول جنابها
ورجعت بعد الشيب تبغى ودها بطلابها
أقصر فإنك طالما ... أوضعت فى إعجابها
أولهن يلاحم فى الزجاجة ... صدعها بعصابها
أن القرى يوما ... ستهلك قبل حق عذابها
وتصبر بعد عمارة ... يوما لأمر خرابها
أو لن ترى فى الزبربينة بحسن كتابها
أو لم ترى حجرا وأنت ... حكيمة ولما بها
إن الثعالب بالضحى ... يلعبن فى محرابها
والجن تعزف حولها ... كالحبس فى محرابها
فخلا لذلك ما خلا ... من وقتها وحسابها
ولقد غبنت الكاعبا ... ت أحظ من تخبابها
وأخون غفلة قومها ... يمشون حول قبابها
حذرا عليها أن ترى ... أو أن يطاف ببابها

فبعثـــت جنيـــا لنـــــا يأتى برجـــع جوابـــــها

فمشى ولم يخش الأنيس فـزارها وخــلا بها

فتنازعـــا ســـر الحديـــث فـــأنكرت فـــنزا بـــها

عضـــب اللســـان متقـــن فطـــن لمـــا يعنـــى بـــها

صنـــع بليـــن حديثـــها فدنـــت عـــرى أســـبابها

قـــالت: قضيـــت قضيـــة عـــدلا لنـــا يرضـــى بـــها

فأرادهـــا كيـــف الدخـــو ل وكيـــف مـــا يؤتـــى لـــها

فى قبة حمـــراء زينـــها ائتـــلاف طبابـــها

فـــدخلت إذ نـــام الـــرقيب فبت دون ثيابـــها

حتـــى إذا مـــا استرســـلت مـــن شـــدة للعابـــــها

قســـمتها قســـمين كـــل موجـــه يرمـــى بـــها

فثنيـــت جيدغريـــــرة ولمســـت بطـــن حقابـــها

كالحقـــة الصفـــراء صـــا ك عبيرهـــــا بملابـــــها

وإذا لنـــا تـــــامورة مرفوعـــــة لشـــــرابها

وتظـــل تجـــرى بيننـــا ومفـــدم يســـعى بـــها

هـــزج عليـــه التومتـــا ن إذا نشـــاء عـــدا بـــها

كلفـــت عانســـة لمـــو نـــا فـــى نشـــاط هبابـــها

وردت على سعد بن قيس ناقتى ولمـــا بـــها

وجميع ثعلبة بن ســـعد بعـــد حـــول قبابـــها

من شربها المزاء ما استبطنت من إشـــرابها

وعلمت أن الله عمدا حســـها وأرى بـــها

وإذا عدنا إلى قضية الضمائر، وهى قضية مهمة فعليها يتوقـــف فـــهم معانى الشعر، وعلى هذا الفهم إذا قرأنا :

إن الثعـــــالب بـــــــالضحى يلعبـــن فـــى محرابـــــها

فإن الضمير المتصل "ها " لا يعود على "سلمى" بل يعود على مذكـور في بيت سابق هو "حجر" .

أو لـــم تـــرى حجـــرا وأن ت حكيمـــة ولمـــا بـــــها
إن الثعـــــالب بـــــــالضحى يلعبـــن فـــى محرابـــــها

وإذا قرأنا :

وجميـع ثعلبـة بـــن ســعد بعـــد حـــول قبابـــها

فإن الضمير المتصل "ها" لا يعود أيضا على "سلمى" فالشاعر قد خرج إلى وصف الصحراء والناقة، ولم ينس صاحبته ومجلسها، فالضمير هنا يعود على "ثعلبة بن سعد" بوصفها قبيلة أو جماعة، ولا علاقة له بـــالمرأة التـي تغزل بها سابقا .

اللوحة الأولى:

يقابل فيها الأعشى بين ماضى هذه المرأة وحاضرها، وبين صلة القديم بها وواقعه الحالى معها، كما يقابل بين ماضيها وحاضرها وبين مســتقبلها، ويمزج الأعشى فى هذه الصور المتقابلة، بين الأزمنة أو الأصوات الثلاثـة: الماضى والحاضر والمستقبل، كما يحرص وهو يعرض لوصف حبه معـــها وانبهاره بجمالها وفتنته بها على أن ينسب ذلك كله إلى أيـــام شـبابه التـي انقضت، وهو يعجب لنفسه ويلح فى لومها حين تدعوه إلى العودة إلى هـــذه المرأة التى صدعت قلبه بهجرها، صدعا لا يجبر مثل الزجاجة المكســورة لا يصلها ضم ما تفرق منها، وهو يدعو هذه النفس، لتأكيد رغبتـه فـى عـدم العودة إليها، إلى تذكر ما أصابه على يديها من أضرار فى أيامه الماضيـــة،

كما يدعوها إلى معرفة حقيقتها وما أعد لها، فى كتب داود، من عذاب، " أو لن ترى فى الزبر.." وما كتب على القرى التى ارتبطت بها من خراب بعد عمار، وهو خراب قد أخذ منه زمناً طويلاً يزحف على ديارها حين أصاب ثمود بالشام، فأخذت " الثعالب بالضحى يلعبن فى محرابها" كما أخذ عزيف الجن يسمع فى محرابها، تماما كما كانت "الحبش" تصوت وتصيح فى هذا المحراب، وحين يصل الأعشى إلى هذه النقطة ينهى كلامه عنها، فإن ذلك كله قد مضى إلى غير رجعة: ماضيه معها، ومكانتها فى قومها.

وفى اللوحة الثانية:

يحرص الشاعر على إشاعة السخرية بهذه المرأة التى يصفها بالسذاجة وقلة التجربة لصغر سنها، وهو يحقق هذه السخرية عن طريقين:

الأولى: هذه الصورة التى يرسمها ل" محرابها" الذى أخذت الثعالب تصيح فيه، بعد خرابه، صياح سدنتها من الحبش فيما مضى.

والثانية: يصف مغامرة جنسية له معها يحرص فيها على أن يكل أمر الإعداد لها إلى جنى له يتخطى أحراس قومها من حولها حتى يصل إليها، ويظل بها حتى يخدعها عن نفسها، فيلين حديثها وتدنو "عرى أسبابها " ويفصل الأعشى فى وصف لقائه بها واستمتاعه معها، فى صور ومعان حسية، وكأنه بذلك يريد أن يفضحها بين قومها.

وفى اللوحة الثالثة: يقص الأعشى كيف ركب ناقته بعد أن فرغ من مجلسه معها فحملته إلى قومها " بنى سعد بن قيس" الذين وجدهم عبيدا لها يعكفون على أنصاب صاحبته ويتعلقون بها، على الرغم من تلك الإهانة التى لحقت بها، والتى كشفها " الله" للناس جميعا يرون بها ذلك.

هذه اللوحات تعكس هذا التطور الذى أخذ يجد على عقائد الجاهليين الدينية، وهو تطور يتمثل فى سخرية الأعشى من هذه" الربة" التى يفضحها

ويمارس معها تجربة جنسية مكشوفة حين يتخذ من " سلمى رمزا لها، وهـــو تطور كان الأعشى يحققه هووغيره من شعراء هذه الفترة، عن طريق تلـــك المعارف الدينية التى لاشك فى أن الأعشى اكتسبها من البيئـــات المســيحية واليهودية التى كان يتصل بها على نحو ما تقص أخبار القدماء عنه.

وهكذا نجد عند الأعشى صورا تشكل لوحات متكاملة عن مغامراتـــه، ومن هذه الصور الغزلية التى يعرضها فى قالب قصصى، قوله:

فظللت أرعاها وظـــل يحوطـــها حتى دنوت إذا الظلام دنـــا لـــها
فرميت غفلة عينـــه عـــن شـــاتة فأصبحت حبة قلبه وطحـــا لـــها
حفظ النهار وبات عنـــها غـــافلا فخلت لصاحب لذة وخلا لـــهـــا

فهو يخالس الزوج ويخاتله، حتى يظفر ببغيته .غزل مـــادى صريـــح، رقة فى الغزل وشدة فى الوله والتعلق بالمحبوبة، حتى إن روحه لتكاد تســقط من بين جنبيه جزعا وصبابة، وخاصة حين الوداع، استمع إليه يقـــول فـــى مطلع معلقته:

ودع هريرة إن الركب مرتحـــل وهل تطيـــق وداعـــا أيـــها الرجـــل
غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينى كا يمشى الوجى الوحل
كأن مشيتها من بيـــن جارتـــها مـــر الســـحابة لا ريـــث ولا عجـــل

صبابة لا نعرفها عند الجاهليين، لكنه صاحب ذوق رقيق أثـــرت فيـــه الحضارة وجعلته دقيق الحس فهو يتذلل فى حبه، ويأمر قلبه أن يودعها قبـــل الرحيل.

صورة يصف فيها البشرة والشعر والعوارض والمشية الوانية وحليـها وصورة " تعلق الناس بطلعتها العطرة".

علقتها عرضا وعلقـــت رجـــلا غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

فهو يحبها وهى تعرض عنه وتحب رجلا آخر والرجل يحب أخـــرى ولكنها تشفق عليه:

قالت هريرة لما جئـــت زائرهـــا ويلى عليك وويلى منك يـــارجل

ونقف مع الأعشى عند هذه اللوحة التى يصور فيها النســـاء اللواتـــى يرفلن فى ثيابهن الجميلة مع الطرب والموسيقى والخمر، يعرضها من خـلال هذه الأبيات التى يقول فيها:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنـــى شاو مشل شلول شلشـــل شـــول
فى فتية كسيوف الهند قد علمـــوا أن هالك كل من يحفـــى وينتعـــل
نازعتهم قضب الريحـــان متكئـــا وقهوة مـــزة راووقـــها خضـــل
لا يستفيقون منها وهـــى راهنـــة إلا بهات وإن علـــوا وإن نـــهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطـــف مقلص أسفل الســـربال معتمـــل
ومستجيب تخال الصنج يســـمعه إذا ترجع فيـــه القينـــة الفضـــل
والساحبات ذيـــول الخـــز آونـــة والرافعات على أعجازها العجـــل
من كل ذلك يوم قد لـــهوت بـــه وفى التجارب طول اللهو والغـزل

اللوحة الأولى: لوحة للفتيان فى مجالس الخمر، وقد سعوا إليها بنظـرة من يغنم من الحاضر لذاته راسما أوانى الخمر وألوانها، وما تفعله بـــالعقول، وتحدثه بالقلوب.

أما الثانية: فصورة الساقى بما يتحلى به من أقراط، وما يلبســـه مـــن قميص قصير، متحركا فى الحانة بجد ونشاط.

واللوحة الثالثة: صورة النســاء اللائـــى يرفلـــن فـــى ثيـــاب الخـــز والحرير مع الغناء والموسيقى والرقص.

إنهـــا لوحات متكاملة رأيناها عند الشعراء فى هذا العصر ذات ظلال وإيحاء للعربى، يحس من خلالها بروعة المشاهد التى ينقلها إليه الشاعر فى صور جمعها لتحدث أثرها فى النفس، وهى لوحات يعرفها العربى ويدركها، ولكـــنه لا يشـــعر بإحساســـها وتأثيرها فى نفسه إلا بوساطة هذا الفنان الذى يخـــرج مكنونات الأشياء لتجد صداها فى نفس المتلقى. وهذه اللوحات التى يشـــكلها الفنان العربى، صورة للأطلال والظعن والرحلة والصيد، وما يتخلل ذلـــك مـــن حركة الحيوانات، وحركة الطبيعة المتمثلة فى الرياح والأمطار والسيول، وما تنشره من تجديد لحياة العربى على أرض الصحراء.

أمـــا المـــرأة فهى ذات دلالة خاصة عند العربى بصفة عامة، والفنان الشـــاعر بصفة خاصة، من أجل ذلك غاص فى بحرها، واستخرج مكنوناتها النفسية، فأجاد فى التصوير والوصف بحيث لم يترك شيئا فيها إلا ألقى عليه بفـــنه ما يجسده ويشخصه ويسبر أغواره، ثم يجمع هذه الصور ليكون منها لوحة كبيرة، وصورة كلية لمشاهد شتى.

ومـــا هـــذه الصور الكلية أو اللوحات المتكاملة إلا تركيب من أجزاء الصور المتناثرة التى اختص بها الشاعر. وتناولها فى شعره على حدة بضوء مخـــتلف لكل موقف، ثم جمع هذه الأضواء جميعها فى بؤرة واحدة ليلقى بها مجتمعة على نفس متلقيها، فتحدث الأثر المطلوب تبعا لشدة ضوئها.

ويمكن لنا بعد ذلك العرض للصور الجزئية والصور الكلية أن نقول : إن الشـــعراء ينتقلون من تشبيه إلى استعارة إلى كناية إلى صورة شعرية فى أشـــعارهم، وهم فى تعبيرهم عن معنى من المعانى، وقلما يعبر تعبيرا لغويا مباشرا.

ومن ذلك يتضح أن الصور عند الشعراء لها طبيعة خاصة تختلف من موقف لآخر، ويمكن أن نقول فيها إنها:

١- صـــور جزئية متنوعة يبنيها الشاعر غالبا بناء تشبيهيا ليعبر من خلاله عـــن معنـــى بعيـــنه، وهـــذا النوع نراه فى وصف الليل والخمر والمرأة ووصف الناقة والفرس وغير ذلك عند شعراء هذا العصر القديم.

٢- صور كلية أو لوحات متكاملة من خلال قص الأحداث وحكاية المواقف، ويعرف بصورة الحدث أو الموقف، وهو ضرب من التصوير يغلب على شـــعر المتاخـــرين مـــن شـــعراء الجاهلـــية أمثال زهير بن أبى سلمى، والأعشـــى، والنابغة الذبيانى، فى لوحاتهم عن السيل والصيد والصحراء والمرأة.

فالصور التشبيهية لها جوانبها السلبية كانصراف الشعراء إلى الوصف الخارجى، واعتمادهم على المبالغة والتكرار، وهى تشبيهات أخذت تتردد فى شـــعر الشعراء اللاحقين دون أن يضيفوا إليها شيئا يخلق منها صورا جديدة وأصيلة.

ونحـــن نلاحظ فى صور الشعراء أمثال امرئ القيس وعبيد وغيرهما شـــكلا فنـــيا وموضـــوعيا بعينه فقد جاءت سريعة فى حركتها، مركزة فى عناصرها، ثم أخذت تتسع وتمتد شيئا فشيئا.

وقـــد اعتمد الشعراء على العنصر الزمنى فى بناء صورهم إلى جانب عنصـــرى المقابلة والحركة.. وهذا ما نلاحظه فى شعر هذه الفترة القديمة. فهـــم يحركون مطاياهم ويوقفونها ورفاقهم على المنازل الدارسة إيحاء بهذه الحـــركة وتلك الحياة، وتصوير قوافل الإبل بالنخيل فى ارتفاعها وبالسفن فى علـــو الأمواج بها وهبوطها ويصورون حركة الرياح وحياة الحيوان، ونزول الأمطار..

ويعمـــدون إلـــى المقابلـــة بين الحاضر والماضى. وهم وصفوا الخيل والـــنوق والظـــباء والحمـــر الوحشية والثور والقطاة وغيرها من الحيوانات والطـــيور فـــى قصص الرحيل والصيد، وفى الأماكن التى تنقلوا فيها، وقد

تحولت هذه القصص بالوصف فى الشعر الجاهلى إلى اللوحات المتكاملة والنابضة بالحياة والحركة، فى صور متجددة متغيرة تكشف عن فنية كل شاعر على حدة.

فالصورة تناولت كل هذه الأحداث والطبيعة تكشف عن فنية الشاعر تجاه ما وقع عليه بصره فى حركة وتلوين، وفى تعبير متغير متجدد، يدعو إلى التأمل والتدبر فى الصورة الشعرية التى أنتجها الشاعر من فكره وخياله، وهو فى تصوير الأطلال وجدناه يصورها بكتاب منمق، وفى تصوير الحيوانات منتشرة فى الأماكن الصحراوية، وفى وصف الظعن والرحلة والصيد، وهذا ما جعلنا ندرك اختلاف الصورة بشكلها الذى رأيناه عن الصورة التقليدية فى إطار استخدام الكلمات والعبارات إلى جانب المجاز البيانى. وهنا يكون انفراد شاعر عن شاعر فى هذا المجال.

لقد بعث الشعراء الحياة فى الصور الثابتة، وجعلوها تنبض بالحركة والصوت واللون، وأصبح دارس الصورة الشعرية يشعر بأهميتها عند الشعراء القدامى، وأنها عندهم أخذت تنمو وتتجدد على أيدى بعضهم ممن كان لهم السبق فى التأثر بالحضارات والثقافات المختلفة المحيطة بهم، ومن خلال ممارستهم الحياتية، وخبراتهم الذاتية، وتجاربهم الشخصية.

فهذه اللوحات التى رأيناها عن السيل والصيد والصحراء والمرأة، جاء التطور فيها بالإضافة والتفصيل، وبث الحركة، وتلوين الصور وتحديدها زمانا ومكانا، على يد هذه الطائفة من الشعراء المتأخرين تطورا سريعا واسعا، فالنابغة الذبيانى، والأعشى، وأوس بن حجر، وزهير بن أبى سلمى، وغيرهم استحالت صورهم هذه إلى اللوحات الفنية والقصصية الرائعة التىتتسم بالنبض والحياة.

- الــرجيع: مــا تجتــره من طعامها. علاق: ما تطعمه الإبل من الشجر. مــروح: نشــيطة وعنتريس صلبة. نعابة: تمد عنقها فى سيرها. معناق: سير واسع للإبل. الإكام: المرتفعات. القتود: الرحل بأدواته. العجلة:قربة المـــاء. تواهق: مد عنقه فى السير. السواق: طويل الساق. مستبقل: حمار وحش. زر: طرد وعض. شهباء: سحابة بيضاء بسواد. رجوس: مرعدة. فراق: جمع فارق وهى السحابة المنفردة. الدرداق: دك متلبد من الرمال. الغضف: كلاب الصيد.
- الدويـــة: الصحراء المقفرة. الورد: الإبل. العيهامة: الناقة القوية. لم ترمه القـــوابس: لم يكن فيه أحد يقتبس نارا. الدوداة: الأرجوحة. شمط الرجال: كبار السن. الاجتواء: الكره. المضباب: الذى يمنع أصحابه الزاد من شدة بخله. حزه: قطعه. أعرض: ظهر.
- الصعل: صغير الرأس. مصلم: مقطوع الأذنين. التنوم والآء:نبتان والسى اسم أرض.
- السحيل: صوت الحمار وبه سمى مسحلا. يمئود: موضع.
- أرل: جــبل بــأرض غطفان. الصراد: سحاب بارد لا ماء فيه. الصرم: القطع من السحاب.
- حبـــى مكلــل: سحاب متراكم. قطن والستار ويذبل: أسماء جبال. بالشيم: بالنظر إلى البرق. صوبه: مطره الذى يصيب الأرض منه. دوح الكنهبل: شـــجره. تــيماء: مدينة بأرض الحجاز. الأطم: الحصن مشيد. المجيمر: جبل. أنابيش عنصل: البصل البرى. بعاعه: ثقله.

- أشحذت: كفت وأقلعت. تشتكر: يكثر فيها الماء. الشجراء: جماعة الشجر الملــتف. ريقهــا: أول استهلالها بالمطر. واه: مسترخ. آنيه: موجه. خيم وخفاف ويسر: أسماء أماكن. ممر: معتدل الخلق، مفتول العضل.
- العافيات: الدارسات.
- رادف: سحاب. جوز كل شيء وسطه. المفأم: العظيم الواسع. عمل: دائم. منطق: محاط به. متصل: ليس فيه خلل. الشرب: القوم المجتمعون لشرب الخمــر. درنا: بابا من أبواب فارس دون الحيرة. شيموا: انظروا. خنزير والــربو: مــا نشــر مــن الأرض. الحبل: جبل أو بلد. القينة: الأرض الشجراء. غرضا: أى غرضا للأمطار، القود: الخيل. الرسل: الإبل.
- المستكف: المطر المنهمر. مسف: قريب من الأرض. هيدبه: الخيوط التى تتدلى منه. شطب: اسم جبل فى تميم. أقراب: جمع قرب وهى الخاصرة. الأبلــق: الجــواد فــى لونه سواد وبياض. التج: أحدث صوتا عاليا وهو الــرعد. المنصــاح: الذى انشق بالماء. الريط: جمع ريطة وهى الملاءة. أجــش: صــفة للرعد، المبترك: المسرع فى عدوه. النجوة: ما ارتفع من الأرض. المحفــل: مســتقر الماء فى الأرض. المستكن: المقيم فى بيته. القرواح: الأرض المستوية.
- صوب الغمام: ماء المطر. يعل: يسقى مرة بعد مرة .
- الســبيئة:الخمر. الخص: حانوت الخمار. يسر: مغامرون وأغناء مياسير. الصحن: القدح الكبير. شجت: مزجت. خصر: بارد.
- تطور الصورة .
- خنســاء: بقــرة وحشــية. ســفعاء: سوداء فى حمرة. الملاطم: الخدود. مــزؤودة: مذعــورة. الفــرقد: ولد البقرة. بسلاح: يقصد قرنيها. طباها: دعاهــا. الضحاء: الرعى عند الضحى. الكناس: بيت الظبى فى الشجر. المؤسدات: المغريات بالصيد.

- الـــنجا: جمـــع نجوة وهى المرتفع من الأرض. النواشر: عصب الذرع. الممـــر: الشـــديد الفـــتل الموثق الخلق. أسيل الخد: سهله. النهد: الضخم. فلـــوناه: فطمناه. الشظى: عظم لاصق بالذراع. الصفاق: الجلة السفلى من بطـــنه. الأباجـــل: عروق فى اليد. المستأسد: ما طال من النبت. القريان: مجارى الماء. خرم الطراد: أخذوا جحاشه واحدا واحدا.
- خفـــاهن: أظهرهن. يداعسها بالسمهرى: يطاعنها بالرمح. الكابى: الساقط علـــى وجهـــه . قعضب: اسم رجل. نمش: نمسح. المضهب: لم ينضج. الهاديـــات: أوائل القطيع. ضاف: ذيل طويل. الأصهب: الأحمر المشوب بياضه بسواد.
- مفـــد: الدلـــو العظـــيمة. تجبيب: ارتفاع البياض إلى جبب الفرس. جذم: ســـريع. مقـــبوب: مضمر. سلحوب: أملس قليل اللحم. القصب: الخصر. مضـــطمر: ضامر. صقعاء: عقاب ذات صوت. شناخيب:رؤوس الجبال. من أمم: من قرب. الدف: الجنب. الشآبيب: الماء .
- لاقيـــنه : الكـــلاب. مـــا وتنه: استماتت فى طلبه. يوم أنفس: يوم ذهاب نفوس.
- الـــذيال: الـــثور الطويل الذنب. سفع: جمع سفعة وهى سواد يضرب إلى الحمـــرة. الـــذرع: بفتحتين، الصغير من ولد البقر. ضراء: الكلاب التى ضريت للصيد، الواحدة ضروة. اتدع: لم يجتهد فى عدوه. يلع: يكذب فى عدوه ولا يجد.
- الدوســـرى: الضـــخم الشديد. بويزل: تصغير البازل وهو الجمل المسن. مردى قذاف: كناية عن صبره على مشقات السفر. يشيح على الفلاة: يجد علـــيها. أذرع: أسرع، أسبق. المدل: الواثق من نفسه. الأخدرى: الحمار الوحشـــى. العانـــة: قطـــيع الأتن الوحشية. المصام: المقام. ساف: شم. الدحيق: الحمار المطرود المبعد عن الأتن. اللويا: النبات أخذ فى الجفاف.

دؤول: شـــديد النشـــاط. الطمل: الفقير. الشريانة: القوس. النضى: السهم. بـــرأة: الحفـــرة التـــى يختبى فيها الصياد. صوادیا: عطاشا. كميا: خفيا. معورات: مكشوفات. رثيما: مخضبا بالدماء.

- الأنساع: سيور عراض تشد بها الرحال. يحلئ: أى الحمار والتحلئة المنع مـــن الماء. ذبلا: ضوامر. الهيم: العطاش جمع هيماء. تفرى الأديم: تشق الجلد وتقطعه.
- مســـبوعة: أصابها السبع بافتراس ولدها. الصوار: قطيع من بقر الوحش. الفريـــر: ولد البقرة الوحشية والجمع فرار. عرض: ناحية. الشقائق: جمع شقيقة وهى أرض صلبة بين رملتين. قهد: أبيض. الشلو: العضو والجمع الأشـــلاء. غـــبس: جمـــع أغبســـة وغبســـاء والغبسة لون كلون الرماد. الاجتياف: الدخول فى جوف الشيء. التنبذ: التنحى. عجوب: أصل الذنب جمـــع عجب. النقا: الكثيب من الرمل والتثنية نقوان ونقيان والجمع أنقاء. الهـــيام: ما لا تماسك به من الرمال. الأزلام: قوائمها ومنه سميت الأقداح أزلامـــا. علهـــت: الانهماك فى الجزع والضجر. النهاء: جمع نهى وهى الغديـــر. التؤام: جمع توأم. السحق: الخلق. الخالق: الضرع الممتلئ لبنا. الـــرز: الصوت الخفى. الغضف من الكلاب: المسترخية الآذان. دواجن: معلمات. أعصامها: بطونها. السمهرية: الرماح. تقصد: قتل.
- العسير: الناقة لم تحمل فى عامها. خنوف: نشيطة. حوار: ولد الناقة أول ولادتـــه. خمـــال: داء يصـــيب قوائم الإبل. النكظ: الجهد. الميط: البعد. الآجـــال: قطعان البقر الوحشى جمع إجل. النطاف: جمع نطفة وهى بقية المـــاء. الأمعـــز: الأرض الغليظة الوعرة. المكوكب: المتوقد من الحر. وخـــدا: ضـــرب من السير السريع. النواجى: القوائم جمع ناجية. صعدة: الأتـــان. الضال: شجر من أشجار البادية. ملمع: حامل. فلاه: أبعده. نقب الخف: تشققه.

- المــدرى: القرن. العضد: داء ووجع فى العضد. مفتأد: موضع اشتوائهم اللحــم. صــدق: صــلب. واشق: اسم كلب وكذلك ضمران. العقل: غرم الدية، والقود: قتل النفس بالنفس.
- المستأنس: ثور، والجليل شجر. المصير: المعى وجمعه مصران وجمعها مصارين. المحجر: الملجأ.
- زجل: صوت.
- الأتلع: الطويل العنق. السميدع: الجميل الشجاع.

خاتمة

للغة أهمية كبرى على المستوى الفردي والاجتماعي، فهي وسيلة الإنسان للتعبير عن رغباته وأفكاره وأحاسيسه، وهي واسطته في تطوير مواهبه، وتنمية عقله، وإخصاب فكره وخياله، وأدواته لاكتساب خبراته ومهاراته، كما أنها وسيلة للتخاطب والتعايش وتبادل المنافع والمصالح، وبناء أو توثيق الروابط مع الأفراد والجماعات، وهي أيضاً الوسيلة الأساسية لنقل الثقافات والحضارات من جيل إلى جيل، ومن أمة إلى أخرى، ومن ثم فهي القاعدة الأولى التي يقوم عليها تطور حضارات الأمم، وتقدم الجنس البشري بنحو عام.

ولغة الكلام من الأهمية بمكان بالنسبة للإنسان، لأنها لغة العقل المفكر والمدبر، والذهن الناطق، والخيال الخصب، والنفس الفاعلة، والقوة القادرة على الخلق والإبداع، لقد تميزت هذه اللغة عن بقية أنواع اللغة، بقدرتها المتناهية على التعبير عن مكنون القلب وطوايا النفس، ودقائق الفكر، وهواجس الوجدان، وهمسات الشعور.

إن أنواع اللغة التي يستخدمها الإنسان ليست في واقعها سوى أدوات يستعين بها ليعوض عن بعض ما قد يفوته إدراكه، أو معرفته من لغة الكلام، أو ما لا يسمح الظرف للتعبير عنه بهذه اللغة.

والكلمة هي القاعدة الأولى، والأساس الرصين للغة الكلام، وهي معجزة الإنسان والهبة التي خص بها الله سبحانه وتعالى أجل مخلوقاته، حيث أعطى الإنسان ملك الكلام، وجعل الكلمة أداة له للإفصاح عن أعظم شيء تميز به عن سائر الأحياء، عن عقله المفكر، وفكره المبدع، لقد تميز الإنسان بقدرته على النطق، ونطقه يكمن في عقله المدبر، وفكره المبدع، ولسانه

المعبر. وتكمن أهمية الكلمة فيما ترمز إليه من معنى أو توجيه من شعور، أو تشير إليه من موقف، فما الكلمات إلا رموز يصطلح على معانيها، وإشارات لمدلولات ومفاهيم منفصلة عنها، لختصر الإنسان بها طريقة التعايش والتفاهم والتكافل، وتبادل المعارف والتجارب، والخبرات بينه وبين أبناء جنسه، وجعلها وسيلة لتحقيق رغباته، وتحصيل حاجاته، وليس غاية في ذاتها.

إن استخدام اللغة يكون للتخاطب والحوار الذي يأتي بعد عملية التفكير، فنستخدمها بعدة طرق، كأن نعطي معلومات عن واقعة أو نستفهم عنها، أو نطلب من أحدهم القيام بعمل ما أو نستفهم عن كيفية استخدام كلمة معينة، وللدلالة على موقف انفعالي؛ وهذه الطرق هي على ما يظن أهم الطرق التي تستعمل فيها اللغة، وثمة طرق أخرى عديدة منها على سبيل المثال: نظم الشعر- الإعراب عن التحية والسلام- إلقاء النكتة.. هذه الطرق جميعها هي التي عبر عنها العالم اللغوي "فنجنشتين" **Vingenstin** باسم "الألعاب اللغوية- ولعله يكون من الأوضح تسميتها بالطرق المختلفة في الاستعمال اللغوي: فمن الأسباب التي ينشأ عنها التفكير الأعوج، أو المخاطبة العوجاء، الخلط بين هذه الطرق المختلفة في استعمال اللغة. ومن أنواع الخلط هذا نوع بسيط واسع الشيوع جداً، هو الخلط بين التعبير عن أمر واقع، والدلالة على موقف انفعالي. فالشخص ذو الجلد الأسود قد يشار إليه واقعياً بقولنا عنه إنه "رجل أسود" أو قد يشار إليه على وجه الاحتقار والاستهجان الانفعالي قولنا إنه "زنجي" أو "عبد". وهناك كلمات أخرى تعبر عن احتقار أفراد أجناس أخرى مثل كلمة "خوزي" أو "دخيل" أو "لقيط".. ولا يمكن تقبل استخدام هذه الكلمات في أي حديث معقول ، فمتى أدركنا هذا الفرق القائم بين استعمال الكلمات استعمالاً واقعياً، واستعمالها استعمالاً انفعاليا، لاحظنا أن الكلمات التي تنطوي على إيحاء شديد نوعاً ما بوجود .

مواقف انفعالية شائعة جداً، وهي تستعمل في مناقشة مشكلات متنازع عليها، كمشكلات السياسة والأخــلاق والدين، وهذا الموضوع هو سبب من الأسباب التــي تجعــل الناس مهما طـــال جدالهم، ومباحثاتهم حول هذه المشكلات لا يقتــربون كثيــراً مـــن الوصـــول إلى حلول معقولة لها- وكلمة "صائم" إذا نظرنا لها في اللغة، وجدنا معناها: الإمساك عن الحركة، تقول العرب "نهار صـــائم" أي أن شمسه في وسط السمـــاء لا تتحرك، وهي في الشرع معناها: الإمســـاك عن الطعام والشراب، وما إليهمـــا، ولذلك كانت العرب تقول: من أعلــم باللغة، ولكن القرآن الكريم، وهو الـــذي نزل بلغة العرب - الله أعلم بمراده فيه.

وهــذه الكلمات مفيدة ولا شك، ولكنها مصدر خطر يتعرض له التفكير المعقول، ومن ذلــك مـــثلاً: إننا في أيام الحرب يكون تفكيرنا تحت سيطرة اتجاهاتـــنا الانفعالـــية مـــن استحسان تجاه قواتنا المحاربة، وتجاه أهدافنا من الحـــرب، واستنكار قوات العدو، وأهدافه من الحرب، وعندئذ نكون أميل إلى استعمال اللغة الانفعالية، فقد نتكلم عن الروح الطيبة لدى جنودنا، ولكن نتكلم عـــن "العقلية الخاصة بجنود العدو، أو عن بطولة جنودنا" ولكن عن "تهور" جـــنود العدو، ولكن متى حل السلام وعدنا بالذاكرة إلى الوقائع، ونظرنا إليها نظـــرة مجـــردة مـــن الهوى، فلابد لنا من أن ندرك أن كلمة "الروح" وكلمة "العقلية" لهما معنى واحد في واقع الأمر، غير أن كلمة "الروح" يرافقها معنى انفعالـــي من الاستحسان، في حين أن كلمة "العقلية" يرافقها معنى انفعالي من الاســـتنكار، ثم إننا ندرك كذلك أن الجندي الذي يتقدم في الحرب تحت وابل مـــن نيران القنابل، وخطر الموت المحتمل يقوم بعمل واحد، سواء كان هو أحـــد جنودنا، أو أحد جنوْد العدو، وأن محاولة التمييز بينهما باستعمال كلمة "الـــتهور" للتعبير عن عمل العدو، وكلمة "البطولة" للتعبير عن عمل جنودنا،

وهـــي محاولة فيها تزييف للواقع عن طريق استخدام كلمتين للتمييز بطريقة انفعالية بين عملين هما في الواقع متطابقان.

إن أخـــبار الحـــروب والثورات مصادر غزيرة لدراسة سوء استعمال الكلمـــات ذات المعاني الانفعالية، وهذا يجعلنا لا نستغرب إذا قرأنا كتاباً عن أي ثـــورة أو حرب، فإذا اختيرت الكلمات وكانت ذوات صبغة انفعالية، فإن الأثـــر الـــذي يحـــدث فـــي الـــنفوس، قد يتم التوصل إليه بمجرد استعمال هـــذه الكلمـــات. واســـتعمال الكلمات في الشعر (كما دلل على ذلك تشارلتن Charlton) في كتابه "The Art of Literary Study" "فن دراسة الأدب"، يكـــون فـــي مكانـــه الصحيح لأن إثارة الانفعالات المختلفة تؤلف في الشعر جـــزءاً مهماً من المقاصد التي تستعمل هذه الكلمات من أجلها.. في قصيدة " The Eve of St. Agnes" للشـــاعر الإنجليـــزي "كيـــتس" Keats - هذه الأبيات:

"أشـــرق الـــبدر كاملاً في ليلة من ليالي الشتاء على هذه النافذة، فالقى شفرة مدماة على نحر "مادلين" الوضاء"..

هذه أبيات جميلة ، ولننظر الآن لنرى مبلغ الجمال المتأتي من اختيار الكلمـــات ذوات الصبغة الانفعالية اختياراً صحيحاً، ومبلغ الجمال الذي يزول لو استعضنا عن هذه الكلمات بكلمات أخرى محايدة، فالكلمات هنا التي تجلب الانتباه من حيث أنها كلمات انفعالية هي: النافذة- الحمرة- مادلين- الوضاء والنحر..

فكلمـــة نافذة تعني ببساطة نوعاً من أنواع الشبابيك، ولكن مع إيحاءات وجدانـــية وكلمـــة "شفرة مدماة" تعني اللون الأحمر في اصطلاح الفروسية، وتوحـــي بكل المعاني الرومانسية المرتبطة بالفروسية، "ومادلين" اسم الفتاة، ولكـــنه يثيـــر فـــي الـــنفس انفعالات لا يثيرها اسم عادي آخر لفتاة، وكلمة

"وضاءة" لا تعني فقط أن بشرتها بيضاء صافية اللون، وهو شرط ضروري لكي تظهر ألوان النافذة، ولكنها تنطوي أيضاً على تفضيل انفعالي واضح للبشرة النقية البضة على البشرة الصفراء أو الأرجوانية أو السوداء، أو أي لون يكون عادة للبشرة، وكلمة "نحر" لها مثل هذا المعنى الانفعالي. ولو أردنا أن نقدم وصفاً علمياً مجرداً لكانت كلمة محايدة مثل" الصدر" كافية، ولو أننا استعملنا كلمات واقعية بدل هذه الكلمات الانفعالية، لتغير الإحساس والانفعال، وأن القيمة الشعرية سوف تضيع، كذلك تكون المحادثة فاترة إن لم تتضمن ما يشير إلى إحساس المتكلم وشعوره تجاه الأشياء التي يتكلم عنها، وتؤدي هذه الإشارات بطرق مختلفة منها استعمال كلمات مشحونة بالانفعالات ومنها تغيير نبرة الصوت، وما من أحد يريد أن تخلو المحادثة من هذا العامل.

إن الغرض النفساني من الانفعال، هو حمل الغير على العمل بصورة فعالة ومجدية، ولكي يتمكن المعلم من إبلاغ أفكاره ورغباته إلى المتلقي. فمن الضروري أن يفهم المتلقي معاني الكلمات التي تأتي في النص سواء كان شعراً أو نثراً، وفهم معاني الكلمات يكون أحياناً مضموناً بصورة كافية باستعمالنا كلمات ذات معاني مفهومة، أو تفسر بهذه المعاني المفهومة، وهي التي نسميها "اللغة المعاصرة"، ويجب أن نبعد عن استعمال الكلمات التي لها معنيان، أو أكثر، فاستعمالها إذا كان ليس من السهل التمييز بينهما قد يؤدي بنا إلى كثير من التفكير الخاطئ. وثمة شيء آخر، فإن ما يقدم للمتلقي لابد أن يكون سهلاً واضحاً، فإن استعمال كلمة ليس لها معنى واضح عيب يستحيل معه أي تفكير دقيق صحيح. ولننظر أولاً في كيفية التخلص من الغموض في عقولنا وتفكيرنا نحن قبل النظر في كيفية مكافحتنا للغموض في حجة الخصم، وقد نبدأ هذا الأمر بالرجوع إلى تعريفات الكلمات في القاموس، على أن هذا لا يكفي لضمان استعمالها على الوجه الصحيح،

ويكون هذا الحال معنا شبيهاً نوعاً ما بحالنا لو أننا قرأنا مثلاً وصفـــاً دقيقـــاً لسمكة من أسماك أعماق البحر، ووجدنا أن هذا الوصـــف يقصتـــر عـــن أن يمكننا من رسم صورة لهذه السمكة، أو حتى للتعرف عليها عند رؤيتها..

والكلمة لا قيمة لها ما لم تدب فيها الحياة والحرارة وتنتقل مـــن عـــالم الركود إلى عالم الحركة، وهي لا تكون كذلك إلا بعد أن تقـــترن بغيرهـــا، وتأنس إلى ما يحاورها، وتعانق ما يضم إليها عناق القرين لقرينه، وتظـــهر من صيغة يرتضيها القلب، وتقبلها العيـــن، ويســـتعذبها الســـمع، ولا تبلـــغ ذلك ما لم يتمكن الإنسان منها، وتكن له البراعة في اختيارهـــا وانتقـــاء مـــا يلابسها ويلائمها، ويقبل الاقتران بها، ومن هنا تنشـــأ أهميـــة الـــثراء فـــي اللغة وسعة المحصول من مفرداتها، ومن ثم البراعة في صياغـــة الكـــلام وتأليفه.

والبراعة في التعبير لا تعني القدرة على صـــف الكلمـــات، وتـــأليف الألفاظ، وصياغة العبارات، وإنما تعني شحن هذه العبـــارات بطاقـــة مـــن الأحاسيس والأفكار والمعارف.

معرفة الإنسان باللغة، وبلغة الكلام خاصة، أساس لاكتساب المعـــارف والخبرات فباللغة يفهم الإنسان ما ينطق ويستوعب ما يكتـــب، وكلمـــا زادت معرفته بها واتسعت حصيلته من مفرداتها ومعانيـــها، زاد فهمـــه وعلمـــه، واتسعت خبراته وتجاربه، وانطلق فكره، وصقل خيالـــه وموهبتـــه، وزادت قابليته على العطاء، وكلما قلت معرفته باللغة ونقصت ذخيرته من مفرداتـــها ومعانيها، ضعف فهمه وتضاءل على إدراكه وقلت خبرته ومعرفته، ونقـــص علمه، فلم يتهيأ لفكره أن ينتج، ولا لموهبته أن تبدع، فالإنسان يقـــاس بمـــا ينتجه عقله، وتبدعه مواهبه، كما تقاس الأمم بما تنتجه عقول ومواهب أبنائها من أفكار وأعمال وإبداعات تشارك بها فـــي تكويـــن وتطويـــر الحضـــارة

الإنسانية، وتقدم الجنس البشري. فللغة وألفاظها وتراكيبها أثر على ثقافة الفرد وعلى شخصيته، وعلى نفسيته ومركزه الاجتماعي.

وليس من شك في أن المصدر الأول للغة ولمفرداتها وصيغها المختلفة هو المجتمع، إذ اللغة تولد وتنشأ وتنمو وتتجدد في أحضان المجتمع، والفرد يكتسب لغته من مجتمعه، بدءاً من مجتمعه الصغير المتمثل في أسرته، وإن توقف مدى اكتسابه لها من أسرته على ما رزق من ملكة في تلقنها وتمثلها، وما امتلك من قدرة على المحاكاة والتقليد فيها، وما وهب من قدرة على الفهم، وسرعة في الحفظ، وقوة على التذكر، وما لديه من صفاء الخاطر وطموح النفس، ثم ما لدى هذه الأسرة من معرفة، وإحاطة باللغة، وما تتاح له من فرص فيها للاكتساب والتحصيل.

لقد انتشرت أدوات الاتصال بين الإنسان والإنسان، عن بعد وعن قرب من مثل الراديو والتليفزيون والسينما والحاسب الآلي والإنترنت، والتقت من خلالها الألسن والعقول والثقافات والحضارات على اختلافها، فيكتسب الإنسان بواسطتها المعارف والفنون، ويكتسب الصيغ والألفاظ أيضاً، عن طريقها يلتقي الإنسان بطائفة من أهل لغته، ويسمع حوارهم، ويصغي لأحاديثهم، فيلتقط ذهنه، وتختزن ذاكرته من تراكيب وألفاظ لغتهم على قدر إصغائه إليهم، وبمقدار ما يمتلك من فطنة ونباهة ومقدرة على الربط والتمييز والحفظ، ثم على مقدار ما يتمتع به المتحدثون أنفسهم من فصاحة وتصوير تجسد به عباراتهم فتجعلها قريبة من النفوس، عالقة في الأذهان، مع العلم بأنه قد لا يكتسب منهم ألفاظ اللغة مثلما يكتسبها من الناس عندما يلتقي بهم في واقع حياته وجها لوجه لأنه لا يرى من خلال معظم هذه الأجهزة إلا أشباحا تتحرك من دون روح، وصورا تحيا من دون أن تحس، ولا يسمع إلا أصواتا تتردد دون أن تستجيب، وألسنة تنطق لا تحاور، ولذلك فهو لا يجد

مجالاً للرد ، ولا نصيباً من الحوار، وأخيراً فهو لا يمارس ما يكتسبه من ألفاظ بالقدر الذي يكفل له استقرارها في ذاكرته، وهذا لا ينفي لأهمية هذه الأجهزة في نشر اللغة، وتلقين مفرداتها، فلها الدور الكبير في تلقين اللغة، للإنسان وفي إيصال ما استقر وما تغير أو تجدد واستحدث من مفرداتها إليه. إنها أدوات نافذة المفعول، سريعة التأثير، قريبة المتناول، كثيرة الانتشار، يصل بعضها إذا لم يكن أكثرها إلى الداني والقاصي، والغني والفقير، والقادر والعاجز، ويأنس إليها الكبير والصغير، الأعمى والبصير، القارئ والأمي، بل لا يكاد يكون لأحد في يومنا الحاضر عنها أو عن بعضها غنى، ولذا يجب رعايتها من رجال اللغة، وأهل العلم وذوي السلطان، وأن يسخروها في نشر اللغة، وإغناء حصيلة كل من يستخدمها من مفردات اللغة وصيغها وتراكيبها السليمة الصحيحة، فهم بذلك ينشرون العلم، ويوسعون مدارك الناس، ويخدمون المجتمع ويرتقون بحضارة الأمة.

ويلتقي الإنسان في المدرسة في مختلف مراحلها بفئات خاصة من أبناء مجتمعه لقاءً منتظماً مستمراً، فيتعلم اللغة، ويتلقن ألفاظها، بالسؤال والدرس الواعي وبالمحاكاة والاقتداء يتلقنها من مدرسيه، ويتعلمها مما يقرأ من دروس، ويحفظ من نصوص، ويكتب من موضوعات، وينطق من عبارات، وهو يسأل ويجيب أو يحاور ويناقش، ومما يختاره من قصص وقراءات حرة. ويتلقى من زملائه ألفاظ اللغة، يتحدث إليهم ويحاورهم ويناقشهم أو يجادلهم، فيلتقط الكثير من مفردات اللغة التي اكتسبوها من موارد اللغة الخاصة والعامة، كل بحسب أسرته ومحيطه ونشأته، وبذلك فهو يتلقن اللغة ويتلقى تراكيبها وصيغها من هذه الموارد بجميع مستوياتها وأشكالها، الفصحى المنتقاة والعامية الدارجة، ولابد للمدرسة أن توفر كل الوسائل الممكنة التي تشعر بحيوية اللغة الصافية النقية، وبفاعليتها وشدة ارتباطها بالواقع العملي لتجذب الفرد إلى هذه اللغة، وتشعره بأهميتها، فيتجه لاكتساب

المهارة فيها، وإغناء حصيلته من مفرداتها، كما يجب أن توفر لـــه الفــرص الكافية لممارستها وتجسيدها تجسيداً يرتبط فيه الرمـــز بـــالمدلول، واللفــظ بالمعنى، ليتمكن من إنعاش أو إحياء ما يتوافر له من تراكيبـــها وألفاظـــها، ومعانيها فتنمو وتتسع ، ويكتسب الفرد مفردات اللغة من القـــراءة الحـــرة، القراءة التي ينجذب إليها ويتذوقها باختياره، فتكون أجـــدى فـــي تحصيلـــه اللغوي.

فالقراءة مورد خصب لألفاظ اللغة وصيغها إذا أحسن انتقـــاء المـــادة المقروءة، وأحسن اختيار الوقت المناسب، والوضع اللائق، والنـــهج الســـليم للقراءة، وعن طريقها يمكن للإنسان أن يطلع على الفصيح من المفــردات، إذ أن لغة النتاج الفكري المدون هي الفصحى، كما يمكن أن يطلع علـــى قديـــم اللغة وحديثها، فهو يختصر الزمان بهذه القراءة، ويتجاوز عصره، وينفذ إلى التاريخ من كل باب، كما يستطيع أن يتجاوز بها حدود المكـــان فـــيرى مـــا استخدم من ألفاظ اللغة ومعانيها بين أفراد الأمة علـــى اختـــلاف طبقاتـــهم، ومستوياتهم ومواطنهم، لقد استخدم الإنسان معظم ما ابتكر أو وضع من ألفاظ وتراكيب لغته فيما دون من نتاج فكره، وثمار تجاربه وإبداع عقله منـــذ أن عرف الكتابة، فإن القارئ يجد في تراث أمته المدون، وســـجل حضارتـــها المكتوب كنزاً موفوراً من مفردات اللغة وصيغها.. يجـــد هـــذه المفـــردات والصيغ بكل مدلولاتها ومفاهيمها وإيحاءاتها، وبكل ما خضعـــت لـــه مـــن تغيرات وتطورات عبر مسيرتها على مر العصور. يلتقط منها وهو يقرأ مـــا يسعفه فهمه، وتمكنه حافظته من التقاطه، ويدرك من معانيها ومدلولاتها مـــا يساعده ذكاؤه وإحساسه على إدراكه.

والمحصول اللفظي الذي يمكن أن يكتسبه الفرد، لا يكون فاعلاً نافعـــاً، ما لم يكن نشطاً في الذهن، حياً في الذاكرة مرناً طيعاً جاهزاً للاســـتخدام، ولا

وسيلة لتحقيق ذلك أفضل ولا أهم من الممارسة، فممارسة المكتسب تمنع ركودها، وتحميها من النسيان، وتجدد فيها الحياة، وتكسبها حيوية وحرارة وتخصبها.

ويعد الاستماع نوعاً من ممارسة اللغة، ومثلما يكون له من الأثر في تلقي مفردات اللغة، وفي التعرف على معانيها وطرق استعمالها، وطرق نطقها، يكون له أثر كذلك في تثبيت وترسيخ ما تتلقاه الذاكرة منها، وفي إنعاش أو إحياء ما ترسب منها في هذه الذاكرة، إذ يتردد نطقها ويتكرر استعمالها، وتتجسد في السمع حروفها ومعانيها.

والتحدث إلى الآخرين ومحاورتهم ومشاركتهم ومخالطتهم في الكلام تعد ممارسة للغة ووسيلة لإثارة وتحريك ما اختزنته الذاكرة من مفرداتها، كما أن القراءة ممارسة فاعلة للغة، ولممارسة اللغة أثر في إنعاش لغة الفرد، وجعل حصيلته من مفرداتها ثرية نابضة بالحياة، نشطة طيعة، مرنة في أداء وظائفها، فمن المهم الحفز على ممارسة اللغة بجميع أشكالها وصنوفها ونشاطاتها، والتشجيع على هذه الممارسة، بتوفير الفرص وتهيئتها لذلك.

ولا ننسى أثر المعاجم في تحصيل اللغة، فإن مقدار ما يمكن أن يكتسبه الفرد من مفردات من معاجم اللغة، يعتمد بصورة أساسية على مدى توافر هذه المعاجم، وتنوع المتوافر منها، وعلى طرق إخراجها، وتصنيف المفردات فيها، ثم على معرفة الفرد بطرق استخدامها، وما يتأتى له من بواعث ودوافع لهذا الاستخدام، ولذلك فإن تعليم اللغة للفرد وتهيئته لاكتساب حصيلة وافية من مفرداتها، يقتضيان توفير المعاجم اللغوية المناسبة له، المتلائمة في أحجامها وأشكالها وأنواعها مع مستواه العقلي والعلمي، وتوفيرها في المدرسة، والفصل والبيت، وفي المكتبات العامة والخاصة التي

يمكن أن يرتادها، ثم تعريفه على مناهج هذه المعاجم، وعلى طرق استخدامها، وحثه المتواصل على الرجوع إليها منذ المراحل الأولى من التعليم..

وعلى ذلك فلابد من اختيار ماله قيمة لغوية لما يقدم للمتلقي، فإن ما يحتويه المقدم والمعروض من كلمات مشحونة تترك أثرها في نفس المتلقي، وعلى المدرس أن يقوم بهذه المهمة، ولكي يستطيع لابد له من خلفية لغوية كبيرة، فإنه يكون قديراً لو أمكنه أن يعطي مثالاً بسيطاً يفي بتوضيح معنى موقف من المواقف التي تعرض لها صاحب النموذج وقرأها التلميذ في كتابه، وحاول أن يجعلها تفسيراً مرضياً متمشياً مع انفعال القائل، وشحنة الكلمة، وعلى المدرس أيضاً أن يلجأ إلى حيل الإيحاء للحصول على موافقة تلاميذه على ما يقوله، وحقيقة الإيحاء الواقعية من وجهة نفسانية تتمثل في الواقع المعروف بأن الإنسان إذا داوم على تكرير قول مرارا متوالية بلهجة الواثق من قوله، دون حجة أو برهان، فإن السامعين لهذا القول يميلون إلى تصديقه، والإيمان به، والمدرس الذي يستعمل طريقة الإيحاء يعتمد في ذلك على التكرار، والثقة والثبات، على أن الثقة في النفس من أهم عوامل النجاح في مهنة المعلم، ذلك أن المعلم إذا تحدث بلغة الواثق، أقبل عليه تلاميذه راضين، واستطاع أن ينفذ إلى قلوبهم، يدفعه في ذلك أمانته العلمية، وقدرته الثقافية، وتمكنه من مادته، فهي التي تخلق له الوجاهة بمعناها الذي يترك هيبة في نفس السامعين.

د. خالد الزواوي

المراجع

١- د. إبراهيم إمام: الإعلام الإذاعي والتليفزيوني- دار الفكر العربي ط بيروت، ١٩٨٥م.

٢- د. إبراهيم عصمت مطاوع: في التربية المعاصرة، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٧٧.

أصول التربية ط١، دار المعارف المصرية، ١٩٧٩.

٣- د. إبراهيم وجيه محمود: التعلم، دار المعارف المصرية، ١٩٧٩.

٤- د. أحمد حسين اللقاني: المناهج بين النظرية والتطبيق ط٢، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٢.

٥- د. أحمد زكي صالح: علم النفس التربوي ج١، ط١١، وج٢ ط١٠، مكتبة النهضة المصرية، د.ت.

٦- د. حامد عبد السلام زهران: علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة) ط٤، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧.

٧- د. حلمي المليجي: علم النفس المعاصر ط٦- دار المعرفة الجامعية- مصر، ١٩٨٤.

٨- د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، إعداد المعلم للتعليم العام- وزارة التربية- بحوث والمناهج- الكويت، ١٩٧٦.

٩- د. سعدية محمد علي بهادر: الإفادة من تكنولوجيا التعليم في تصميم برامج تدريب المعلمين المبنية على الكفاية- مجلة تكنولوجيا التعليم- ديسمبر ١٩٨١.

١٠- د. عادل عز الدين الأشول: علم النفس النمو ط١- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٢.

١١- د. فؤاد عبد اللطيف أبو حطب، علم النفس التربوي- ط٢- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٨٣.

١٢- د. محمد خليفة بركات: علم النفس التعليمي ج٢ ط١- دار القلم- الكويت ١٩٧٦.

١٣- د. محمد صلاح الدين مجاور: المنهج المدرسي- أسسه وتطبيقاته التربوية ط٢- دار القلم- الكويت ١٩٧٤.

١٤- د. محمد نبيل النجيجي: فلسفة التربية- مكتبة سعيد رأفت- القاهرة ١٩٧٦.

١٥- د. محمد الهادي عفيفي: في أصول التربية- الأصول الفلسفية للتربية- مكتبة الأنجلو المصرية- ١٩٧٧.

١٦- د. محمود عبد الرازق شفشق: التربية المعاصرة - طبيعتها وأبعادها الأساسية ط١- دار القلم الكويت ١٩٧٤.

١٧- د. خالد محمد الزواوي: التعليم المعاصر قضاياه التربوية والفنية- مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع- ط١، القاهرة، ٢٠٠١.

١٨- والتر ج. أونج: الشفاهية والكتابية، ترجمة د. حسن البنا عز الدين- عالم المعرفة (١٨٢)- الكويت شعبان ١٤١٤ هـ / فبراير، شباط ١٩٩٤.

١٩- د. نايف خرماو و د. علي حجاج: اللغات الأجنبية، تعليمها وتعلمها- عالم المعرفة (١٢٦)- الكويت شوال ١٤٠٨هـ/ يونيو/ خريران ١٩٨٨.

٢٠- روبرت هـ ثاولس: التفكير المستقيم والتفكير الأعوج، ترجمة حسن سعيد الكرمي- عالم المعرفة (٢٠) الكويت رمضان/ شوال ١٣٩٩هـ- أغسطس/ آب ١٩٧٩.

٢١- د. نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة- عالم المعرفة (٩)- الكويت رمضان/ شوال ١٣٩٨هـ سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨.

٢٢- د. هادي نعمان الهيتي: ثقافة الأطفال- عالم المعرفة (١٢٣)- الكويت، رجب ١٤٠٨هـ- مارس/ آزار ١٩٨٨.

٢٣- عزيز أباظة: "لغة الشاعر" مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٢٥- رمضان ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩.

٢٤- ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، دار الكتاب العربي ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢؟

٢٥- ابن خلدون: المقدمة، بيروت، دار لبنان، د.ت، وطبعة بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩.

٢٦- ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس بيروت: دار الثقافة، د.ت.

٢٧- ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق د. مصطفى الشويمي، بيروت ١٩٦٣.

٢٨- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف- القاهرة، ١٩٨٤.

٢٩- أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني: الأغاني، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار إحياء الكتب العربي، ط بيروت ١٩٨٥.

٣٠- د. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ- ط٦- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٦.

من أسرار اللغة ط٦- مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨.

٣١- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة- ترجمة د. كمال محمد بشر- مكتبة الشباب- القاهرة ١٩٧٥.

٣٢- د. السعيد بدوي: مستويات العربية المعاصرة في مصر- دار المعارف المصرية ١٩٧٣.

٣٣- د. كمال محمد بشر: علم اللغة العام، القسم الثاني: الأصوات اللغوية- دار المعارف المصرية ١٩٧٥.

٣٤- مقاتل بن سليمان البلخي: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، دراسة وتحقيق د. عبد الله محمود شحاتة الهيئة المصرية العامة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٣٥- أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر- تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد- مطبعة السعادة- القاهرة ١٣٧٧هـ.

٣٦- الجاحظ : البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوى- مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨.

البيان والتبيين ط٥، تحقيق عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون- دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.

٣٧-د. حسن حسين جامع: التعلم الذاتي وتطبيقاته التربوية- مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ١٩٧٦.

٣٨- د. محمد حسن حسن جبل: الاحتجاج بالشعر في اللغة: الواقع ودلالته- دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٣٩- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز : قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، ٢٠٠٠م.

٤٠- محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء: قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، تقديم عبد الحكيم راضي، الهيئة العامة لقصور الثقافة (الذخائر) ٢٠٠١- السفر الأولى والثاني.

٤١- أنور الجندي: الفصحى لغة القرآن- دار الكتاب اللبناني- بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٤٢- د. محمود فهمي حجازي: علم اللغة بين التراث والهيئة المصرية العامة ١٩٧٠.

٤٣- د. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ط٣- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.

مناهج البحث في اللغة- دار الثقافة- الدار البيضاء- ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.

٤٤- د. محمد كامل حسين: اللغة العربية المعاصرة- دار المعارف المصرية ١٩٧٦م.

٤٥- أحمد عبد الرحمن حماد: عوامل التطور اللغوي، دراسة في نمو وتطور الثروة اللغوية، دار الأندلس - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٤٦- د. حلمي خليل: اللغة والطفل، دراسة في ضوء علم اللغة النفسي، دار النهضة العربية- بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

٤٧- د. عبد الله درويش: المعاجم العربية- مطبعة الرسالة- القاهرة ١٩٥٦م.

٤٨- جون ديوي: المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن الرحيم- دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر- بيروت.

٤٩- د. عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية- دار النهضة العربية- بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢.

٥٠- فخر الدين الرازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق د. بكري شيخ أمين- دار العلم للملايين- بيروت ١٩٨٥.

٥١- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ط١ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

٥٢- د. إبراهيم السامرائي: فقه اللغة المقارن ط٤- دار العلم للملايين- بيروت ١٩٨٧م.

٥٣- جلال الدين السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة، د.ت.

٥٤- فاروق شوشة: لغتنا الجميلة- دار العودة- بيروت، د.ت.

٥٥- د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط٩، القاهرة- دار المعارف ١٩٧٦.

٥٦- د. حسن ظاظا: كلام العرب: من قضايا اللغة العربية- دار النهضة العربية- بيروت ١٩٧٦.

٥٧- أبو هلال العسكري: الصناعتين: الكتابة والشعر ط١، تحقيق وضبط د. مفيد قميحة، دار الجيل- بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٥٨- عباس محمود العقاد: اللغة الشاعرة- دار الإعلان ١٩٦٠م.

٥٩- إدريس بن الحسن العلمي: "مع المعجم الوسيط" في طبعته الثانية، واللسان العربي، العدد الثالث والعشرون، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٣م، واللسان العربي، العدد الثلاثون، ذو الحجة ١٤٠٨ هـ/ يوليو ١٩٨٣م.

٦٠- د. أحمد مختار عمر: أخطار اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين ط٢، عالم الكتب- القاهرة، ١٩٩٣م.

٦١- غيورغي غاتشف: الوعي والفن، ترجمة د. نوفل نيوف، ومراجعة د. سعد مصلوح، عالم المعرفة (١٤٦) رجب ١٤١٠هـ/ فبراير- شباط ١٩٩٠م.

٦٢- وجدي رزق غالي: المعجمات العربية، ببلوجرافية شاملة مشروحة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٦٣- محمد بن يعقون الفيروز آبادي: القاموس المحيط- دار الجيل- بيروت، د.ت.

٦٤- د. شكري فيصل: مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي ط٥، دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٨٢.

٦٥- أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي: بذيل الأمالي والنوادر- دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت د.ت.

٦٦- حازم القرطاجني: مناهج البلغاء وسراج الأدباء، ط٢- تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة- دار الغرب الإسلامي- بيروت ١٩٨١.

٦٧- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ١٩٧٢.

٦٨- د. أحمد محمد المعتوق: دور وسائل الاتصال السمعية والبصرية في تنمية الحصيلة اللغوية، رسالة الخليج العربي، العدد السابع والأربعون، السنة الرابعة عشرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

الأدب وأثره في تنمية الحصيلة اللغوية، القافلة، رجب ١٤١٣هـ/ ديسمبر ١٩٩٢م، يناير ١٩٩٣م.

٦٩- د. محمد مندور: حول الرمزية في اللغة الشعرية "لغة الشعر" مجلة مجمع اللغة العربية- العدد الثاني عشر ١٩٩٠م.

٧٠- د. مصطفى مندور: اللغة بين العقل والمغامرة- منشأة المعارف- الإسكندرية ١٩٧٤.

٧١- د. مصطفى ناصف: نظرية المعنى في النقد العربي- دار الأندلس- بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٧٢- د. حسين نصار: المعجم العربي: نشأته وتطوره- دار مصر للطباعة- القاهرة د. ت.

دراسات لغوية ط٢- دار الرائد العربي- بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٧٣- عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني: الألفاظ الكتابية – دار الهدى للطباعة والنشر- بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٧٤- د. السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث: مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية- دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٧٥- د. عبد الحميد يونس: "اللغة الفنية" مجلة عالم الفكر م٢ ع١، ١٩٧١.

٧٦- د. محمود سليمان ياقوت: معاجم الموضوعات في ضوء علم اللغة الحديث- دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، ١٩٩٤م.

٧٧- د. خالد محمد الزواوي: الصورة الفنية عند النابغة الذبياني- الشركة المصرية العالمية- لونجمان ١٩٩٢م.

تطور الصورة في الشعر الجاهلي- مؤسسة حورس للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

سطور عن المؤلف:

الدكتور/ خالد محمد الزواوي ..

- دكتوراه في الأدب العربي من كلية الآداب جامعة عين شمس، بمرتبة الشرف الأولى.
- ماجستير في التربية، كلية التربية جامعة الإسكندرية.
- عضو هيئة تدريس اللغة العربية بدولة الكويت، وجمهورية مصر العربية.
- مشارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية والثقافية والفنية.
- حاصل على وسام عيد العلم، والمعلم المثالي، وميدالية الشرف، وشهادات تقدير وامتياز.
- حرر عديدا من المقالات والبحوث الأدبية، والدراسات النقدية بالصحف العربية.
- عضو اتحاد كتاب مصر- وهيئة الفنون والآداب- والجمعية المصرية التشريعية للبيئة.
- تتلمذ على كبار الأدباء والمفكرين والعلماء أمثال الأستاذ الدكتور/ طه حسين/ شوقي ضيف/ يوسف خليف/ شكري عياد/ سهير القلماوي/ محمد زكي العشماوي/ إبراهيم عبد الرحمن/ سعيد منصور.

كتب المؤلف:

- النقد والبلاغة للمرحلة الثانوية- بتكليف من وزارة التربية والتعليم بدولة الكويت- سنة ١٩٧٧.

- الصورة الفنية عن النابغة الذبياني- الشركة المصرية العالمية- لونجمان- سنة ١٩٩٢.

- تطور الصورة في الشعر الجاهلي- مؤسسة حورس للنشر والتوزيع- الإسكندرية- سنة ٢٠٠٠.

- التعليم المعاصر قضاياه الفنية والتربوية- مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع- مصر- سنة ٢٠٠١.

- مشاهد أبكتني- دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر- الإسكندرية- سنة ٢٠٠٢.

- اللغة العربية.

- الماء في القرآن الكريم والسنة والعلوم الحديثة- تحت الطبع.

- الحل لمشكلة البطالة "دراسة مقارنة"- تحت الطبع.

- السماحة في الأديان ودورها ي التنمية- تحت الطبع.

العنوان

بولكلي- شارع أبو هيف- أمام ١٩ شقة ٣ - الإسكندرية.

تليفون:

٠١٢٢٧٣٨٠٤٤

٠١٢٣٢٦٩١٥١

٠٣/٥٤٦٣٤١٩

المحتويات